جَامِعُ البَيَانِ فِي مُتَشَابِهِ القُرْآنِ

الجُزْءُ الأَوَّل
مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَة إلى سُورَةِ الكَهْف

أ. د/ أبو سريع محمد أبو سريع
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
بالقاهرة - جامعة الأزهر

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٢٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
أبو سريع، أبو سريع محمد
جامع البيان في متشابه القرآن./ أبو سريع محمد أبو سريع. - الرياض، ١٤٢٧هـ
٢ مج
.. ص .. سم
ردمك: ٥-١٢٣-٥١-٩٩٦٠ (مجموعة)
١-١٢٤-٥١-٩٩٦٠ (ج١)
١- القرآن - المحكم والمتشابه أ- العنوان
ديوي ٢٢٦.٦٣ ١٤٢٧/٥٣٧٢

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٥٣٧٢
ردمك: ٥-١٢٣-٥١-٩٩٦٠ (مجموعة)
١-١٢٤-٥١-٩٩٦٠ (ج١)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤
المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

جَامِعُ البَيَانِ
فِي
مُتَشَابِهِ القُرْآنِ
(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً ومهيمناً على سائر الكتب. فسبحان من أنزله رزين اللفظ، قوي المعنى، ناصع البيان، متين البرهان، معجز المباني، متمكن المعاني، عذب المتفرد والمثاني. جمع بين الكمال الفائق والجمال الرائق، إظهاراً لفضله وتكريماً لأهله.

والصلاة والسلام على من أرسله ربه برسالة هي برد اليقين، وشفاء الصدور، وطمأنينة القلوب، مشفوعة بالدلائل البينة، والحجج النيرة، فكانت خير شريعة أخرجت للناس، وأجمع ملة لخير الدنيا وسعادة الآخرة، وأثبت بناء على كر الدهور ومر العصور، إلى حد جعل الفطر المستقيمة، والألباب السليمة، والأذواق الرفيعة، مجبولة على الإيمان بها «مذعنة لتعاليمها وآدابها».

ورضي الله تعالى عن آل رسول الله، وأصحابه، وأتباعه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون .. وبعد:

فهذا كتاب: «جامع البيان في متشابه القرآن» ليس فريداً في بابه. فقد نحا هذا المنحى، وسلك ذلك المسلك جمهور السلف الصالح من العلماء الأفاضل والمحققين الأفذاذ، الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل الذود عن رياض كتاب الله الحكيم. فدحضوا شبه المارقين، وكشفوا عوار الغالين المبطلين، وردوا كيد الجاهلين، وزيفوا طريق الحاقدين الطاعنين ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾[1].

(١) سورة الفتح، الآية: ٦.

وكانوا - رحمة الله وبركاته عليهم ورضوانه - مع جلالة قدرهم، وسعة علمهم، وثاقب رأيهم، وترامي آفاقهم يسددون جل اهتمامهم في صوب معين، وزاوية خاصة. فإن سلكوا مسلكاً آخر، اكتفوا باللمحة الدالة والإشارة الموحية.

ولما كان لكل عصر ضروراته الماسة، وحاجاته الملحة، ودوافعه الحافزة، كتب أولئك الصفوة فيما تمس الحاجة إليه، وتحث الضرورة عليه.

وغير خاف عليك أن الأمر ليس توقيفياً وليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه، ولكنه الاجتهاد الشرعي وفق الآداب والفتوحات التي يمتن بها الرحمن - سبحانه وتعالى.

وهذا أمر - لعمر الحق - يؤكده الواقع وتثبته الدلائل والبراهين. إذ أن عطاء القرآن لا ينضب، ومعينه لا يغيض، وإمداده مستمر إلى يوم تنتهي فيه الحياة، فتبدل الأرض فيه غير الأرض والسموات، ويقوم فيه الخلق لرب العالمين، فلهذا كان النهل منه توفيقياً.

كما أن هناك مجموعة من الدوافع تكمن وراء هذه المحاولات أو المواجيد العلمية وتدفعها إلى الغايات البعيدة دفعاً، وفي طليعة تلك الدوافع أن الباحثين مأجورون: أصابوا أم أخطأوا.

فهذا كتاب مشكل القرآن [١] يكاد يكون محصوراً فيما سأل عنه

---

(١) مؤلفه. الإمام قطرب المتوفى: ٢٠٥هـ.

الملحدون من آي القرآن التي تبدو لهم متعارضة متناقضة. فوفق بين المتناقضات - في زعمهم - ودحض افتراءهم وأباطيلهم، على أحسن وجه وأكمل صورة.

وكتاب «تأويل مشكل القرآن» [١]، وهو كتاب مشهور في هذا المجال. وقد تصدى فيه لخصومه ودافع عن مذهبه وعقيدته بجعل المعنى متناسباً مع رؤيته بعيداً عن رؤى الآخرين، رغبة فيما يرومه ويقصده، مع تعرضه لتفسير المشكلات اللغوية والنحوية، كما قام بدفع الاعتراضات وتفنيد الادعاءات التي أثارها أعداء الإسلام وحساده.

وكتاب «فوائد في مشكل القرآن» [٢]. وهو كتاب مفيد وفريد في بابه. يعرض فيه - صاحبه - بإيجاز غير مخل - لما قد ينقدح في ذهن التالي لكتاب الله تعالى من إشكالات قد يتساءل عنها - في بادئ الأمر - أو بعد تأمل. وقد طرح - رحمه الله تعالى - كثيراً من الإشكالات اللغوية والنحوية، والبلاغية، والأصولية، وأجاب عنها بما نقله عن غيره - وهو عنه راض - أو بما رآه مناسباً.

وكتاب «متشابه القرآن» [٣]، وصاحبه يعد الآية من المتشابه إذا ما دل

---

(١) مؤلفه الإمام ابن قتيبة .

(٢) لسلطان العلماء العز بن عبدالسلام المتوفي ٦٦٠هـ، تحقيق الدكتور سيد رضوان ط، دار الشروق بالكويت.

(٣) مؤلفه القاضي: عبدالجبار، وله أيضاً كتاب «تنزيه القرآن عن المطاعن».

ظاهرها على عقيدة أهل السنة، لذا: فهو يتناول قضايا خلافية عقدية بين أهل السنة والمعتزلة، وهو يحاول – ما استطاع – تطويع النصوص بما يتناسب مع مذهبه ويتلاءم مع عقيدته.

وكتاب «أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل» [(١)]، وهذا الكتاب توافق اسمه مع مسماه، بيد أنه لم يكن جامعاً لكل ما قيل، ولا متضمناً لما يمكن أن يقال. ففي أغلب الأحوال تراه مقتصراً في الجواب على قول واحد – وغالباً ما يكون رأي الزمخشري – وكثيراً ما يكون المكتفي به مرجوحاً. وقد يعقب على الجواب بقوله: وفيه نظر، غير مبين لنظره! فإذا ما ذكر في الجواب أقوالاً متعددة، لم يرجح بعضها على بعض؛ مما يوهم أنها في درجة واحدة.

وكتاب «البرهان في توجيه متشابه القرآن» لتاج القراء: محمود بن حمزة ابن نصر الكرماني، المتوفى ٥٠٥هـ [(٢)].

وكتاب «مشكلات القرآن» للشيخ محمد أنور شاه الكشميري [(٣)].

وكتاب «تفسير مشكل القرآن» [(٤)].

---

(١) مؤلفه العلامة: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي صاحب مختار الصحاح في اللغة المتوفى سنة ٦٦٦هـ.

(٢) تحقيق عبدالقادر أحمد عطا. ط. دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) أحد علماء الهند؛ توفى ١٣٥٣هـ. وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاته بثلاثة أعوام.

(٤) مؤلفه: الشيخ راشد عبدالله الفرحان، وطبع في الكويت ١٩٨٣م.

أما كتاب «أضواء على متشابهات القرآن»(١) فليس – فيما أرى – أنه من المتشابه في شيء – اللهم إلا النزر اليسير – وإنما هو تفسير لبعض الألفاظ القرآنية. إذ جل ما فيه: ما معنى كذا؟ وما الغرض من كذا؟ وما موقع كذا من الإعراب؟ وما المراد بكذا؟ وعلام يعود الضمير؟ وما سمعنا أن هذا من قبيل المتشابه!!!.

ثم إن المؤلف – عفا الله عنا وعنه – سرعان ما ينتصر لمذهبه وعقيدته (عقيدة الشيعة) ويتطاول على من يخالفهم، مستهزئاً به مستخفاً بعقله. وربما يفعل ذلك قبل أن يقول شيئاً.

فما أبعده عما تقتضيه مكارم الأخلاق، ومعالي الشيم إزاء أمر يجب أن يكون الباحث فيه محايداً – ولو كان مخالفاً لمعتقده – حتى تستبين الحقيقة ويلوح الصواب، فمن حلم عَظُم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب(٢).

ولا أرى أن تعد تلك الآراء المذهبية من قبيل المتشابه، إذ لا يتعلق ذلك

---

(١) مؤلفه الشيخ: خليل يس. وهو يحتوي على ألف وستمائة سؤال وجواب، وطبع في مطبعة الأديب الجديدة – بيروت (مجلدان).

(٢) وهذه الكتب نماذج لمناهج من كتبوا في هذا العلم ولكن كتب التراث في هذا المجال كثيرة منها: كتاب «فتح الرحمن في متشابه القرآن» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وكتاب «الإكليل في المتشابه والتأويل» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب «جوابات القرآن» لابن عيينة، وكتاب «ضياء القلوب في معاني القرآن وغريبه ومشكله» للفضل بن سلامة، وكتاب «في معاني القرآن وتفسيره ومشكله» لأبي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الوزير.

بـاللفظ القـرآني مـن حيـث الغموض والحكم عليه بالإحكام أو التشابه. وإنما ذلـك أمـر يختلف باختلاف مفاهيم الناس، وعاداتهم، ومقدرتهم على البحث والاستنباط، ومنة الله تعالى على عباده بالإصابة في اجتهاداتهم.

ولا أرى أن اسـتعمال اللفـظ في بعض الوجوه اللغوية يجعله من المتشابه إذ مـن المعلـوم: أن العـرب استعملوا في لغتهم اللفظ الواحد في معان متعددة (المشترك اللفظي) كما هو الشأن في اللغات الأخرى.

ولا أرى أن خفـاء إعراب اللفظ – على بعض المذاهب النحوية – دافعاً إلى عـده في عداد المتشابه، فالناس في لغتهم مذاهب، وفي تقدمهم مواهب، فما يكـون خافياً غامضاً عند قوم، يكون ظاهراً جلياً عند آخرين. يقول الكرماني: «وما يتعلق بالإعراب لا يعد في المتشابه»[(١)].

وإنمـا أرى أن المتشـابه هـو مـا خفي معناه بادئ ذي بدء، أو بعد إعمال فكـر ورويـة، مقارنـة بآيـة كريمة، أو حديث صحيح، أو أمر معلوم بالضرورة عقلاً أو شرعاً.

وقـد يكـون المعنى ظاهراً، لكن الغموض والتشابه أتيا من جراء الإسناد كقولـه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾[(٢)]. فالاستواء معلوم من جهة اللغة، لكن الغموض حصل من نسبة ذلك إلى الله – سبحانه وتعالى.

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص١٦١.

(٢) سورة طه، الآية: ٥.

والاكتفاء في إزالة الشبهة أو دفع الاعتراض بقول واحد – وإن كان صحيحاً ليس كافياً – فيما اعتقد – فتتابع الأقوال أرسخ في القلب لمعرفة الصحيح، وأثبت في النفس للاطمئنان إليه، وأقوى للعلم في الأخذ به.

فكان من الضرورة القصوى، ومن الأهمية بمكان أن يوضع بين يدي طالب العلم والراغب فيه خلاصة ما وصل إليه السابقون في العلم بعد تحقيقها وتمحيصها ومقارنتها بنظائرها، والتصرف في بعض ألفاظها لاستخراج زبدها، فيكون ذلك توسيعاً للأفق، وإعمالاً للفكر، وتقويماً للرأي.

فيحلل الباحث تحليلاً دقيقاً، وينظر نظراً صائباً، ويحكم بعد تمعن ونصفة، فيقول هذا مشرق واضح لا خروج منه ولا محيد عنه، ولا أبغي عنه حولاً، ولا أجد من دونه ملتحداً.

أو يقول: هذا شقاق بعيد لا اعتماد عليه، ولا سبيل إليه، ولي في غيره سعة، ودونه كفاية وغنى.

ومن ثم آثرت ما تعم فوائده، وتجل عوائده. فتتبعت ما ورد من أسئلة على كتاب الله – عز وجل – وما يمكن أن يرد – قدر الطاقة – وجعلت هذه الأسئلة مشفوعة بإجابات من أقوال العلماء الذين إليهم المنتهى في هذا الباب، مرجحاً ما يمكن ترجيحه بالدليل – إن رمت إليه – ومبعداً ما ينبغي إبعاده، إن كان واهن القوى، فاتر الهمة. مبيناً وجه ذلك.

وقد يمنح الوهاب – جل ثناؤه – المقل من العلم ما غفل عنه المكثر منه؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وسميت هذا العمل «جامع البيان في متشابه القرآن» فما كان فيه من هفوة في حرف، أو زلة في معنى، أو إغفال أو وهم أو نسيان، فليس علي في ذلك وكف [١] فكل بني آدم خطاء، ومن لا يخطئ منهم لا يصيب، ومن لا يعثر لا ينهض.

وهو - وإن كان لا يساورني ريب في سبر [٢] أغواره، وجمع شتاته، وتحديد مضمونه - لكنه لا حظر على طلب المزيد، بعد أن جعلت بين يديك ما فيه الغنية والكفاية من خبرة أهل الفن ورواده ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [٣].

وقبل أن أبدأ الحديث عن هذا النوع من المتشابه؛ يحسن التقدمة له ببيان المراد بكل من المحكم والمتشابه.

«اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أذل أو أذل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي» [٤].

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [٥].

***

(١) أي عيب.

(٢) تتبع.

(٣) سورة يوسف من الآية: ٧٦.

(٤) سنن الإمام الترمذي في الدعوات، وسنن الإمام ابن ماجه في الدعاء، وسنن الإمام أبي داود في كتاب الأدب.

(٥) سورة الممتحنة من الآية: ٤.

المحكم والمتشابه

المحكم في اللغة: مأخوذ من قول العرب: حكمت وأحكمت، بمعنى رددت ومنعت، فيقولون: أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه عن الفساد. ويقولون: أحكمه عن الأمر أي: رجعه عنه، ومنعه منه. ويقولون: حكم نفسه وحكم الناس أي: منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغي، ويقولون: أحكم الفرس، أي: جعل له حكمة (١).

ومنه سمى الحاكم حاكماً؛ لأنه يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين، وسميت الحكمة حكمة؛ لأنها تمنع الفرس من الاضطراب، وسمى الحكم حكماً؛ لأن به يفصل بين الشيئين. وسميت الحكمة حكمة؛ لأنها تمنع صاحبها عما لا ينبغي. وبناء محكم أي: وثيق يمنع من يتعرض له. فلفظة الإحكام مستعملة في اللغة بمعنى المنع والرد.

والمحكم في الاصطلاح هو ما أحكمته بالأمر والنهي، وبيان الحلال والحرام.

والتشابه في اللغة: التماثل، يقال: تشابها، واشتبها، أي: أشبه كل منهما الآخر، وتماثلا حتى التبس على الذهن التمييز بينهما. ويقال للغامض: متشابه؛ لأن جهة الشبه فيه. والشبهة بالضم: الالتباس، ويقال: شبه عليه

---

(١) بفتحات ثلاث، وهي: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامة تمنعه من الاضطراب.

الأمـر تشبيهاً أي لُبِّسَ عليه [١] . ومنه قولـه تعالى: ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [٢] أي: مـتفق المـنظر مختلف الطعـم. وقولـه: ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ [٣] . أي: التبس علينا التمييز بينه.

ولـما كـان شـأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما، سمي كل ما لا يهتدى إليه متشابهاً، كما سمي غير المعلوم متشابهاً.

والمتشـابه في الاصـطلاح هـو: أن تتماثل الألفاظ في الظاهر، وتختلف في المعنى. وقيل: هو ما أمرت أن تؤمن به، وتكل علمه إلى عالمه.

وبـناء عـلى المعـنى اللغـوي لكـل مـنهما أطلق على القرآن الكريم كله محكم، وعليه كله متشابه.

ومعـنى كـون القرآن محكماً، أنه كلام متقن السبك، حق الإخبار، فصيح العـبارات، لا تفـاوت فـيه، صـحيح المعـاني - ومـنه قولـه تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [٤] ومعـنى كـون القـرآن متشـابهاً: أنـه يشبه بعضه بعضاً في الإعجـاز والحسـن، ويصـدق بعضـه بعضـاً في المعـنى وكل ما جاء به، ويماثل بعضه بعضاً في البشارة والنذارة. ومنه قولـه تعالى: ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [٥]

---

(١) بضم الأول وتشديد الثاني مع كسره في الفعلين.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧٠.

(٤) سورة هود، الآية: ١.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه المتقدم لا ينافي الآخر ولا يقابله.

أما إذا ذكر المحكم في مقابلة المتشابه، فهما متباينان من هذه الجهة، ولكل منهما حد يخصه. ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ (١).

فقد دل على أن بعض القرآن محكم، وبعضه الآخر متشابه. ومن ثم اختلف العلماء في تحديد معنى كل من المحكم والمتشابه على أقوال كثيرة منها:

الأول: أن المحكم هو ما كانت دلالته راجحة – وهو النص والظاهر.

أما المتشابه فهو: ما كانت دلالته غير راجحة – وهو المجمل والمؤول والمشكل. ويعزى هذا الرأي إلى الإمام الرازي. واختاره كثير من المحققين. وقد بسطه الإمام بما خلاصته:

إن اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى، إما أن لا يكون محتملاً لغيره، أو يكون محتملاً لغيره. الأول: النص، والثاني: إما أن يكون احتماله لأحد المعاني راجحاً ولغيره مرجوحاً، وإما أن يكون احتماله لهما بالسوية.

واللفظ بالنسبة للمعنى الراجح يسمى ظاهراً، وبالنسبة للمعنى المرجوح يسمى مؤولاً، وبالنسبة للمعنيين المتساويين أو المعاني المتساوية يسمى مشتركاً. وبالنسبة لأحدهما على التعين يسمى مجملاً. وقد يسمى اللفظ مشكلاً إذا كان معناه الراجح باطلاً، ومعناه المرجوع حقاً أي أن النص هو: اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى لا يحتمل غيره.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

والظاهر: هو اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى راجح.

والمؤول: هو اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى مرجوح.

والمشترك: هو الذي جعل موضوعاً لمعانٍ متساوية.

والمجمل: هو اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعاني متساوية، ويقصد أحدها.

والمشكل: هو اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى راجح باطل، ومعنى مرجوح حقاً. إذا عرفت هذا، فالمحكم هوما كانت دلالته راجحة – وهو النص والظاهر لاشتراكهما في حصول الترجيح، إلا أن النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع منه.

أما المتشابه فهو: ما كانت دلالته غير راجحة – وهو المجمل والمؤول والمشكل، لاشتراكهما في أن دلالة كل منها غير راجحة. وأما المشترك فإن أريد منه كل معانيه فهو من قبيل الظاهر، وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل.

ثم بين الإمام الرازي أن المتشابه على هذا التعريف، يجب الإيمان به، ويلزم المسلم الاعتقاد بأن إطلاق ظاهره محال. ويتحتم عليه عدم الخوض في تعيين تأويله إلا إذا ورد دليل قطعي عقلي على أن المعنى الراجح محال عقلاً فقال: ثم إن صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح، لا بد فيه من دليل منفصل. وذلك الدليل المنفصل، إما أن يكون لفظياً، وإما أن يكون عقلياً. والدليل اللفظي لا يكون قطعياً؛ لأنه موقوف على نقل اللغات، ونقل

وجوه النحو والتصريف، وموقوف على عدم الاشتراك، وعدم المجاز، وعدم الإضمار، وعدم التخصيص، وعدم المعارض العقلي والنقلي، وكل ذلك مظنون، والموقوف على المظنون مظنون.

وعلى ذلك فلا يمكن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معنى مرجوح بدليل لفظي في المسائل الأصولية الاعتقادية. ولا يجوز صرفه إلا بواسطة قيام الدليل القطعي العقلي على أن المعنى الراجح محال عقلاً.

وإذا عرف المكلف أنه ليس مراد الله تعالى، فعند ذلك لا يحتاج إلى أن يعرف أن ذلك المرجوح ما هو؟ لأن طريقه إلى تعيينه، إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز، وبترجيح تأويل على تأويل. وذلك الترجيح لا يكون إلا بالأدلة اللفظية، وهي لا تفيد إلا الظن، والتعويل عليها في المسائل القطعية لا يفيد. لذا كان مذهب السلف عدم الخوض في تعيين التأويل في المتشابه، بعد اعتقاد أن ظاهر اللفظ محال، لقيام الأدلة العقلية القطعية على ذلك. أ. هـ.

وقد علق على رأي الإمام الرازي هذا، صاحب مناهل العرفان [1]، بعد أن ذكر الآراء الأخرى.

حيث قال: بيد أن رأي الرازي أهداها سبيلاً، وأوضحها بياناً؛ لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع فيما نفهم إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه، وإلى عدم وضوحه. وتعريف الرازي جامع مانع من هذه الناحية لا يدخل في

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٢٧٥-٢٧٦.

المحكم ما كان خفياً، ولا في المتشابه ما كان جلياً؛ لأنه استوفى وجوه الظهور والخفاء استيفاء تاماً في بيان تقسيمه الذي بناه على راجح ومرجوح. والذي أعلن لنا منه أن الراجح ما كان واضحاً لا خفاء فيه، وأن المرجوح ما كان خفياً لا جلاء معه.

القول الثاني: أن المحكم هو ما كان واضح المعنى لكل الناس، لا يتطرق إليه إشكال مأخوذ من الإحكام وهو الإتقان. والمتشابه نقيضه وهو ما خفي علمه على غير الراسخين في العلم. فيدخل في المحكم النص والظاهر، وفي المتشابه، الأسماء المشتركة كالقرء، واللمس، وما يوهم التشبيه في حقه – تعالى.

وقد نسب هذا القول للإمام الطيبي وقيل هو لبعض المتأخرين. وقد علق عليه صاحب مناهل العرفان [١]، حيث قال: إنه قريب من رأي الرازي حتى كأنه هو، غير أنه لم يستوف وجوه الظهور والخفاء استيفاء الرازي.

القول الثالث: وهو منسوب لإمام الحرمين: أن المحكم هو السديد النظم والترتيب، الذي يفضي إلى إثارة المعنى المستقيم من غير مناف. والمتشابه هو الذي لا يحيط العلم بمعناه المطلوب من حيث اللغة، إلا أن تقترن به أمارة أو قرينة ويندرج تحته المشترك.

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٢٧٦.

وقد علق صاحب مناهل العرفان عليه بقوله: «أما رأي إمام الحرمين ففيه شيء من الإبهام» [(١)].

القول الرابع: وإليه مال ابن عباس، وجرى عليه أكثر الأصوليين، أن المحكم هو: ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل.

والمتشابه هو: ما احتمل أوجهاً.

وعلق عليه صاحب المناهل قائلاً: ورأي ابن عباس يخرج الظاهر من المحكم، ويدخله في المتشابه مع أنه من الواضحات. واحتماله لغير معناه الراجح احتمال ضعيف، لا يقدح في ظهوره ووضوحه [(٢)].

القول الخامس: وقد حكي عن الإمام أحمد - رحمه الله - أن المحكم هو: ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان. والمتشابه هو الذي يحتاج إلى بيان، فتارة يبين بكذا، وتارة يبين بكذا، لحصول الاختلاف في تأويله.

وقد قال عنه صاحب المناهل [(٣)] وكذلك رأي الإمام أحمد لا ندري ما مراده بالبيان الذي يحتاج إليه المتشابه؛ ولا يحتاج إليه المحكم.

القول السادس: أن المحكم ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل. والمتشابه هو: ما استأثر الله تعالى بعلمه؛ كقيام الساعة، وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور. وقد قيل: إن هذا هو المختار عند أهل السنة، بينما قال عنه صاحب المناهل: هذا الرأي بعكس الآية، فيدخل في

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٢٧٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

المحكـم كثيراً من الخفيات، ويقصر المتشابه على نوع واحد منها. فيكون تعريف المحكـم فيه غير مانع، وتعريف المتشابه غير جامع، بالنسبة إلى المذهب المختار – وهو مذهب الرازي (١).

القـول السـابع: أن المحكـم هـو الواضح الدلالة، الظاهر الذي لا يحتمل النسـخ. أمـا المتشـابه فهـو الخفـي الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة، والحروف المقطعة في أوائل السور، وقد عزا الألوسي – رحمه الله – هذا الرأي إلى السادة الحنفية.

وقـد علـق علـيه صاحب المناهل: بأنه يقصر تعريف المحكم على النص، وتعريف المتشابه على ما استأثر الله بعلمه. ويلزم عليه وجود واسطة لا تدخل في المحكـم ولا في المتشابه، ويكون تعريفهما غير جامع بالنسبة للمذهب المختار أيضاً (٢).

هـذه الأقـوال أشـهر مـا رويٍ في تحديـد مفهوم كلٌ من المحكم والمتشابه. وبالـتأمل فيها، يظهر أن بعضها قريب من بعض، وليس بينها تفاوت كبير وقد ذكرت آراء أُخر دون هذه الآراء، وإليك بيانها:

١- المحكـم: هـو كـل مـا يجـب الإيمان والعمل به؛ كالفرائض والحدود والحـلال والحـرام والوعـد والوعـيد. أمـا المتشابه فهو كل ما يجب الإيمـان بـه ولا يعمـل به؛ كالقصص والأمثال. وقد روى هذا عن عكـرمة وقـتادة ومجـاهد. ومـلحظ هـذا الـرأي: حمل المتشابه على المـتماثل في القـرآن والكتـب الأخـرى، ولـيس عـلى معنى التباس المقصود وخفائه.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

وقد اعترض عليه بأن فيه قصراً للمحكم على ما كان من قبيل الأعمال، وقصراً للمتشابه على ما كان من قبيل العقائد. وإطلاق القول فيهما على هذا الوجه غير سديد. فإن أرادوا بالمحكم أنه الواضح الذي يؤخذ بمعناه على التعيين، والمتشابه ما كان خفياً يجب الإيمان به دون تعيين لمعناه، نقول: إن أرادوا ذلك فالعبارة قاصرة عن أداء هذا المراد، والمراد منها لا يدفع الإيراد عليها(١).

٢- أن المحكم هو ما كان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه، كأعداد الصلوات، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان .. الخ.

وقد اعترض عليه بأن هذا تفسير قاصر عن الوفاء بكل ما كان واضحاً، وكل ما كان خفياً (٢).

٣- أن المحكم هو: ما لم تتكرر ألفاظه، والمتشابه هو: ما تكررت ألفاظه، كقصة موسى – عليه السلام.

وقد اعترض عليه بأن هذا المعنى بالنسبة إلى المتشابه، أقرب إلى اللغة منه إلى الاصطلاح الذي عليه الجمهور، وفيه إهمال لما اعتبر هنا من أمر الخفاء والظهور.

***

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٢٧٧.

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة.

رأي العلماء في تعيين المتشابه

ذهب كثير من الفقهاء والمتكلمين – وهو المختار عند أهل السنة – إلى أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله. وهؤلاء يوجبون الوقف على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [1] . ويقولون: إن الله كلف عباده من كتابه بما لا يعلمون – وهو المتشابه – كما تعبدهم من دينه بما لا يعقلون – وهو التعبدات.

ويستدلون على مذهبهم بأدلة كثيرة منها:

١- أن أقوال العلماء في معنى المتشابه متعارضة. وليس بعضها أولى بالترجيح من بعض؛ لأنه ليس واحد منها يستند إلى دليل عقلي قطعي.

٢- ويستدلون أيضاً بقراءة ابن مسعود – رضي الله عنه «وإن تأويله إلا عند الله» [2] . حيث يتحتم على هذه القراءة أن تكون الواو في قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ للاستئناف، وليست للعطف؛ لأنه لا يجوز عطف قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ على لفظ الجلالة؛ لاختلافهما رفعاً وجراً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) تفسير ابن جرير ٣/ ١٨٤.

وقد اعترض على هذه القراءة بعدم تواترها في مصاحف عثمان – رضي الله عنه – فهي تفسير وليست بقراءة.

ولكن هذه الرواية – وإن لم تثبت بها القراءة – فأقل درجتها أن تكون خبراً بإسناد صحيح.

٣- واستدلوا أيضاً بما أخرجه ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «**إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به**» (١).

٤- وبما أخرجه ابن أبي حاتم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: كان رسوخهم في العلم أن آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه (٢).

٥- وبأن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه. ووصفتهم بالزيغ وابتغاء الفتنة. وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب. وهذا كله يدل على أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله.

ويرد على هذا، أن الذم متوجه إلى الذين أصابهم المرض، وتمكن الزيغ من قلوبهم. فتوجهوا إلى المتشابه من خلال حالتهم هذه، ابتغاء الفتنة والإضلال، لا طلباً للعلم والمعرفة.

---

(١) المسند: ٢/ ١٨٥.

(٢) تفسير ابن جرير: ٣/ ١٨٢.

يقول الزركشي: قدم - سبحانه - الذي يتبعون ما تشابه منه عليهم، افتتاناً وتضليلاً، فهم بذلك يتبعون ما تشابه عليهم تناصراً وتعاضداً للفتنة والإضلال[1]. وهذا ما يراه ابن جرير وابن كثير - رحمهما الله تعالى[2].

٦- واستدلوا كذلك بما أخرجه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان يقرأ: (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول: الراسخون في العلم آمَنَّا به). وهذا يدل على أن الواو للاستئناف؛ لأن هذه الرواية - وإن لم تثبت بها القراءة - فأقل درجاتها، أن تكون خبراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن، فيقدم كلامه في ذلك على من دونه.

٧- وبما حكاه القراء، أن في قراءة أُبي بن كعب - رضي الله عنه - (ويقول الراسخون).

٨- وبما أخرجه الدارمي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: إنه سيأتيكم ناس يجادلونكم بمشتبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله[3].

٩- وبما روى عن عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله تعالى - أنه قال: انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[4][5].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٧١.

(٢) تفسير ابن جرير ٣/ ١٧٧ وتفسير ابن كثير: ٢/ ٥.

(٣) سنن الإمام الدارمي - المقدمة - باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٥) تفسير ابن جرير: ٣/ ١٨٣.

١٠- وبما روى عن بعض أئمة الشافعية أنه قال: دلت الآية على أن من القرآن شيئاً غيبه الله عن خلقه ليلزمهم النقص في أنفسهم؛ لأنهم لا يبلغون من الأمر إلا ما قدر لهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[1].

١١- وبما أخرجه الشيخان عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٧﴾[2] قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»[3].

١٢- وبما أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي مالك الأشعري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال، أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله ..**» الحديث.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) صحيح الإمام البخاري – كتاب التفسير – وصحيح الإمام مسلم، كتاب التفسير.

١٣- وبما أخرجه الدارمي من أن رجلاً يقال له «صبيغ» قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر - وقد أعد لـه عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبدالله صبيغ، فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى أدمى رأسه. وفي رواية: حتى ترك ظهره دبرة. وفي هذه الرواية: أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري: لا يجالسه أحد من المسلمين [(١)].

١٤- وبما روى أن مالكاً - رحمه الله - سئل عن الاستواء فأجاب السائل: بأن الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء. أخرجوه. يعني - رحمه الله - أن الاستواء معلوم محامله واستعمالاته في اللغة، وكيفيته المرادة من محامله الصحيحة عقلاً في حقه تعالى مجهولة، لعدم تعيين قاطع لها، والسؤال عن تعيين المراد من ذلك بغير دليل شرعي بدعة، والسالك طريق البدعة رجل سوء يجب أن يخرج لئلا يلحق شؤم بدعته من جالسه، ولكن تدبر معي - وفقني الله تعالى وإياك - قول الإمام - رحمه الله - «وأظنك رجل سوء».

وذهـب فـريق مـن العـلماء مـنهم مجـاهد، وابـن عـباس وأبـو الحسـن الأشـعري والمعـتزلة واختاره النووي - إلى أن المتشابه يمكن معرفة تأويله وأنه لا بد أن يكون في جملة الراسخين في العلم، من يعلم المتشابه.

---

(١) تفسير الدر المنثور: ٢/ ٧.

واستبعدوا أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته وهؤلاء يعطفون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ بالواو على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ ويقفون على هذه الجملة وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ جملة حالية.

وهؤلاء يقولون: إن الله تعالى لم يكلف الخلق بما لا يعلمون، وضعفوا القول الأول؛ لأن الله تعالى لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده، ويدل به على معنى أراده، فلو كان المتشابه لا يعلمه غير الله، ما لزمنا، ولا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه، فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ (١) جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، والمفسرون من أمته.

وقالوا: لو لم يكن للراسخين في العلم حظ من المتشابه إلا أن يقولوا (آمنا)، لم يكن لهم فضل على الجاهل؛ لأن الكل قائلون بذلك، ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا: هو متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمروه على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة.

فإن قيل: كيف يجوز في اللغة أن يعلم الراسخون، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وإذا أشركهم في العلم انقطعوا عن قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾. لأنه هنا ليس عطف حتى يوجب للراسخين فعلين؟ قلنا: إن «يقولون» هنا في معنى الحال، كأنه قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ قائلين آمنا، وقيل المعنى: يعلمون ويقولون، فحذف واو العطف، كقوله:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1] والمعنى: يقولون علمنا وآمنا؛ لأن الإيمان قبل العلم محال، إذ لا يتصور الإيمان مع الجهل.

وأيضاً: لو لم يعلموها لم يكونوا من الراسخين، ولم يقع الفرق بينهم وبين الجهال كما استدلوا:

١- بقوله ﷺ: «**الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس**»، فدل ذلك على أن القليل من الناس يعلمها وهم الراسخون في العلم[2].

٢- وبما رواه ابن المنذر عن طريق مجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قال: أنا ممن يعلم تأويله[3].

٣- واستدلوا أيضاً بما أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك قال: الراسخون في العلم يعلمون تأويله، لو لم يعلموا تأويله. لم يعلموا ناسخه من منسوخه، ولا حلاله من حرامه، ولا محكمه من متشابهه.

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٢.

(٢) صحيح الإمام البخاري – كتاب الإيمان – باب فضل من استبرأ لدينه.

(٣) صحيح الإمام البخاري – كتال العلم – باب قول النبي ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب**».

كما استدلوا بما روى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه كان يقول: أنا من الراسخين في العلم، وقال عند قراءته في أصحاب الكهف ﴿ مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ (١) أنا من أولئك القليل.

٤- كما استدلوا بقولهم: إن الله أورد هذا في مقام مدح العلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه، لشاركوا العامة.

٥- واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ﴾ (٢) . فهذه الآية تدل على أن القرآن فصلت آياته وبينت.

٦- واستدلوا بقولهم: أنه لو كان المراد في الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ ﴾ بيان حظ الراسخين مقابلاً لبيان حظ الزائغين، لكان المناسب أن يقال: وأما الراسخون فيقولون.

٧- واستدلوا بما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ دعا لابن عباس – رضي الله عنهما – فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»، فلو كان التأويل مما لا يعلمه إلا الله تعالى، لما كان لهذا الدعاء معنى.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٢.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

٨- واستدلوا بما روى عن مجاهد أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها.

٩- وبما روى عن مجاهد أيضاً أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يعلمونه، ويقولون آمنا به[١].

وبعد:

فلكل من المذهبين وجهته ووجاهته، ولا أعتقد أن أصحاب المذهب الأول يطالبون بالتفويض العام والاستسلام المطلق، فذلك إغلاق على العقل، وسد لباب التفكير، وتعطيل لكثير من الألفاظ، وإبطال لفائدة الانتفاع بها.

ولا أظن أن القائلين بالمذهب الثاني قد أطلقوا لأنفسهم ولغيرهم العنان، وأباحوا البحث في كل شيء، والتقول على كتاب الله بغير علم.

فلا أحد ينكر أن في عداد المتشابه ما لا يحيط بعلمه مخلوق، ومنه ما تحتاج معرفته إلى التعمق في العلم والمعرفة، ومنه ما يمكن معرفته والوقوف عليه.

وهذا هو المراد من قول الراغب: إن جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

١- ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك.

(١) تفسير ابن جرير: ٣/ ١٨٣.

٢- وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة، والأحكام المغلقة.

٣- وضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله ﷺ لابن عباس - رضي الله عنهما - : «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» [١] .

وهذا قريب مما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - أنزل الله القرآن على أربعة أوجه:

حلال وحرام، ووجه لا يسع أحد جهالته، ووجه تعرفه العرب، ووجه تأويل لا يعلمه إلا الله [٢] .

وعلى هذا، فالوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ . ووصله بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ جائزان.

***

(١) مفردات القرآن - كتاب الشين.

(٢) تفسير ابن جرير: ١/ ٣٠.

جهة التشابه

ينقسم المتشابه باعتبار جهته إلى ثلاثة أضرب:

١- متشابه من جهة اللفظ وهو نوعان: أحدهما: راجع إلى الألفاظ المفردة، إما لغرابتها مثل الأبّ في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (١) ومثل: ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٢). وإما لاشتراكهما مثل: اليد واليمين والقوة والحلف. ثانيهما: راجع إلى جملة الكلام المركب، إما من جهة اختصاره نحو: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (٣). ولو بسط فقال – : إذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثير – ما وجد التشابه. وإما من جهة بسطه نحو: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ، فإنه لو قيل: ليس مثله شيء، لكان أظهر للسامع، وإما من جهة نظم الكلام مثل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة عبس، الآية: ٣١.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١.

٢- متشابه من جهة المعنى، وذلك مثل أوصاف الله تعالى. وأوصاف القيامة، فإن تلك الأوصاف لا نتصورها بالحقيقة؛ لأنه لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه.

٣- متشابه من جهة اللفظ والمعنى معاً، وذلك خمسة أنواع: أحدهما: من جهة الكمية كالعموم والخصوص مثل: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [(١)] مع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [(٢)] . وثانيها: من جهة الكيفية مثل الوجوب والندب في الأمر بقوله تعالى: ﴿ فَانكِحُوا ﴾ [(٣)] . وثالثها: من جهة الزمان مثل الناسخ والمنسوخ كقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا ﴾ [(٤)] . مع قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [(٥)] ، ورابعها: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها مثل: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [(٦)] ، فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية، وأنهم كانوا إذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها، وكأنهم كانوا يتحرجون من الدخول من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

الباب من أجل سقف الباب أن يحول بينهم وبين السماء. فمن لا يعرف عادتهم يتعذر عليه تفسير مثل هذه الآية. وخامسها: من جهة الشروط التي بها يصح الفعل ويفسد، كشروط الصلاة والنكاح ونحو ذلك. وكل ما قاله العلماء في بيان المتشابه، لا يخرج عن هذه الأنواع.

***

آراء العلماء في الإيمان بمتشابه الصفات

من أنواع المتشابه آيات الصفات، ولقد أفردها العلماء بالبحث، حتى كادوا يخصونها باسم المتشابه.

وقد اتفق العلماء من أهل السنة على أن الاعتماد في أصول العقائد على مجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير تفصيل بين ما يستحيل ظاهره منها عقلاً، وما لا يستحيل هو أصل من أصول الكفر. واتفقوا أيضاً على أنه لا بد في أخذ العقائد وتعلمها من الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب، كسورة الإخلاص ونحوها. كما اتفقوا على أنه من الآيات والأحاديث ما يخالف ظاهره ما علم من الآيات المحكمات، وشهدت بصحته الأدلة العقلية اليقينية، وجب أن نعتقد فيه أن ظاهره المستحيل ليس مراد الله تعالى، ولا لرسوله قطعاً، ثم إن كان له تأويل واحد، فهو المراد إجماعاً، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (١) . إذ الكينونة بالذات مع الخلق مستحيلة قطعاً، وليس له بعد ذلك إلا تأويل واحد وهو الكينونة معهم بالإحاطة بهم علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وكقوله: ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) . فليس للجنب تأويل سوى الحق والطاعة.

وقد اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة مذاهب:

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

المذهب الأول: مذهب السلف، وهو الإيمان بالمتشابهات، وتفويض معرفتها أو المراد منها إلى الله تعالى ورسوله، ولا يبحثون ولا يؤولون مع اعتقادهم أن الظاهر غير مراد منها. لقيام الأدلة القطعية على خلافه، ولا يؤولون؛ لأن تعيين المراد من المتشابهات، إنما هو بحسب استعمال العرب، وغايته أنه يفيد الظن، والمسألة من أصول الدين التي لا يكتفى فيها بالظن، بل لا بد فيها من اليقين.

وحصول اليقين في المدعى من اللفظ متعذر. لذا أوجبوا الوقف بعد التنزيه عن الظاهر المستحيل، وهؤلاء هم المفوضة.

المذهب الثاني: مذهب الخلف – وهم المؤولة – وهم فريقان:

- الفريق الأول: يحمل اللفظ الذي استحال ظاهره على معنى صحيح لائق به جل وعلا – عقلاً وشرعاً، على وجه يصح استعمال ذلك اللفظ في ذلك المعنى لغة. وحاصله: أنه يحمل اللفظ بعد تعذر استعماله في الحقيقة على أقرب مجاز يصح. وهذا مذهب إمام الحرمين، وجماعة من المتأخرين .. ووجه هذا القول: أن المطلوب صرف اللفظ عن مقام الإهمال الذي يوجب الحيرة بسبب ترك اللفظ لا مفهوم له، والخطاب بمثله للخلق بعيد.
- الفريق الثاني: يحمل المتشابه في الصفات بصرفها عن الظاهر المستحيل، على إثبات صفة لائقة به جل وعلا – عقلاً وشرعاً، باعتبار ما في نفس الأمر، وإن لم نكن نحن نعرف حقائق تلك

الصفات. ولهذا تسمى صفات سمعية: أي دل عليها السمع لا العقل، وهي صفات زائدة على الصفات المعلومة، وهو مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، وهو رأي وسط بين المذهبين الأولين، فلا هو بالتفويض المحض، ولا هو بالتأويل المحض، بل فيه تأويل من جهة حمل اللفظ على صفة لائقة به تعالى، فيكون المراد من اللفظ معلوماً من وجه، ولا يكون خطاباً بما لا يعرف. وفيه تفويض من جهة حقيقة الصفة، فليس تعييناً للمعنى بما لم يرد به قاطع. لذا كان غير بعيد عن مذهب السلف، بل هو قريب منه.

***

تطبيق

من آيات الصفات قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (١) ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ (٢) . ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ﴾ (٣)، ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ (٤) . ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾ (٥) . ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ (٦) . ﴿ هُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ ﴾ (٧) ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ (٨) ، ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ (٩) . ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ ﴾ (١٠) . ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ (١١) .

المذهب الأول: السلف: يثبتون لله عز وجل ما أثبته لنفسه من الاستواء، والوجه والعين، واليد، واليمين، والفوقية، والمجيء، والإتيان، والعندية، وغير

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

(٤) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٥) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٨) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٩) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(١٠) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

(١١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

ذلك على وجه يليق بعظمة الله تعالى.

المذهب الثاني الخلف: يحملون هذه الألفاظ التي تعذر استعمالها في الحقيقة على أقرب مجاز يصح بالنسبة لله – سبحانه – فيحملون الاستواء على العلم المعنوي بالتدبير والقهر من غير كلفة ولا معاناة ولا غلبة، والوجه على الذات، والعين على الآية المبصرة، واليد على القدرة، واليمين على الفضل والعدل، والفوقية على العلو لا في جهة والمجيء والإتيان بمعنى مجيء أمره وإيتائه والعندية على التمكن.

المذهب الثالث الفريق الثاني: من الخلف يصرفون الألفاظ عن ظاهرها المستحيل على إثبات صفات لائقة بالله – جل وعلا – عقلاً وشرعاً باعتبار ما في نفس الأمر، فيثبتون له – تعالى – صفة الاستواء، صفة، الوجه صفة العين، وصفة اليد .. إلخ.

وأرى أن القول الأول: يدعو إلى الإمساك عن النظر والاعتبار، ويغلق على العقل باب القياس والاجتهاد، وهذا يتعارض مع قول النبي ﷺ: «**من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد**».

كما أن القول الثالث: يثبت لله – عز وجل – بدون دليل قاطع أو برهان ساطع، صفات لم يصف المولى جل وعلا بها نفسه.

وما الحرج في حمل الألفاظ التي تعذر استعمالها في الحقيقة على أقرب مجاز يصح بالنسبة لله سبحانه؟

والمجاز سمة من سمات البلاغة، التي حاز القرآن منها قصب السبق،

وقد ورد ذكر المجاز في القرآن الكريم، وأجمع العلماء على وجوب القول به من أجل الدفاع عن العقيدة، وصد أعداء الدين. واتفقوا جميعاً على أن المجاز هو المراد، فيما ليس لـه إلا تأويل واحد، كقولـه تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (١) . وقوله: ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ ﴾ (٢) . وما يجوز على البعض يجوز على الكل.

الحكمة من ذكر متشابه الصفات:

ذكر ابن اللبان – رحمه الله – في مقدمة كتابه «رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات» كما نقلها عنه صاحب مناهج الفرقان في علوم القرآن – الحكمة من ذكر متشابه الصفات – وهي مخاطبة الناس على قدر عقولهم، ومراعاة مقتضى حالهم حتى لا يقعوا في التعطيل. وذلك بإيثار العبارات التي تقرب من أفهامهم، وتؤنس قلوبهم، فتجد لها مكاناً في نفوسهم، ثم هي بعد ذلك تبرهن على صدق إيمانهم، ومدى امتثالهم بدون تشبيه أو تجسيم لمن ليس كمثله شيء، حيث قال: ليس في الوجود فاعل إلا الله، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك ولا معين، فهي في الحقيقة فعله، وله بها عليهم الحكم، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣) .

ومن المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها من توسط الجوارح، مع أنها

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

منسوبة إليه تعالى، وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين:

مظهر عبادي منسوب لعباده، وهو الصور والجوارح الجسمانية.

ومظهر حقيقي منسوب إليه – جل جلاله – وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده، على سبيل التقريب لأفهامهم، والتأنيس لقلوبهم، ولقد نبه في كتابه الكريم على القسمين وأنه منزه عن الجوارح في الحالتين فنبه على الأول بقوله: ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [1]. فهذا يفهم منه أن كل ما يظهر على أيدي العباد، فهو منسوب إليه تعالى.

ونبه على الثاني بقوله، فيما أخبر عنه نبيه ﷺ في صحيح مسلم: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به .. إلخ**».

وقد حقق الله ذلك لنبيه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [2]. وبقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [3] وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوباً إليه تعالى، فلا نفهم من نسبتها إليه تشبيهاً ولا تجسيماً، ولكن الغرض من ذلك التقريب للأفهام، والتأنيس للقلوب.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

والواجب سلوكه إنما هو رد المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية، وعلى مواضعات العرب، وعلى ما كان يفهمه الصحابة والتابعون من الكتاب والسنة.

الحكمة من ذكر المتشابه عموماً:

علمنا مما سبق أن من المتشابه ما يمكن تأويله ومعرفة المراد منه، ومنه ما لا يمكن الوقوف على مراد الله تعالى به، وقد ورد ذكر النوع الأول في القرآن لحكم كثيرة منها:

الحكمة الأولى: أنه متى كانت المتشابهات موجودة في القرآن، كان في ذلك حث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائق معانيه، واستدعاء الهمم طلباً للعلم والمعرفة من أعظم القرب. والوصول إلى الحق بمثل ذلك صعب وشاق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1].

ولو كان القرآن الكريم كله محكماً لا يحتاج إلى تأويل، لسقطت المحنة، وبطل التفاضل بين الناس واستوت منازل الخلق، وهذا عبث، فلم يفعل الله تعالى ذلك، بل جعل بعضه محكماً، ليكون أصلاً للرجوع إليه، وبعضه متشابهاً يحتاج إلى قدح الذهن وإعمال الفكر حتى يرد إلى المحكم، فيتحقق الغرض الذي هو الجزاء العظيم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

الثانية: أنه لو كان الكتاب كله محكماً لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان بصريحه مبطلاً لجميع المذاهب المخالفة له، وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه. أما وجود المتشابه والمحكم فيه، فيطمع كل ذي مذهب، أن يجد فيه ما يؤيد مذهبه، فيضطر إلى النظر فيه، وقد يتخلص المبطل عن باطله، إذا أمعن فيه النظر، فيحمل على الحق.

الثالثة: أن وجود المتشابه يظهر فضل العالم على الجاهل، ويستدعيه علمه إلى المزيد في الطلب في تحصيله، ليحصل له درجة الفضل، والأنفس الشريفة، تتشوق لطلب العلم وتحصيله.

الرابعة: أنه باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، يضطر الناظر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية، فيتخلص من ظلمة التقليد. وفي ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، أما لو كان كله محكماً، لما احتاج إلى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملاً.

الخامسة: أنه باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه، يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة، مثل اللغة، والنحو، وأصول الفقه، مما يعينه على النظر والاستدلال، فكان وجود المتشابه، سبباً في تحصيل علوم كثيرة.

السادسة: أن القرآن مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية. وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر، إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل؛ فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة

على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح. فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر من باب المتشابه. والقسم الثاني وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو المحكم.

وأما المتشابه الذي لا يمكن الوقوف عليه، فقد ورد أيضاً في القرآن لحكم كثيرة منها:

١- الابتلاء والاختبار بالوقوف فيه، والامتحان بالإيمان به، أيؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا؟ والتعبد بالاشتغال من جهة التلاوة وقضاء فرضها، وإن لم يقفوا على ما فيها من المراد الذي يجب العمل به، اعتباراً بتلاوة المنسوخ من القرآن. وإن لم يجز العمل بما فيه من الحكم.

٢- إقامة الحجة على الناس بوجود المتشابه، وذلك لكونه نزل بلسانهم ولغتهم، ثم عجزوا عن الوقوف على ما فيه، مع بلاغتهم وقوة أفهامهم. فيدل ذلك أن المتشابه نزل من عند الله، وأن الله تعالى هو الذي أعجز الناس عن الوقوف على المراد منه.

٣- إقامة الدليل القاطع على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وغزر علمه.

٤- بيان رحمة الله تعالى بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء.

وبعد بيان المراد بكل من المحكم والمتشابه، يسهل الحديث في هذا الموضوع (موضوع الكتاب) فأقول – والله المستعان – :

***

سورة الفاتحة

قال الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (١).

ظاهر النص الكريم يفرض علينا سؤالاً مضمونه. كيف قدم العبادة على الاستعانة؛ مع أن عبادة الله – عز وجل – لا تتأتى بلا معونة منه – سبحانه وتعالى – ؟

والجواب سهل، والخطب هين، وذلك أن أحد الأمرين إذا كان مرتبطاً بالآخر، فلا يضطرب المعنى بالتقديم ولا بالتأخير، كما تقول، قضيت حقي فأحسنت إلي، وأحسنت إلي فقضيت حقي. وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ (٢). وعلى هذا فالمعنى نعبدك حالة كوننا مستعينين بك.

وقد وردت أجوبة عن هذا التساؤل منها:

١- أن ترتيب الآية – كما ورد – لتتوافق رؤوس الآي بما لها من تأثير فريد. ويرد على هذا القول أنه لا يليق بجلال الله تعالى أن يكون ترتيب كلامه لهذا الغرض. فهو من ضيق الفطن.

٢- أو أن الواو لا تقتضي ترتيباً؛ بل هي لمطلق الجمع، وعلى هذا يمكن أن يقال إن المعنى، إياك نستعين وإياك نعبد، وهذا توجيه لا

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

تخفى وجاهته على من تذوق أسرار التلاوة؛ بيد أنه لا يسلم مما قد يرد عليه، إن كان هذا هو المراد فلم لم يكن الترتيب على التقدير السابق؟

٣- أن المراد بهذه العبادة هو، التوحيد (توحيد الألوهية) وهو مقدم على طلب الاستعانة لأداء سائر العبادات؛ فلا يطلب المعونة إلا الموحدون، ولا يخفى على ذوي الألباب، أن العبد لا يرزق التوحيد مجرداً عن عون الله عز جاهه.

٤- أن العبادة وسيلة لطلب المعونة؛ وتقديم الوسيلة قبل الطلب أقرب إلى الإجابة. وهذا التوجيه لا يسلم من تطرق الضعف والرد له بأن يقال: إذا كانت العبادة وسيلة لطلب المعونة، والعبادة لا تتأتى بلا استعانة؛ وهذا مُفضٍ إلى الدور؛ وهو باطل.

٥- أن العبادة هي المقصود الأسمى من خلقه الثقلين؛ والاستعانة وسيلة إليها، والأصل أن يقدم الأهم فالمهم.

٦- أن الاستعانة نوع تعبد، فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً، ثم ذكر ما هو من لوازمها ثانياً.

٧- أن العبد إذا قال (إياك نعبد) حصل له الفخر، إذ العبادة منزلة عظيمة، وربما يحصل العجب، فأردف ذلك بقوله (وإياك نستعين) ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة.

وكل هذه الأقوال تدور حول تفسير الألفاظ وتقريب المعاني المرادة من

النظم الجليل، وهي متفاوتة من حيث قربها أو بعدها من تحقيق المراد [١] .

وعند المقارنة بينها يظهر لنا أن أقربها إلى الصواب والرجحان هو: القول الخامس والسادس، وذلك أنهما قد سلما مما يرد عليهما من إشكال أو اعتراض.

قال الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [٢] .

المراد بالصراط المستقيم: الإسلام، أو القرآن؛ أو طريق الجنة أو الطريق الواضح، والمؤمنون مهتدون لذلك، فكيف يطلبون الهداية أليس في ذلك تحصيل الحاصل؟

والجواب، إن المراد طلب الثبات على الطريق المستقيم، والدوام على الدين الحق، مع عدم الأمن من مكر الله – سبحانه وتعالى – فالمخلوق معرض للزلل، وترد عليه الخواطر الفاسدة؛ ولا يعلم ما سبق به القلم عليه، فالأولى له أن يسأل الله عز وجل أن يثبت قدمه على الطريق الحق، وليس المراد ابتداء الهداية، فهذا كما يقول القائل لغيره وهو يسمع النصائح اسمع النصيحة!! أي داوم على سماعك للنصيحة.

هذا وقد وردت أجوبة أخرى في ذلك منها:

---

(١) راجع في ذلك مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٣، وحاشية الشهاب: ١/ ١٢٣، ومجمع البيان: ١/ ٥٥ وتفسير الخازن، ١/ ١٧، وفتح القدير: ١/ ٢٣.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

١- أن المراد، طلب زيادة الهدى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [(١)]، وكقوله عز وجل: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [(٢)]. ومن اللافت للنظر، أنه ليس في الآية التي هي موضوع البحث لفظ يدل على طلب الزيادة، والآيات المستشهد بها، تدل على أن الزيادة هي محض فضل إلهي. وليس مسبوقاً بطلب.

٢- أن المراد بالهداية هنا، الثواب، لقوله - جل ثناؤه - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [(٣)].

والمعنى أهدنا إلى طريق الجنة ثواباً لنا، ويؤيده قوله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [(٤)]. والهداية إلى الشيء، غير الشيء نفسه. فالهداية إلى طريق الجنة غير طريق الجنة. والهداية إلى الثواب غير الثواب ذاته، فالهداية إرشاد وتوجيه وتوفيق. والطريق اعتقاد وعمل. والثواب جزاء وعطاء.

وهذان القولان - كما ترى - لا يقويان على أن يفضلا الجواب السابق فتدبر.

***

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

سورة البقرة

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[(١)].

وقال عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[(٢)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[(٣)].

وهنا يقال كيف التوفيق بين الآية الأولى التي نفت الريب عن القرآن الكريم؛ والآيات الأخرى التي يوهم ظاهرها تطرق الريب إليه؟

والجواب: أن القرآن الكريم قد بلغ من وضوح آياته، وسطوع براهينه، وظهور إعجازه ما لا ينبغي لأحد مستقيم الطبع، سليم الحس أن يرتاب فيه. فالشمس المشرقة، وأشعتها الساطعة لا يرتاب في ظهورها أحد. وإن نفاه معوج الفطرة؛ أو متعطل الحواس. ويشهد لذلك إسناد الريب إليهم دون الكتاب.

فريب الكفار فيه إنما هو لفساد طبعهم وعمى بصيرتهم كما بينه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[(٤)].
حيث صرح بأن من لا يعلم أنه الحق إنما اعتراه ذلك من قبل عماه، ومن المعلوم أن عدم رؤية الأعمى للشيء الواضح الجلي؛ لا يخدش في وضوحه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٥.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٩.

وجلائه. فالله – عز وجل – ما نفى أن أحداً يرتاب في الكتاب وإنما نفى كونه موضعاً للريب ومظنة له.

هذا وقد قيل في الجواب:

١- إن المعنى: لا ريب فيه عند الله ورسوله وعند المؤمنين. وهذا يوهم أن في الكتاب ريباً لغير المذكورين إن كان غير سويّ.

٢- إن النفي هنا معناه: النهي؛ أي لا ترتابوا فيه أنه من عند الله تعالى كما قال: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ (١) ، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا وعليه فلا إشكال. وتكون الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى.

٣- إن في الكلام مجازاً بالحذف؛ وكأنه قال: لا سبب لشك فيه. إذ الأسباب التي توجب الشك في الكلام من التلبيس والتعقيد؛ والتناقض والاختلاف، والركاكة والعمى «والدعاوى العارية عن البرهان غير موجودة في القرآن العظيم».

٤- إن المعنى، لا ريب فيه أنه هدى للمتقين، ولا يخفى ما فيه. وعند مراجعة هذه الأجوبة وتدقيق النظر فيها يتضح أن الجواب الأسبق أقربها للقبول.

قال الله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

وقال الله سبحانه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ (١).

وقال جل وعلا: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ (٢).

والتساؤل المتبادر الآن هو: كيف قال: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والمتقون لم يتصفوا بالتقوى إلا بعد هداية الله لهم؟ وكيف خصص الآية الأولى، هدى هذا الكتاب بالمتقين؟ وعمم هداه لجميع الناس في الآيتين الأخيرتين؟

والجواب عن الأول: إن في لفظ المتقين مجازاً مرسلاً، وعلاقته باعتبار ما يؤول إليه، أي الصائرون إلى التقوى.

والجواب عن الثاني: إن للهدى في القرآن الكريم استعمالين أحدهما: عام للناس جميعاً، والمراد به هداية النجدين، وبيان الطريقين وتمهيد السبل، وتوضيح الإيمان والكفر، والخير والشر، والحسن والقبح. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ (٤).

ثانيهما: خاص بمن تفضل الله عليهم بالتوفيق، وشرح صدورهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٤) سورة الإنسان، الآية: ٣.

للإسلام ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (١). وقوله سبحانه: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٢). وقوله عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣).

وعلى هذا فالمراد بهدي الناس؛ إبانة طريق الحق، وإيضاح المحجة؛ سواء قبلوا هذه الهداية وسلكوا طريقها أم لا.

والمراد بهدى المتقين، شرح صدور هؤلاء الذين سلكوا طريق الهداية وتوفيقهم لطاعته.

وبمثل هذا يوفق بين قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (٤). مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٥).

فالتوفيق مرده إلى الله عز وجل والرسول ﷺ قد وضح الملة حتى كان ليلها كنهارها، لكن من يرد الله فتنته فلن يملك له أحد من الله شيئاً. وقد وردت أجوبة أخرى منها:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

١- إنه خص المتقين بالذكر لأنهم الذين قبلوه فأتمروا بأوامره وانتهوا عن نواهيه ففازوا بحسن العاقبة، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [1]. ولا يخفى حسنه لولا ما يرد عليه فيقال: إنه لولا توفيق الله لهم ما قبلوا ولا اتبعوا ولا فازوا.

٢- إنه أراد الفريقين: من يتقي ومن لم يتق، لكنه اقتصر على ذكر أحدهما كقوله عز وجل: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [2].

ولكن يبقى الفرق الذي لا بد منه بين هداية المتقين وهداية الكافرين وإن كان من الممكن أن يطلق عليهما أنهما هداية في الجملة [3].

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [4].

وقال عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [5].

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ [6].

وهنا يمكن أن يقال: كيف نوفق بين الآية الأولى والتي ظاهرها: عدم

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٣) راجع في ذلك، مسائل الرازي وفتح القدير: ١/ ٣٣، والفتوحات الإلهية: ١/ ١١، ومجمع البيان للطبرسي: ٧/ ١٨، ودفع إيهام الاضطراب، ص٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٦) سورة يونس، الآية: ٤٠.

إيمان الكفار، وبين الآيتين الأخريين اللتين تدلان على أن بعض الكفار سيؤمن بالله ورسوله؟ وما فائدة بعثة الرسل إذا استوى الإنذار وعدمه؟

والجواب: أن يقال إن بعثة الرسل - وإن لم ينتفع بها هؤلاء وأمثالهم - فقد انتفع بها آخرون فآمنوا؛ كما أن في بعثة الرسل قيام الحجة على الناس قال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾[1]. وبالبعثة تحق كلمة العذاب على الكافرين، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[2].

وأما الجواب عن السؤال الأول: فالآية الأولى قد نزلت في قوم حقت عليهم كلمة ربنا أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية. وهي في خصوص الأشقياء الذين سبقت لهم في علم الله الشقاوة، فهي من العام المخصوص، والدليل على هذا التخصيص قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ ﴾[3].

وأجاب آخرون: بأن المعنى لا يؤمنون ما دام الطبع على قلوبهم وأسماعهم؛ والغشاوة على أبصارهم فإن أزال الله عنهم ذلك بفضله آمنوا، وليس الرأي مسلماً، فما دام الله العليم بكل شيء قد أخبر عنهم أنهم لن يؤمنوا، وأن لهم عذاباً عظيماً فلن يؤمنوا، وقد حقت عليهم كلمة العذاب[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٤) فتح الرحمن بكشف ما يلبس من القرآن: تأليف الإمام الهمام زكريا الأنصاري شيخ الإسلام، وهو مخطوط رقم: ٧٢٧٣ عام، ٥٧٩ خاص بمكتبة معهد الإسكندرية، ودفع إيهام الاضطراب، ص٩.

قال الله جلت حكمته: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [١].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [٣]. وقوله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [٤]. إلى غير ذلك من الآيات [٥].

قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [٦].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [٧].

المخادعة مشاركة في الفعل، وهي إنما تتصور في حق من يخفي عليه الأمور، أو من يعجز عن تحقيق مراده، والله سبحانه وتعالى منزه عن كل ذلك فهو الذي يعلم السر وأخفى، وهو على كل شيء قدير، فكيف ساغ التعبير بذلك؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٣.

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

(٤) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٥) دفع إيهام الاضطراب، ص٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٩.

(٧) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

وللجواب عن ذلك أقول: إنه ليس المراد بخداع الله سبحانه لهم حقيقة الخداع المعروف من الحيلة، وإرادة المكروه للمخدوع من حيث لا يعلم، ولكن لما صنع هؤلاء مع الله جهلاً منهم بأنه يعلم السر وأخفى، ولا تخفى عليه خافية صنع المخادعين قال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ فعادت عقوبة الخداع عليهم.

وقال عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥﴾ [1].

وقال تبارك اسمه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [2].

وقال عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٨٢﴾ [3].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [4].

ونحن الآن بين يدي جملة من آيات الذكر الحكيم، فكيف نوفق بين الآية الأولى والتي تدل بظاهرها على أن الكفار مجبورون على الكفر مضطرون إليه؛ لأن من ختم على قلبه وسمعه، وجعلت الغشاوة على بصره، فقد سلبت منهم إرادة الإيمان والقدرة على تحصيله – وبين الآيات الأخرى التي تدل على أن الكفر والمعاصي قد وقعا بمشيئتهم ومحض إرادتهم؟

وفي الجواب عن ذلك يقال: إن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إنما كان عقاباً من الله لهم على مبادرتهم للكفر وتكذيبهم الرسل باختيارهم ومشيئتهم، فعاقبهم الله بعدم التوفيق جزاء وفاقاً، وقد بينه تعالى بقوله: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [1].

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي في زعمهم واعتقادهم، فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فأجرى عليهم أحكام الإسلام مع علمه تعالى بأنهم ليسوا منه في شيء، مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [2]، أي وما تحلُّ عاقبة الخداع إلا بهم ولكنهم لا يشعرون.

وفي هذا الصنيع إشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع، كانوا مخادعين لأنفسهم؛ لأن الخداع إنما يكون مع من يجهل بواطن الأمور، وأما من يعلم كل شيء، فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك، ومن هنا قيل: من خادعته فانخدع لك فقد خدعك.

وقد قيل في الجواب:

١- إنه ليس بلازم أن تكون المفاعلة مشاركة من جانبين، بل ترد من جانب واحد، يقال عافاك الله وطارقت الفعل، وعاقبت اللص، فالمفاعلة هنا، عبارة عن فعل الواحد، وسمى نفاقهم خداعاً لشبهه لفعل المخادع.

٢- إن المعنى، يخادعون رسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يعتقدوا أن الله بعث

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦.

الرسـول إلـيهم، فالمفاعلـة على بابها كقولـه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [١]. وقولـه عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [٢].

وإقرار المفاعلة أو نفيها يتعلق بقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ﴾. وماذا عن قولـه تعـالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؟ [٣]. ومعـنى هـذه الجملـة أي: منزل الخداع بهـم، وهـذه عـبارة عـن عقوبـة سماها باسم الذنب فعقوبتهم في الدنيا: ذلهم وخوفهم؛ وفي الآخرة: عذاب جهنم [٤].

قـال الله تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [٥]؟

مـن القـائل: (آمـنوا)؟ إن كان مسلماً فكيف أجيب بهذا الجواب مع أن المعلوم من حال المنافقين أنهم يسترون أمرهم؟

وإن كان كافراً فكيف يصدر الأمر بالإيمان من الكفار؟

ولا يقـال: هـذا جواب لغير القائل، والقائل: مؤمن؛ لأنه لا يحسن على هذا أن يكون الشرط مسبباً عنه فتكون جملة الجواب غير مرتبطة بجملة الفعل.

والجـواب: إن القائل مؤمن، لكنه من القرابة فلا يستتر منه لأنه لا يفشي سرهم.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٣) مسائل الرازي، ص٣، وفتح القدير: ١/ ٤١، والخازن: ١/ ٢٦.

(٤) البحر المحيط، ٣/ ٣٧٧، ط الرياض.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣.

ويؤيد ذلك أن المجاهرة بالقول تخالف النفاق [١].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [٢].

الاستهزاء من باب العبث والسخرية، وهو قبيح، والله عز وجل منزه عن القبيح. فكيف أضاف الاستهزاء إليه تعالى؟

والجواب: إن هذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب به مقابلة للفظ باللفظ والمعنى مختلف كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [٣]. فجزاء السيئة: عقاب وكقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [٤]. فالاعتداء الأول ظلم، والثاني: عدل، وهذا هو الصواب.

أو أن المراد بالاستهزاء الاستدراج بالنعم إلى العقاب من حيث لا يعلمون. فقد روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال في معنى الاستدراج: أنهم كلما أحدثوا خطيئة جدد الله لهم نعمة، وإنما سمي هذا الفعل استهزاء؛ لأن ذلك في الظاهر نعمة.

---

(١) فوائد في مشكل القرآن.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

أو أن المراد حقيقة الاستهزاء، فالملائكة التي وكلت بالنار تفعل بهم مثلما فعلوا في الدنيا مع المؤمنين. فقد روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: يفتح لهم وهم في النار باب من الجنة فيقبلون من النار إليه مسرعين. حتى إذا انتهوا إليه سد عليهم، وفتح لهم باب آخر في موضع آخر، فيقبلون من النار إليه مسرعين، حتى إذا انتهوا إليه سد عليهم، فيضحك المؤمنون منهم؛ فلذلك قال الله عز وجل: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١).

هذا وقد قيل في الجواب عن ذلك:

١- أن معنى استهزاء الله لهم: أنه جعل لهم بما أظهروه من موافقة أهل الإيمان ظاهر أحكام المؤمنين من الموارثة والمناكحة وغير ذلك من الأحكام. وإن كان قد أعد لهم في الآخرة أليم العقاب بما أبطنوه من النفاق. فهو سبحانه كالمستهزئ بهم من حيث جعل لهم أحكام المؤمنين ظاهراً ثم ميزهم منهم في الآخرة، وهذا يوافق ظاهر الآية من قوله تعالى: ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢). ولكن هذه المعاملة كانت في صدر الإسلام حتى لا يقال: إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه، وبعد نزول سورة براءة، التي كشفت أحوال المنافقين لم تجر عليهم أحكام المؤمنين.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٣٤. وانظر تفسير ابن جرير الطبري عند تفسيره لقول الله تعالى من سورة الحديد: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥

٢- أو: أن المراد باستهزاء الله سبحانه بهم: تخطئته لهم وتجهيلهم في إقامتهم على الكفر، وإصرارهم على الضلال والعرب تقيم الشيء مقام ما يقارب معناه. وهذا بعيد عن معنى الاستهزاء؛ إذ إن تخطئته لهم وتجهيله لهم لا تعدو أن تكون بياناً للصواب من الخطأ، والهدى من الضلال، والعلم من الجهل.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ (١).

وقال عز من قائل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ (٣).

في الآيتين الأوليين دلالة على أن الهداية والضلال من اختيار العبيد، وفي الآية الثالثة دلالة على أن الفجور والتقوى من خلق الله في قلوب عبيده، فما سبيل الجمع بينهما؟

والجواب: إنه من الضروري عند جميع العقلاء، الفصل بين الحركة الارتعاشية وبين الحركة الاختيارية. والله عز وجل خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير، فهو خالق العبد، وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى. فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة الله تعالى. مع أن العبد يفعل اختيارياً بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه، فعلاً اختيارياً يثاب عليه ويعاقب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٣) سورة الشمس، الآية: ٨.

وقد رفع الله عز وجل إشكال هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [(١)] . فأثبت للعبد مشيئة، وصرح بأنه لا مشيئة للعبد إلا بمشيئة الله جل وعلا فكل شيء صادر عن قدرته ومشيئته جل وعلا.

وقد ضل من زعم: أن العبد يخلق عمل نفسه استقلالاً من غير تأثير لقدرة الله عز وجل فيه (القدرية). كما ضل من زعم أن العبد لا عمل له أصلاً حتى يؤاخذ به (الجبرية). والحق: هو القصد بين الإفراط والتفريط.

وقيل: معنى (فألهمها فجورها وتقواها): بين لها طريق الخير وطريق الشر، وعليه فلا إشكال [(٢)] .

قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [(٣)] .

وقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ ﴾ [(٤)] .

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ ﴾ [(٥)] .

---

(١) سورة التكوير، الآية: ٢٩.

(٢) دفع إيهام الاضطراب، ص٣٣٠، بتصرف.

(٣) سورة البقرة، الآيات: ١٧ – ١٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

(٥) سورة المنافقون، الآية: ٤.

وقال جلت حكمته: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾[1].

فالآيات الأولى: تدل بظاهرها على أن المنافقين لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يبصرون والآيات الأخيرة: تثبت لهم السمع والبصر والكلام، فكيف التوفيق بينهما؟

الآيات الأولى: جاء التعبير فيها (بأو)، التي تقتضي الاستدراك وهو في حقه – عز وجل – محال فكيف ذلك؟ وإذا كان معلوماً أن المطر من السماء، فكيف يصرح بأن المطر منها؟ وليس من البلاغة: الإفادة بأمر معلوم!

وللجواب عن الأول يقال: إنه ليس المراد بنفي السمع والكلام والإبصار عنهم تعطل هذه الحواس وانسدادها بالكلية «بل المراد إعراض هذه الحواس عن الغرض الأصلي الذي خلقت من أجله. والعرب ربما أطلقت الصمم على السماع الذي لا أثر له، والبكم على الكلام الذي لا فائدة منه، والعمى على الرؤية التي لا عبرة فيها، حيث إن هذه الحواس بهذه الحالة كالعدم.

فمعنى (بكم) هو أنهم بكم عن النطق بالحق – وإن تكلموا بغيره – ومعنى (صم) أنهم صم عن سماع الحق – وإن سمعوا غيره – ومعنى (عمى) أنهم عمى عن رؤية الحق وإن رأوا غيره.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

وقد بين الله تعالى هذا الجمع بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [١]. لأن مالا يغنى شيئاً فهو كالمعدوم [٢].

والجواب عن الثاني: إن (أو) ليست للشك والاستدراك؛ بل إن (أو) فيما طريقه الجمع: بمعنى الواو: كقوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ ﴾ [٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ [٤]. وقوله: ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ ﴾ [٥] وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ ﴾ [٦]، وقوله عز وجل: ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ ﴾ [٧]، وقوله عز شأنه: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [٨].

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٦.

(٢) دفع إيهام الاضطراب.

(٣) سورة النور، الآية: ٦١.

(٤) سورة النور، الآية: ٣١.

(٥) سورة المرسلات، الآية: ٦.

(٦) سورة النجم، الآية: ٩.

(٧) سورة الصافات، الآية: ١٤٧.

(٨) سورة النحل، الآية: ٧٧.

وإذا جاز في الواو أن يراد به [١] معنى (أو) كقوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾ [٢] . فكذلك يجوز في (أو) أن يراد به معنى الواو، أي الجمع بين الأمرين.

أو: إن (أو) ليست للشك أيضاً، بل للتمثيل، فالله تعالى كما يجوز أن يمثلهم بشيء، يجوز أن يمثلهم بشيء آخر في باب الضلالة.

وقيل: إن (أو) بمعنى بل، فتكون للإضراب الانتقالي، والمحذور هو الإضراب الإبطالي الذي فيه رجوع عن الإخبار، لأنه على الله محال.

وقيل: إن (أو) وإن كانت في الأصل للإبهام والشك لكن اتسع فيها فأطلقت للتساوي من غير شك كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴾ [٣] . وكقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين. فإنه يفيد وجوب العصيان لكل منهما في المثال الأول، ويفيد التساوي في حسن المجالسة في المثال الثاني.

وقيل: إن (أو) للإبهام والشك على أصلها، ولكن بالنسبة للمخاطبين لا بالنسبة لله عز وجل.

والجواب عن الثالث: إنه ذكر السماء معرفة وأضاف المطر إليها؛ ليدل على أنه من جميع آفاقها لا من أفق واحد. إذ كل أفق يسمى سماء، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ [٤] .

---

(١) الضمير عائد على حرف الواو.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.

(٤) سورة هود، الآية: ٦.

وقيل: إنما ذكر السماء ليرد على من زعم أن المطر ينعقد من أبخرة الأرض. فأبطل مذهب الحكماء بقوله (من السماء) ليعلم أن المطر ليس من أبخرة الأرض كما زعم الحكماء، ولا مانع من قول الحكماء: إن المطر ينعقد من أبخرة الأرض، فالماء الذي تحول إلى بخار وصار مطراً أصله من السماء[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[(٢)].

من المعلوم أن لعل للترجي والتوقع والشك، فكيف قال الله عز وجل: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ؟

والجواب: إن لعل وعسى من الله تعالى للتحقق والوجوب كما روي عن ابن عباس والحسن – رضي الله عنهما.

وقيل: إنها على بابها من الترجي والتوقع، ولكن بالنسبة إلى المخاطبين لا إلى المتكلم، وهو الله سبحانه. والمعنى خلقكم ومن قبلكم في صورة من يرجى منه التقوى لترجح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدواعي إليه. والمخاطب إذا كان لا يعلم هل يختار ذلك أو لا يختاره، صح من المخاطب أن يخاطبه بذلك ليترجاه، فمن حيث كان المخاطب مترجياً غير قاطع، جاز أن يخاطب بذلك[(٣)] ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾[(٤)].

---

(١) انظر مسائل الرازي، ص٤، وتنزيه القرآن، ص١٦، والخازن: ١/ ٣٠، ودفع إيهام الاضطراب، ص١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٣) تنزيه القرآن، ص١٧، وتفسير البيضاوي: ١/ ٣٢.

(٤) سورة طه، الآية: ٤٤.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) . وقال عز وجل: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (٢)

الند: هو المثل المناوئ والمشركون ما زعموا غير الله سبحانه إلهاً من دونه – تبارك وتعالى – بل مع الله على وجه الشركة، بدليل قوله تعالى: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (٣) . فكيف نهاهم عن اتخاذ الأنداد وأمرهم بدعاء الذين زعموهم آلهة من دون الله؟

والجواب: إن المشركين ما جعلوا لله نداً، ولكنهم لما لم يعبدوا الله تعالى وهو المستحق للعبادة، وأعطوا هذه المعبودات ما لا تستحقه من العبادة والتقديس، وسموها آلهة، شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله، وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير، فكأنهم جعلوها نداً لله سبحانه.

وقد أشار إلى هذا المعنى في الآية الثانية، حيث أمر المشركين أن يدعوا هؤلاء الذين زعموا أنهم يقدرون على دفع الضر وجلب النفع من دون الله تعالى، فإن لم يجيبوهم ولن يفعلوا علموا أنهم لا يملكون ذرة في السموات ولا في الأرض (٤) .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٤) تفسير البيضاوي ١/ ٣٤، وتفسير الخطيب ١/ ٣٢.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [١].

وقال عز وجل: ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [٢].

نهى الله عز وجل الكفار في الآية الأولى أن يستشهدوا بالله سبحانه على صحة دعواهم، فإنه من ديدن المبهوت العاجز عن إقامة الحجة. وهو لا يكفي في صحة الدعوى وثبوتها شرعاً. فكيف يصح من النبي ﷺ الاستشهاد بالله تعالى، كما في الآية الثانية.

والجواب: إنه لم يصح من غير النبي ﷺ الاستشهاد بالله سبحانه؛ لأنه[٣] لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن الله تعالى يشهد له. أما النبي ﷺ فقد أقام الدليل على ذلك؛ حيث أيده الله بالوحي، وأنزل عليه القرآن الذي عجز الخلق عن الإتيان بمثله. وفي عجزهم دلالة على أن القرآن كلام الخالق، وأن محمداً رسول الله رب العالمين.

ويدل على هذا: تعقيبه الاستشهاد بالله بقوله: (وأوحى إلى هذا القرآن)[٤].

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ [٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) أي: أي أحد غير النبي ﷺ.

(٤) بتصرف من مسائل الرازي، ص٨٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

وقال جلت حكمته: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ ﴾[2].

الآية الثانية: تدل على أن خلق الأرض وما فيها من جبال وأنهار وأشجار وغير ذلك، كان قبل خلق السماء بدليل كلمة (ثم) التي هي للترتيب والتراخي والانفصال.

والآية الثالثة: تدل على أن خلق السماء كان قبل دحو الأرض، يعني: كان قبل خلق ما في الأرض من جبال وأنهار.

وأما الآية الأولى: فتدل على أن خلق ما في الأرض جميعاً. كان قبل خلق السماء، فكيف الجمع بين هذه الآيات؟

والجواب: إن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وجعل فيها الرواسي وغير ذلك.

فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء ويدل على هذا أنه قال: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٩ – ١١.

(٢) سورة النازعات: الآيات: ٢٧ – ٣١.

﴿ ﴾ (١) . ولم يقل خلقها. ثم فسر دحوه لها بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ .

وأما الآية الأولى التي تدل على أن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء، فالمراد بالخلق فيها؛ الخلق اللغوي الذي هو التقدير، لا الخلق بالفعل الذي هو إبراز الشيء من العدم إلى الوجود، ويكون المعنى قضى أن يحدث ما على الأرض ثم استوى، والعرب تسمي التقدير خلقاً، والدليل على أن المراد بهذا الخلق، التقدير أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت حيث قال: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ (٢) ثم قال: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ (٣). وأنه لما خلق الأرض غير مدحوة، وهي أصل لكل ما فيها، كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلاً، والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع وإن لم يكن موجوداً بالفعل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (٤) فقوله: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ أي، بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم، وقد حاول بعض العلماء أن يوفق بين الآيات بأن الترتيب هنا غير مراد، والكلام ورد على سبيل تعداد النعم كقول الرجل لمن يذكره بما أنعم به عليه، ألم أعطك؟ ألم أرفع قدرك؟ ألم أدفع عنك؟ ولعل بعض هذه النعم متقدم على البعض الآخر.

---

(١) أي: بعد خلقه السماء.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١٠.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١١.

وقيل: إن ثم للترتيب الإخباري لا الزماني.

وقيل: إن ثم للتراخي في الرتبة، لتفاوت ما بين الخلقين، في القدر والعظم، وفضل خلق السماء على خلق الأرض، وليس للتراخي الزمني، أي أن ثم بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ (١).

وقيل: إن لفظة (بعد) بمعنى (مع) أي: والأرض مع ذلك دحاها، ونظيره قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ (٢). ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة التي قرأ بها مجاهد: (والأرض مع ذلك دحاها) (٣).

وإذا كانت القراءة لا تجوز بها، إلا أنها أقرب إلى النصوص منها إلى الاجتهاد فتأمل.

قال الله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًۭا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ (٤).

الخطاب لبني إسرائيل، ولم يكونوا أول من كفر، فقد سبقهم إلى ذلك مشركو العرب، فكيف قال: أول كافر به؟

والجواب: إن بني إسرائيل كانوا يستفتحون على الذين كفروا بقرب

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٧.

(٢) سورة القلم، الآية: ١٣.

(٣) مجمع البيان: ١٠/ ٤٣٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤١.

مبعث نبي يتبعونه، وأنهم من خلال كتابهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، ونبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون شيئاً عنه. فحذرهم الله عز وجل من هذه الفعلة، ونهاهم عن أن يكونوا أول كافر به من بني إسرائيل فيتبعهم عوامهم.

وقيل: إن هذا من باب التعريض لهم بما يجب عليهم لمقتضى حالهم، لا الدلالة على ما نطق الظاهر، كقولك لمن أساء: أما أنا فلست بجاهل.

والمعنى: كان يجب أن تكونوا أول من آمن به؛ لأنكم تعرفون صفته ونعته، بخلاف غيركم، وكنتم تستفتحون به على الكفار، فلما بعث كان أمركم على العكس [1] ولا يخفى حسنه.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [2].

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ [3].

وقال جل وعلا: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [4].

---

(١) تفسير الخازن: ١/ ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

(٣) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

ففي الآية الأولى: دلالة على أن الظن يكفي في أمور المعاد، والآيتان الأخريان يدلان على خلاف ذلك، فكيف التوفيق بينهما؟

وفي الآية الأولى قال: ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾. وهم: ما كانوا في الآخرة حتى يعودوا إليها، فكيف قال ذلك؟

والجواب عن الأول: إن العرب تستعمل الظن بمعنى اليقين والتحقق تارة، وبمعنى الشك والريب أخرى. فمن باب اليقين والتحقق؛ هذه الآية الأولى، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ [1].

وقوله جل ذكره: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [2]. أي: أيقنوا، وقوله عز جاره: ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [3]. أي: أيقنت.

ومن باب استعمال الظن بمعنى الشك والريب: هاتان الآيتان الأخيرتان، والله تعالى ذكر ذلك في محاجة من يعبد الأصنام. والظن في هذا الأمر المتعلق بالعقيدة لا يقبل ولا يغنى من الحق شيئاً، وإنما المقبول اليقين الذي لا تشوبه شائبة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ٢٠.

والجواب عن الثاني: إن يقال: رجع يرجع رجوعاً، أي: انصرف والمعنى: أنهم يوقنون بأنهم منصرفون عن الدنيا إلى ربهم، وأن أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله.

وقيل: المعنى: يرجعون بالموت كما كانوا في الحال المتقدمة؛ لأنهم كانوا أمواتاً فأحياهم الله عز وجل ثم يموتون فيرجعون أمواتاً كما كانوا.

وقيل المعنى: يرجعون إلى موضع لا يملك أحد لهم ضراً ولا نفعاً غيره تعالى كما كانوا في بدء الخلق؛ لأنهم في أيام حياتهم قد يملك غيرهم الحكم عليهم، والتدبير لنفعهم وضرهم، وبيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾[1].

قال الله تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿ أَنِّى فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2] وقال جل وعلا - مخاطباً أمة محمد ﷺ: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾[3]

في الآية الأولى: دلالة على أن الله تعالى فضل بني إسرائيل على العالمين. وفي الآية الثانية: دلالة على أن الله عز وجل فضل أمة محمد ﷺ على الناس، فكيف ذلك؟

والجواب: إن لفظة الناس أعم من لفظة العالم. فعالم اليوم غير عالم الغد،

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٤. مجمع البيان: ١/ ٢٢٥، وابن كثير: ١/ ٦١، ومسائل الرازي، ص ٥، ودفع إيهام الاضطراب، ص٢٠ وتنزيه القرآن: ١٧٧.

(٢) سورة البقرة، من الآيتين: (٤٧، ١٢٢).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٩.

وعالم الزمان الحاضر غير عالم المستقبل. فتفضيل بني إسرائيل على العالمين، المراد منه. تفضيلهم على عالمي زمانهم. وتفضيل الأمة المحمدية على الناس، المراد منه تفضيلهم على سائر الناس ومنهم بنو إسرائيل. ويشير إلى ذلك أن الله تعالى جعل الناس أقساماً ثلاثة، ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله وذلك هو الفضل الكبير، وهذه الأقسام الثلاثة موجودة في أمة محمد ﷺ بينما لم يكن التفضيل لدى السابقين إلا للجماعة المقتصدة، قال جل ثناؤه: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وقد بين النبي ﷺ أن الأمة المحمدية خير الأمم وأكرمها على الله حيث قال: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله**» (٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٣).

وقال تبارك اسمه: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ (٤).

وقال جل ثناؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٦، ودفع إيهام الاضطراب، ص٢١.

(٢) سنن الإمام الترمذي – كتاب التفسير – سورة آل عمران.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤١.

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ ﴾ [(١)] .

في الآيات السابقة عبر مرة بالذبح، وأخرى بالقتل، والقصة واحدة فكيف ذلك؟ وذبح الأبناء بلاء، فكيف يكون استحياء النساء بلاء؟ وكيف يكون إنجاء بني إسرائيل من آل فرعون بلاء من ربهم؟

والجواب عن الأول: إن التنويع في الخطاب والتلوين في الأسلوب منحى بلاغي وسبيل تشويق، فحيث عبر بالذبح، فهو تعبير بالواقع ونفس الأمر، وحيث عبر بالقتل، فهو تعبير بنتيجة الذبح وما آل إليه الأمر.

والجواب عن الثاني: إنهم كانوا يستحيونهن من أجل استخدامهن كالإماء، وإبعادهن عن أزواجهن، وذلك من أعظم المضار وأشد البلاء.

والجواب عن الثالث: أن تمكين آل فرعون وإقدار الله لهم وتسليطهم على بني إسرائيل وإمهالهم حتى فعلوا بلاء عظيم من ربهم.

وقيل: إن (ذلكم) إشارة إلى الإنجاء، لا إلى الذبح والقتل والعذاب وهو بلاء عظيم؛ لأن البلاء لفظ مشترك بين النعمة والمحنة، إذ أنه من الابتلاء، وهو الاختبار، يقال: بلاه وابتلاه، أي اختبره فيطلق تارة على الخير والنعمة العظيمة، وأخرى على الشر والمحنة الشديدة، ليختبر الله العبد بالنعمة أيشكر أم يكفر؟ وبالمحنة. أيصبر أم يجزع، كما قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [(٢)] .

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥. ومسائل الرازي، ص ٩٨، ١٥٨، تفسير الخازن: ١/ ٤٨، ٣/ ٧٠، الفتوحات الإلهية: ١/ ٥١، ٢/ ٥١٥، وفتح القدير: ١/ ٨٣، ٢/ ٢٤١.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[2].

القصة واحدة، فكيف نوفق بين الآيتين من حيث (قلنا) في الآية الأولى و(قيل) في الآية الثانية.

(ادخلوا) في الآية الأولى (اسكنوا) في الآية الثانية.

﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ ، ﴿ قُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ، ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ ، ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ﴾ .

﴿ فَأَنزَلْنَا ﴾ ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٥٨، ٥٩.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦١، ١٦٢.

وكيف قال: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ وهم بدلوا القول الذي قيل لهم؟

والجواب عن الأول: أن إسناد الأمر إلى الآمر الحقيقي، أو أحد رسله لا يؤدي إلى اختلاف المعنى. فالأول على الحقيقة، والثاني على المجاز والجمع بينهما في العربية أمر مألوف.

والجواب عن الثاني: إن كل ساكن في موضع، لا بد له من الدخول فيه؛ والأمر بالدخول من أجل السكنى.

والجواب عن الثالث: إن الترتيب ليس مقصوداً، والتقديم أو التأخير: لا يؤدي إلى اختلاف المعنى. والمراد: الجمع بين قولهم (حطة) وبين الدخول ساجدين.

والجواب عن الرابع: إن لفظ خطيئة وإن كان مفرداً في اللفظ، فهو جمع في المعنى. وفي الإتيان بالجمع مرة، والإفراد أخرى، إشارة إلى أن ذنوبهم – قليلة كانت أو كثيرة – مغفورة إذا ما عظموا أمر الله عز وجل وانقادوا له، وأظهروا الخشوع والخضوع بامتثال أوامره.

والجواب عن الخامس: إن الإنزال والإرسال يجمعهما وصول المنزل أو: المرسل إلى المنزل عليه أو: المرسل إليه. ولكن الإنزال لا يشعر بالكثرة، من حيث إنه يدل على النزول جملة، أما الإرسال فيشعر بالكثرة والاستمرار، ولعل في الجمع بينهما إشارة إلى أن العذاب بدأ قليلاً، وباستمراره صار كثيراً.

والجواب عن السادس: إن الفسق: خروج عن طاعة الله. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه. وهؤلاء: قد خرجوا عن طاعة الله، وظلموا أنفسهم فاستحقوا الوصفين: فذكر إحدى الصفتين في موطن، والأخرى في الموطن الآخر.

والجواب عن السابع: إن التبديل هو التغيير بالزيادة أو النقصان، وهؤلاء لما أمروا أن يقولوا: حطة، فقالوا: حنطة، فقد بدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره (١).

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٢).

كيف صح إسناد الخشية إلى الحجارة، وهي جماد لا يعقل ولا يفقه؟

والجواب: إن الله على كل شيء قدير، وما الجماد إلا شيء من هذه الأشياء، فيمكن أن يودع الله سبحانه وتعالى في الجمادات والحيوانات مالا يقف عليه غيره تعالى وقد بين القرآن الكريم، والسنة النبوية نوعاً من هذا حيث قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (٣). وفي صحيح

---

(١) الخازن: ٢/ ١٣٩، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٢٠١، وفتح القدير: ٢/ ٢٥٦، ومسائل الرازي، ص٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن**»[(١)] ، وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله قال: كان في مسجد رسول الله ﷺ جذع في قبلته يقوم إليه رسول الله ﷺ في خطبته، فلما وضع المنبر سمعنا للجذع حنيناً مثل صوت العشار، حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه[(٢)] . وفي رواية صاحت النخلة صياح الصبى، فنزل رسول الله ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبى الذي لا يسكن حتى استقرت، قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر[(٣)] . قال مجاهد: ما ينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[(٤)] .

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[(٥)] .

وقال سبحانه: ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[(٦)] .

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الفضائل.

(٢) سنن الإمام الدارمي، المقدمة.

(٣) صحيح الإمام البخاري، كتاب المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٣.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٧٠.

وقال جلت قدرته: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (١).

وقال عز جاره: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٢).

وقال تباركت آلاؤه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣).

الآيات الثلاث الأولى: تدل على تمكن الكفار من قتل بعض الرسل. والآيات الثلاث الأخرى، تدل على أن الرسل غالبون منتصرون في الدنيا، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن الرسل قسمان: قسم أرسلوا إلى أمم دعت الحكمة إلى تشريع القتال لهم، وهؤلاء الرسل الذين أمروا بالقتال، هم الذين وعدهم الله بالنصر والغلبة. وقسم أرسلوا إلى أمم لم تدع الحكمة إلى تشريع القتال لهم، فأمرت رسلهم بالكف والصبر، وهؤلاء الرسل: هم الذين قتلوا.

وهذا الجمع مفهوم من الآيات؛ لأن النصر والغلبة فيه الدلالة بالالتزام على جهاد ومقاتلة (٤).

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ – ١٧٣.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٤) دفع إيهام الاضطراب، ص٢٤.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال كيف أثبت لهم العلم أولاً مؤكداً بلام القسم، ثم نفاه عنهم ثانياً؟

والجواب: إن المثبت لهم أولاً، هو العقل الغريزي، أو العلم الإجمالي من غير تحقيق أن من اختار السحر ما له في الآخرة من نصيب. والمنفي عنهم ثانياً: هو العلم بحقيقة ما يصيرون إليه من تحسر في الآخرة وعدم حصولهم على أي نصيب منها، فالمنفي غير المثبت فلا تنافي.

وقيل في الجواب: المعنى لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بعلمه فهو كمن لا يعلم شيئاً.

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ ﴾ للملكين. وفي قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لمتعلمي السحر العاملين به. فاختلفت الجهة فلا تنافي.

وهذا مردود، فعلم الملكين بذلك مفهوم من قولهم في الآية ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ثم بدأ الحديث مع المتعلمين بقوله: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ ﴾ (٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) البيضاوي، ١/ ٧٤، ومسائل الرازي، ص٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١١.

والسؤال الوارد هو: كيف تصح هذه الحكاية واليهود لا يقولون ذلك في النصارى، والنصارى لا يقولون ذلك في اليهود؟

والجواب: إن اليهود قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. فحكى الله عن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ما قالوه.

ولما اتفق كلامهم في البطلان كان بمثابة القول الواحد. وجمع الله بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، لما علم من التعادي بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه وإنكار كل فريق لما يعتقده الآخر[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾[2].

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[3].

وقال جلت حكمته: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾[4]. وقال جل ثناؤه: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[5].

وهذه الآيات وغيرها الاستفهام فيها إنكاري ومعناه: النفي، أي: لا

---

(١) تنزيه القرآن، ص٣٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٨.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٢.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٣٢.

أحد أظلم ممن .. فكيف التوفيق والصلة مختلفة؟

والجواب: إن نفي التفضيل لا يستلزم نفي المساواة والاشتراك. فلم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر، لأنهم يتساوون في الأظلمية. فيصير المعنى: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، ومن افترى على الله كذباً، ومن كذب بآيات الله. ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية. ولا يدل على أن أحدهم أظلم من الآخر، كما إذا قلت: لا أحد أفقه من فلان وفلان وفلان، مثلاً.

وقيل في الجواب: إن كل موضع مخصص بمعنى صلته، أي: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً. وإذا تخصصت بصلاتها، زال الإشكال.

وقيل: إن التخصيص بالنسبة إلى السبق، أي، لما لم يسبقهم أحد إلى مثله، حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكاً طريقهم.

وهذا قريب من سابقه – وإن كان أخص منه – لأنه أمر نسبي مختلف باختلاف الأفراد.

وقيل: إن الاستفهام في قوله: «ومن أظلم» المقصود منه، التهويل والتفظيع، من غير قصد إثبات الأظلمية للمذكور حقيقة لا نفيها عن غيره.

وهذا ضعيف جداً؛ لأنه خلاف ظاهر القرآن [1].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب، ص٢٥، والإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٨٨ والبحر المحيط، ١/ ٣٥٧.

قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وقال جلت حكمته: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[2].

فالآية الأولى تفيد جواز استقبال غير المسجد الحرام في الصلاة، ما دامت الآفاق كلها لله، وليست له جهة معينة.

والآية الثانية: تحتم الاستقبال شطر المسجد الحرام في الصلاة – في أي مكان نكون فيه. فكيف التوفيق بينهما؟

والجواب: إن الآية الأولى نزلت رداً على اليهود حين حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وقالوا: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ ﴾[3] إذن فهي متأخرة في النزول عن آية التحويل. وعليه فيرد قول من زعم أن الآية منسوخة بالثانية. فليس بمعقول أن يكون الناسخ سابقاً على المنسوخ، ثم إن المعنى هكذا: إن الآفاق كلها لله، وليس – سبحانه – في مكان خاص منها، وليس له جهة معينة فيها. وعليه: فله أن يأمر عباده باستقبال ما يشاء من الجهات في الصلاة، وله أن يحولهم من جهة إلى جهة. وهذا لا يتعارض مع ما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٢.

أمر الله عباده باستقبال الكعبة دون غيرها. وحيث لا تعارض فلا نسخ فالآيتان محكمتان.

وقيل في الجواب: إن الآية الأولى تفيد جواز التوجه إلى غير الكعبة في صلاة النافلة سفراً على الدابة، وهذا الحكم باق لم ينسخ. أما الآية الثانية فتفيد: وجوب استقبال الكعبة في الفرائض.

ولكن هذا تخصيص بدون مخصص، والانحراف عن الكعبة في السفر تجيزه الضرورة، ومن قال: إن الآية الأولى محمولة على التوجه في الدعاء والثانية: على التوجه في الصلاة، فهو قول مردود؛ لأنه تخصيص بدون مخصص[1].

قال الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2].

وقال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].

وقال جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٥) سورة النحل، الآية: ٤٤.

الآية الأولى: تدل بظاهرها على أن البيان خاص بالموقنين، والآيات الأخرى: تدل على أن البيان عام للناس جميعاً، فكيف التوفيق بينهما؟

والجواب: أن البيان عام للناس جميعاً، وميسر لكافة الخلق، فإذا ما انتفعوا بهذا البيان صاروا من الموقنين المتقين، فالتخصيص في الآية الأولى لأنهم الذين انتفعوا بهذا البيان.

ويرشد إلى هذا قوله في الآية الثانية: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وتعقيبه الآية الرابعة بقوله: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . وجمعه بين البيان والهداية في الآية الثالثة.

ونظائر ذلك قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [١] . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ [٢] .

فالإنذار عام للأسود والأحمر وغيرهما، ولكن خص الإنذار بمن يخشى، ومن يتبع الذكر؛ لأنهم المنتفعون به، ومن لم ينتفع به فهو كالعدم [٣] .

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [٤] .

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٥.

(٢) سورة يس، الآية: ١١.

(٣) دفع إيهام الاضطراب، ص٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

وقال عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾[(١)].

في الآية الأولى: دلالة على أن عهد الله لا يناله ظالم، والآية الثانية: يوهم ظاهرها جواز ذلك، فكيف التوفيق بينهما؟

والجواب: إن المراد بالعهد الذي لا يناله ظالم: إمامة النبوة، أما غيرها من الملك والرياسة والسلطان: فجائز أن يولي بعض الظالمين بعضاً.

والله تعالى: يقوي الظالم على غيره من الظلمة ليدفعه عن الظلم ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[(٢)]. وقوله ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[(٣)].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[(٤)].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾[(٥)].

المراد بالبلد: مكة المكرمة - حرسها الله تعالى - والمقصود بالأمن لهذا البلد الحرام: أن يكون بلداً أميناً مقدساً عن أن تطأة أقدام الغزاة، أو تلوثه أيدي الطغاة، أو ينال من حرمته كافر أو ظالم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٣) صحيح الإمام البخاري - كتاب الجهاد - باب إن الله ليؤيد الدين بالرجل الفاجر.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

وقد دعا إبراهيم – عليه السلام – بهذا الدعاء من أجل أم القرى ودعوة الأنبياء مستجابة فكيف ذلك؟ وقد قال ﷺ: «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»(١)، وقد خرب الحجاج الكعبة.

والجواب: إن المراد بهذا الدعاء: أن يكون أهل هذا البلد آمنين في بلدهم كما أخبر الله تعالى حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(٢).

وهذا القدر من الأمن قد حصل، ولا يزال حاصلاً، فقد صد أبرهة الحبشي، ولم تحل لرسول الله ﷺ سوى ساعة من نهار(٣).

فأهل مكة المكرمة – بحمده تعالى – قد أمنهم الله من الخوف على أنفسهم وأموالهم وبلدهم، ولم يسلط عليهم عدواً من غير ملتهم(٤).

ودعوة إبراهيم – عليه السلام – قد تحققت، وإخباره ﷺ عن مخبوء الغيب بخبر ذي السويقتين، أو تعرض الحجاج للكعبة، لا يتعارض مع نص الدعوة ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾، فإنه لم يقل إلى يوم الدين(٥).

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾(٦).

---

(١) صحيح الإمام البخاري – كتاب هدم الكعبة.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.
(٣) صحيح الإمام البخاري – كتاب جزاء الصيد – باب لا يحل القتال بمكة.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٦.
(٥) مسائل الرازي، ص٨، وتفسير الخازن: ١/ ٨٢، ٣/ ٨١، وتنزيه القرآن، ص٢١٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

وقال عز وجل: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١).

كيف مدح نوحاً وإبراهيم – عليهما السلام – بأنهما من عباد الله المؤمنين الصالحين، ومرتبة النبوة والرسالة فوق مرتبة الإيمان والصلاح.

والجواب: إن الله عز وجل إنما مدحهما بذلك تنبيهاً للخلق على جلالة قدر الإيمان، ومكانة وشرف الصلاح، ترغيباً في تحصيلهما، والازدياد منهما، والثبات عليهما (٢).

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣).

اللافت للنظر: أن الموت ليس في وسع الإنسان وقدرته حتى يصح النهي عنه على صفة ما، أو الأمر به على غيرها، فكيف قال ذلك؟ وما السر في تعليق الإسلام بالموت، وهو واجب في كل حال؟

والجواب: إن هذا التعبير كقوله: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع، فالنهي فيه: إنما هو عن تركه الخشوع حال صلاته، وليس نهياً عن الصلاة، وإنما دخل حرف النهي على الصلاة وهي غير منهي عنها؛ لإظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة، وكأنه قال: أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة: وكذلك الآية التي بين أيدينا النهي فيها إنما هو عن عدم إسلامهم حال موتهم،

(١) سورة الصافات، الآيات: ٧٩ – ٨١.

(٢) مسائل الرازي: ٢٩٢ بتصرف.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.

وأن حق هذا الموت أن لا يحصل فيهم، وليس نهياً عن الموت.

وإنما أدخل حرف النهي على الموت وهو غير منهي عنه لإظهار أن الموت بدون إسلام موت لا خير فيه، وكأنه قال: أنهاكم عن الموت بدون إسلام، فالمراد الثبات والدوام على الإسلام حتى إذا جاءكم الموت متم عليه.

ولما كان المرء يخاف الموت في كل وقت، وعلى أي حال، صار ذكر الموت دلالة على وجوب التمسك بالإسلام، والخوف من تركه. وهذا الأسلوب أظهر في التوضيح، وأقوى في التحذير.

وقيل في الجواب. إن المعنى. ولا تموتن إلا وأنتم محسنو الظن بالله عز وجل. ويستدل على ذلك. بما روي عن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**» (١).

ويمكن الجمع بين الجوابين بأن يقال: إن الأول واجب والثاني أوجب. أو أن الثاني مترتب على الأول كترتب الإحسان على الإيمان والإسلام كما في حديث جبريل - عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ (٢).

وقد يرد على النص سؤال: كيف قال ذلك والله لا مثل له والضمير في

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٨٣، وانظر مسائل الرازي، ص٨، والفتوحات الآلهية: ١/ ٨٦، وتنزيه القرآن عن المطاعن، ص٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.

(به) عائد على الله تعالى وإن كان الضمير عائداً على دين التوحيد فلا مثل له أيضاً، فكيف قال ذلك؟

والجواب: إن المراد بالمثل هنا: الكتاب؛ والتقدير: فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا.

وقيل في الجواب: إن كلمة (مثل) هنا صلة للتأكيد، والمعنى: فإن آمنوا بما آمنتم به وهو دين الإسلام. أو فإن آمنوا بمن آمنتم به - وهو الله تعالى - ومثل قد تأتي صلة لسر بلاغي [(١)] كما في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [(٢)]. وقوله تعالى: ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [(٣)]. ويشهد لذلك قراءة: (بما آمنتم به، أو بالذي آمنتم به) [(٤)].

وقيل: الباء زائدة، كما في قولـه تعالى: ﴿ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [(٥)] أي: مثل إيمانكم بالله، أو مثل إيمانكم بدين الإسلام [(٦)].

وهذه الأقوال كما ترى بعضها آخذ بعناق بعض، من غير أن ترجح كفة أحدها على الآخر.

---

(١) الكلمات الزائدة في غير القرآن: لو جاءت في القرآن يعبر عنها بالصلة تأدباً، فإذا نفى الشبهة عن المثل - على افتراض وجوده - فنفيه عن الذات الإلهية من باب أولى.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٤) الأولى قراء ابن مسعود، وابن عباس - رضي الله عنهم - والثانية: قراء أبي - رضي الله عنه - البحر المحيط.

(٥) سورة مريم، الآية: ٢٥.

(٦) راجع مسائل الرازي، ص٩، وتفسير البيضاوي: ١/ ٨٥، وزاد المسير: ١/ ١٥١.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (١) .

الله عز وجل بكل شيء عليم، فكيف قال: (إلا لنعلم)؟

والجواب: إن المراد: إلا لنعلم ذلك كائناً موجوداً، ما قد علمناه أنه يكون ويوجد، فالمراد بالعلم: الظهور لا المعرفة، وذلك حتى يتعلق به الثواب والعقاب، فإنهما لا يتعلقان بما هو معلوم في الغيب، وإنما يتعلقان بما هو ظاهر وموجود، والمعنى: إلا لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب.

وقيل: المراد بالعلم: التمييز للعباد كقوله تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (٢) . أي لنميز الثابت من المتزلزل، فوضع العلم موضع التمييز المسبب عنه، وكان الذي يميز ويظهر هو متعلق العلم لا العلم، فذكر العلم وأراد المعلوم، لأن المعلوم لا يكون إلا بحسب العلم، فذكر العلم يدل على حال المعلوم، وذلك كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ ﴾ (٣) . والمراد حتى يجاهدوا ونحن بذلك عالمون، ويشهد لهذا القول قراءة (ليعلم) على البناء للمفعول (٤) .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

(٤) وهي قراءة الزهري – البحر المحيط: ١/ ٤٢٤.

وقيل المعنى لنعاملكم معاملة المختبر الممتحن الذي كأنه لا يعلم، إذ العدل يوجب ذلك من حيث لو عاملهم بما يعلم أنه يكون منهم قبل وقوعه كان ظلماً، والظلم من الله تعالى محال.

وقيل إن قوله (لنعلم) تقتضي حقيقته أن يعلم هو وغيره، ولا يحصل علمه مع غيره إلا بعد حصول الاتباع، وأما قبل حصوله فيكون الأوَّل – سبحانه – هو المنفرد بالعلم به. فصح ظاهر الآية.

وقيل: المراد بالعلم هنا الرؤية، أي: لنرى.

وقيل إن المراد: إلا لتعلموا أنا نعلم أن المنافقين كانوا في شك.

وقيل المراد: إلا ليعلم النبي، فذكر نفسه وأراد رسوله كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [١]. والمراد يؤذون أنبياءه، وكأنه قال: (إلا ليعلم الرسول من يتبعه).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [٢].

كيف أخبر الله عز وجل أن من وافى على الكفر، يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، مع أن أهل دين الكافر لا يلعنونه!

والجواب أن الآية على عمومها: وأن جميع من أخبر الله، يلعنون الكافر،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦١.

بما فيهم أهل دينه وخاصته، ولكن ذلك في الآخرة - ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [١] . وقوله جل جلاله: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [٢] .

وقيل: المراد بالناس هنا: المؤمنون فقط، ويعكر صفو هذا القول لفظة (أجمعين) [٣] .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ [٤] .

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٥] .

وقال الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [٦] .

وقال جلت حكمته: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [٧] .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

(٣) بتصرف من مسائل الرازي: ١١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

(٥) سورة الدخان، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٦) سورة الواقعة، الآيتان: ٥١، ٥٢.

(٧) سورة الحاقة، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

وقال تبارك اسمه: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ ﴾[(١)].

فظاهر هذه الآيات يبدو عليه التعارض؛ لأن كل آية منها حصرت طعام أهل النار في نوع خاص، فكيف نوفق بينها؟

والجواب: إن العذاب دركات، والمعذبون طبقات، وعلى قدر الذنوب تكون العقوبات. فمنهم من لا طعام له إلا الغسلين، ومنهم من أكله الضريع ومنهم من أكله الزقوم، ومنهم من لا يأكل إلا النار، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝ ﴾[(٢)].

وقيل إن هذه أوصاف متعددة لموصوف واحد، وهو الطعام المؤذي الكريه.

وقيل إن المعنى في جميع الحالات أنهم لا طعام لهم أصلاً، لأن الضريع لا يصدق عليه اسم الطعام؛ ولا تأكله البهائم، فأحرى بتركه الآدميون.

وكذلك الغسلين، ليس من الطعام، فمن طعامه الضريع، لا طعام له ومن طعامه الغسلين كذلك، وعليه فلا إشكال.

وقد يرد على هذا القول: أنه وإن لم يكن طعاماً بالمعنى المعروف، لكنه طعام في الجملة، يدل على ذلك قوله: ﴿ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝ ﴾[(٣)].

---

(١) سورة الغاشية، الآية: ٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الواقعة، الآيات: ٥٢ – ٥٥، والهيم الإبل التي أصابها ظمأ شديد، وانظر مسائل الرازي، ص٣٥٤، ومجمع البيان: ٢٩/ ٤٧، وابن قتيبة، ص٦٨، ودفع إيهام الاضطراب، ص٣٠٠.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٢).

وقال جلت حكمته: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣).

سواء أكان المتكلم هو الله – عز وجل – أم الملائكة – عليهم السلام – بإذن الله وأمره، فكيف التوفيق بين إثبات الكلام ونفيه؟

والجواب: إن يوم الحساب مواقف متعددة؛ ففي موقف لا يكلمون، وفي آخر: يكلمون. أو أن المنفي كلام التلطف والإكرام؛ والمثبت: كلام التوبيخ والإهانة، فلا تنافي (٤).

قال الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (٥).

وقال عز وجل: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٢.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٠.

(٤) فتح الرحمن ومسائل الرازي، ص١٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾[1].

وقال ﷺ: «**إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**».

الآية الأولى ترشدنا إلى أن الوصية للوالدين والأقربين فرض مكتوب، وحق واجب، على كل من حضرهم الموت من المتقين.

والآية الثانية والحديث يبينان أن الله عز وجل قد تكفل بتوزيع التركات، وأعطى لكل قريب من الميت نصيبه ولا سيما الوالدان اللذان لا يحرمان من الميراث بحال، فكيف التوفيق بين هذه النصوص؟

والجواب: إن الآية الأولى منسوخة بالآية الثانية، أو بالحديث، أو بإجماع الأمة على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين.

وقيل الآية محكمة. وهؤلاء منهم من يرى أن الآية فيمن حرم الإرث من الأقربين. ومنهم من يحملها على من له ظرف يقضي بزيادة العطف عليه كالعجز، أو كثرة العيال، أو ما شابه ذلك. ومنهم من يجعل حكمها: الندب لا الوجوب، وعليه فلا تعارض.

ولكن يرد عليه أنه خلاف الظاهر المتبادر من لفظ (كتب) الذي يوحي بمعنى الفرضية، ولفظ (حقاً على المتقين) الذي ينبئ عن الوجوب والإلزام، وشواهد السنة الناهية عن الوصية لوارث.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١. مناهل العرفان: ٢/ ٢٥٧، بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [(١)].

صيام الأمة الإسلامية يختلف عن صيام اليهود والنصارى، فكيف قال: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾.

والجواب: إن التشبيه في أصل الصوم، لا في كيفيته. وليس بلازم أن يكون التشبيه من كل وجه، فالناس جميعاً مكلفون بأصول العبادات، أما الفروع والأمور الثانوية، فما يصلح لقوم قد لا ينفع لآخرين، والله عليم حكيم.

وقيل: التشبيه في كيفية الإفطار، فقد كان في أول الأمر الإفطار مباحاً من غروب الشمس إلى وقت النوم - كما كان في صوم من قبلنا - وعلى هذا القول، فالآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ﴾ [(٢)]، وقوله: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ﴾ [(٣)].

حيث إن الآية الأولى تقتضي تحريم الوطء والأكل بعد النوم ليلة الصوم - كما كان عليه من قبلنا - والآية الثانية تقتضي إباحة الأكل والشرب والوطء حتى الفجر. ولذلك رأى بعض العلماء نسخ الآية الأولى بالثانية، ولكن الصحيح أنها محكمة؛ لأن التشبيه في الأصول دون الفروع. فلا تعارض ولا نسخ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

وقيل: التشبيه في العدد، على ما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: فرض على النصارى صوم رمضان بعينه، فقدموه عشرة أو أخروه عشرة لئلا يقع في الصيف، وجبروا التقديم والتأخير بزيادة عشرين، فصار صومهم خمسين يوماً بين الصيف والشتاء [١].

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٢].

وقال عز وجل: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [٣].

الآية الأولى تفيد تخيير من يطيق الصوم من المسلمين المقيمين الأصحاء بين الصيام وبين الإفطار مع الفدية.

بينما الآية الثانية توجب الصوم بدون تخيير، فما سبيل الجمع بينهما؟

والجواب: إن الآية الأولى منسوخة بالآية الثانية. فقد روى أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ، عن أبي سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ ﴾ [٤]. كان من شاء منا صام، ومن شاء أن يفتدي فعل، حتى نسختها الآية بعدها.

وهذا الرأي هو الموافق لظاهر النص الكريم.

وقيل: الآية محكمة، وهي على حذف حرف النفي، والتقدير: وعلى

---

(١) مسائل الرازي، ١٢، ومناهل العرفان: ٢/ ٢٥٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

الذين لا يطيقونه، ويدل لهذا الحذف قراءة (يطوقونه) بتشديد الواو وفتحها، والمعنى: يطيقونه بجهد ومشقة. وعليه فلا تعارض ولا نسخ، ويرد على هذا الرأي، أنه مبني على أن في الآية حذفاً، ولا ريب أن الحذف خلاف الأصل. وأما قراءة (يطوقونه) بالتشديد، فلا تدل على مشقة تصل بصاحبها إلى جواز الفطر بعد إيجاب الصوم من غير تخيير، بل تدل على مشقة ما، ولا شك أن كل صوم فيه مشقة ما – خصوصاً أول مشروعيته [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [(٢)].

وقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [(٣)].

وقال سبحانه: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [(٤)].

من هذه الآيات ما يفيد إجابة الدعاء مطلقاً؛ ومنها ما علقت الإجابة على مشيئة الله – سبحانه وتعالى – فكيف نوفق بين هذه وتلك؟

والجواب: إن الآيتين الأوليين معناهما خاص وإن كان لفظهما عاماً، والمراد: أجيب دعوة الداعي إذا وافق القضاء وتحققت شروط الدعاء، ولم

---

(١) بتصرف من مناهل العرفان: ٢/ ٢٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٤١.

يسأل الداعي إثماً، أو قطيعة رحم، أو محالاً [١] . وعندئذ يتحقق الدعاء بصورة من صور ثلاث.

فقد يتحقق مراد الداعي، وقد يدفع عنه من السوء والبلاء مثل دعوته، وقد يدخر ثوابها له في الآخرة.

وبيان ذلك في قوله ﷺ: «**ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم؛ إلا أعطاه الله إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء بمثلها**»، قالوا: يا رسول الله إذاً نكثر، قال: «**الله أكثر وأطيب .. ثلاث مرات**»[٢] .

وجاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجل يدعو الله تعالى إلا استجيب له، فإما أن يعجل له به في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل**»، قالوا يا رسول الله: وكيف يستعجل؟ قال: «**يقول: دعوت ربي فما استجاب لي**» [٣] .

وقد قيل لإبراهيم بن أدهم – رحمه الله – ما بالنا ندعو الله سبحانه فلا

---

(١) أجمل العلماء آداب الدعاء فيما يلي: طاعة الله تعالى وتحري الحلال الطيب في المطعم والملبس والمسكن، وحضور القلب والإخلاص في الدعاء، وأن لا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، ولا يستعجل الإجابة بأن يقول: دعوت فلم يستجب لي، ولا يدعو بمحال: كحرمان المؤمنين من دخول الجنة.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨٥.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٨٦.

يستجيب لنا؟ فقال: «لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه، ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس» (١).

وقد يتوهم الداعي أن مصلحته في إجابة الدعاء، والله تعالى يعلم أن مصلحته في تأخير ما سأل، أو في منعه، فيجيبه إلى مقصوده الأصلي وهو طلب المراد وفق المشيئة الإلهية - كما سبق - فيكون قد أجيب، وهو يعتقد أنه منع منه، والدعاء في نفسه عبادة؛ لما فيه من إظهار الخضوع والانقياد، والإخلاص لله سبحانه.

وقيل: إن معنى الآيتين الأوليين عام، ومعنى: (أجيب دعوة الداع) أي: أسمع دعوته، وأما تحقيق الأمنية فليس بمذكور، والإجابة حاصلة عند وجود الدعوة، وقد يجيب السيد عبده ولا يعطيه سؤاله.

وهذا تخصيص بلا مخصص، ترده ظواهر النصوص من الكتاب والسنة، كما يمكن أن يقال: ما قيمة سماع الدعوة إذا لم تكن مصحوبة بالإجابة؟ والتنصيص على السماع: تحصيل حاصل.

وقيل: إن معنى الدعاء هنا هو: الطاعة والعبادة، أي: اعبدوني أثبكم،

---

(١) الرسالة القشيرية.

وذلك في الآخرة. وإطلاق الدعاء على العبادة مجاز، لتضمن العبادة له؛ لأنه عبادة خاصة، أريد بها المطلق، وجعل الإثابة لترتبها عليها استجابة، مجازاً أو مشاكلة.

هذا وإن تضمن المصير إلى المجاز أرجح لما أن الأمر بالعبادة أنسب بالمقام، وأولى بالاهتمام، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [١]. ويؤيده حديث النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**» وقرأ هذه الآية [٢].

ويرد على هذا القول أيضاً أن الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ شامل لمن استكبر عن عبادة ربه؛ وأعرض عن الخضوع والانقياد لله سبحانه.

كما أن حديث النعمان «الدعاء هو العبادة» لا يدل على أنهما لفظتان لمعنى واحد، وهو العبادة، بل تدل على مكانة الدعاء من العبادة. ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**» [٣]. وقوله ﷺ: «**الحج عرفة**» [٤]. كما أن نص الآية الثالثة يتعارض مع هذا القول [٥].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير: ٦/ ١٥٠.

(٣) سنن الإمام الترمذي – الدعوات.

(٤) تفسير ابن كثير: (١/ ٤٢٦).

(٥) راجع: مسائل الرازي ص٣، والخازن: ١/ ١١٤، ٤/ ٧٦ ومجمع البيان: ٢/ ١٢٦، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٢١.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (٢).

الآية الأولى – ونظيرها كثير – تدل على طلب الانتقام. والآية الثانية – ونظيرها أيضاً كثير – تأمر بالعفو والصفح وترك الانتقام. فما سبيل الجمع بين هذه النصوص التي يوهم ظاهرها الخلاف؟

والجواب: إن الله عز وجل بين لنا مشروعية الانتقام، وأذن لنا فيه، ورغبنا في العفو، وأرشدنا إلى أفضليته. ويدل لهذا النصوص التي جمعت بين الأمرين، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٣).

ولكن أفضلية العفو ليست على إطلاقها، فقد يحسن الانتقام في موضع لا يحسن فيه العفو، كمن يعفو عمن غصب جارية ليزني بها. فكل عفو يؤدي إلى انتهاك حرمات الله، أو نقيصة لعرض مسلم، فهو قبيح والانتقام أفضل منه وأحسن (٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٥.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٤) بتصرف، من دفع إيهام الاضطراب، ص٣٩.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ ﴾ (١) . وعلى هذه الآية يرد سؤالان:

الأول: كيف ذكر لفظ اليومين، والمراد بهما اليوم الثاني فقط؟

الثاني: إنه إنما يخاف الإثم المتعجل، فما بال المتأخر ألحق به؟

والجواب عن الأول: أن المعنى: (فمن تعجل) النفر الأول في اليوم الثاني من أيام منى (فلا إثم عليه)، (ومن تأخر) إلى النفر الثاني وهو اليوم الثالث من أيام منى (فلا إثم عليه).

أو أن المعنى: (فمن تعجل) أي: فمن استعجل النفر (في يومين) أي يوم النفر والذي بعده.

وقيل: إن في قوله: (في يومين) مجازاً؛ لأن الفعل الواقع في الظرف المعدود يستلزم أن يكون واقعاً في كل من معدوداته، تقول: سرت يومين فلا بد أن يكون السفر وقع في الأول والثاني، أو بعض الثاني. ومن هنا لا يقع التعجيل في اليوم الأول من هذين اليومين بوجه.

ووجه المجاز، إما من حيث أنه جعل الواقع في أحدهما واقعاً فيهما فيكون المراد: في مجموع اليومين الصادق بأحدهما – وهو الثاني – كقوله تعالى: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ (٢) . والناسي أحدهما، وقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦١.

ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [(١)] : وهما لا يخرجان إلا من الملح لا من العذب.

وإما من حيث حذف المضاف، أي في ثاني يومين [(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [(٣)].

كيف طابق الجواب السؤال، وقد سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا عن بيان المصرف؟

والجواب: إن قوله: (من خير) قد تضمن بيان ما ينفقونه – وهو كل خير – ثم زيد على الجواب بيان المصرف ولا عيب في الزيادة عن المطلوب. إنما العيب في النقصان، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [(٤)]. وقوله ﷺ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**».

وقيل: إن في الآية حذفاً لبعض المسؤول عنه، وأن السؤال كان عن أمرين، عن المنفق من المال، وعن مصرفه. وبهذا الاعتبار تحصل المطابقة بين

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

(٢) مسائل الرازي: / ١٤ وزاد المسير: ١/ ٢١٨، والفتوحات الإلهية: ١/ ١٦٢، وتفسير البيضاوي: ١/ ١١٨، ومخطوطة فتح الرحمن.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.

(٤) سورة طه، الآيتان: ١٧، ١٨.

الجواب والسؤال، فقوله: ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ جواب عن السؤال المصرح به في الآية، إذ محصل هذا الجواب تجويز الإنفاق والتصدق بسائر أنواع الأموال - قليلها وكثيرها - .

وقوله: ﴿ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ جواب عن المحذوف من السؤال، وهو السؤال عن المصرف، لما روي أن السائل عمرو بن الجموح، وكان شيخاً ذا مال، فسأل النبي ﷺ عما ينفق أو على من ينفق!

وقيل: إنهم سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو؟ فأجيبوا ببيان المصرف الذي يصرفون فيه، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد؛ لأن الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع في موضعه. وصادف مصرفه، وتحقق الشرط فيه وذلك لأنهم قد علموا أن الأمر وقع بإنفاق المال، ولأن السؤال عن الإنفاق يتضمن السؤال عن المنفق عليه.

وقيل: إنهم سألوه عن وجوه البر التي ينفقون فيها - والسؤال وإن كان وارداً بلفظ (ما) إلا أن المقصود هو الكيفية، فمن المعلوم لهم أن الذي أمروا بانفاقه مال يخرجه قربة إلى الله تعالى. وحينئذ يكون الجواب مطابقاً للسؤال، كما طابق قوله: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ (١) سؤالهم عن البقرة ما هي؟ حيث كان من المعلوم أن البقرة بهيمة شأنها كذا وكذا، فتوجه الطلب إلى تعين الصفة لا الماهية (٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ٧١.

(٢) مسائل الرازي: ١٥/ ١٦٠، وزاد المسير: ١/ ٢٣٣، والنيسابوري: ٢/ ٢٢٠.

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (٣).

الآية الأولى تفيد حرمة القتال في الشهر الحرام، والآيات الأخر تفيد الإذن بقتال المشركين عموماً، فكيف ذلك والعموم في الأشخاص يستلزم العموم في الأزمان؟

والجواب: إن عموم الأشخاص وعموم الأمكنة يتحققان في بعض الأزمان الصادق بما عدا الأشهر الحرم، فحرمة القتال في الأشهر الحرم باقية ولا تزال، اللهم إلا إذا عرض عارض يكون القتال فيه جزاء لما هو أشد منه؛ كالكفر والفتنة، فيجوز القتال من باب الضرورات تبيح المحظورات، ويشهد لذلك بقية الآية الأولى: ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (٤).

وقيل إن الآية الأولى منسوخة بالآية الثانية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

ويرد عليه إنه لا نسخ إلا عند التعارض؛ ولا تعارض [١] .

قال الله تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ ﴾ [٢] .

والسؤال المتبادر: كيف جعل قصد الصلاح شرطاً لأحقية الرجعة، والزوج أحق بالرجعة سواء أراد الإصلاح أو الإضرار؟

والجواب: إنه ليس المراد من الشرط هنا. أن يجعل قصد الصلاح للأحقية، وإنما المراد منه، حث الأزواج على قصد الصلاح. والزجر لهم عن قصد الضرار إذ الضرار حرام وظلم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ [٣] .

ومعنى هذا، أن الزوج إذا قصد بالرجعة الإضرار، فقد ارتكب محرماً، وظلم نفسه، والرجعة صحيحة، ومعنى الآية أن الرجعة أصوب وأعدل، إن أراد الزوج الإصلاح، وتركها أصوب وأعدل إن أراد الإضرار [٤] .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ ﴾ [٥] .

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٢٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

(٤) مسائل الرازي، ص١٧، وفتح القدير: ١/ ٢٣٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (١).

الآية الأولى، أفادت أن من توفي عنها زوجها، يوصي لها بنفقة سنة وسكناها ما لم تخرج؛ فإن خرجت فلا شيء لها.

والآية الثانية تفيد، وجوب انتظارها أربعة أشهر وعشراً، ولازم هذا أنه لا يجوز لها أن تخرج في هذه المدة أو تتزوج، فكيف ذلك؟

والجواب: أن الآية الأولى منسوخة بالثانية.

وقيل إن ذلك تخصيص لا نسخ، فإن المرأة قد تكون عدتها سنة كاملة، إذا كانت حاملاً.

ويرد هذا بأن الآية الأولى تفيد اعتداد المرأة حولاً كاملاً إذا كانت غير حامل، أو كانت حاملاً ولم يمكث حملها سنة. والآية الثانية قد رفعت هذا جزماً، وذلك محقق للنسخ. على أن الاعتداد حولاً كاملاً فيما إذا كانت المرأة حاملاً، ليس لدلالة الآية الأولى عليه، بل لآية: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٤.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٤.

وقيل: إن الآية الأولى خاصة فيما إذا كان هناك وصية للزوجة بذلك، ولم تخرج ولم تتزوج.

أما الثانية فهي بيان للعدة والمدة التي يجب عليها أن تمكثها، وهما مقامان مختلفان.

ويرد على هذا الرأي: أن الآية الأولى تجعل للمتوفى عنها حق الخروج في أي زمن، وحق الزواج، ولم تحرم عليها شيئاً منهما قبل أربعة أشهر وعشر، أما الثانية فقد حرمتهما وأوجبت عليها الانتظار دون خروج وزواج طوال هذه المدة، فالحق، هو القول بالنسخ (١).

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ (٢).

وقال الرسول ﷺ: «**لا تفضلوني على الأنبياء**» وفي لفظ آخر «**لا تفضلوا بين الأنبياء**» (٣).

تنص الآية الكريمة على جواز التفاضل بين الرسل - عليهم السلام - والحديث ينهى عنه ويمنعه فكيف ذلك؟

والجواب: إن الله عز وجل هو الذي فضل بعض الرسل على بعض بزيادة في الخصوصيات والكرامات، ورفع بعضهم على بعض درجات، وذلك

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٢٦١ بتصرف.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) صحيح الإمام مسلم كتاب الفضائل باب فضائل موسى.

فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأما نهي النبي ﷺ عن تفضيله على الأنبياء فذلك لخلقه العظيم، وتواضعه الرفيع، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1].

وأما نهيه ﷺ عن التفاضل بين الأنبياء، فلعل ذلك لقطع الجدال ومنع الخصام في الأنبياء لمجرد الأهواء والعصبية.

ولا أرى بأساً ولا حرجاً على من يحكي أن هذا أفضل الأنبياء أو من أولي العزم وأفضل الرسل، بعد العلم بجهة الأفضلية.

وقيل: إن هذا القول من النبي ﷺ: «**لا تفضلوني على الأنبياء**» «لا تفضلوا بين الأنبياء» كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل.

ويرد على هذا القول: أن النسخ لا يكون إلا عند التعارض ولا تعارض بعد هذا التوجيه.

وقيل: إنما نهى عن ذلك قطعاً للجدال والخصام في الأنبياء، فيكون جواز التفاضل مخصوصاً فيما إذا لم يؤد إلى مشاحنة وبغضاء وهذا تخصيص بدون مخصص.

وقيل: إن النهي إنما هو من جهة النبوة فقط؛ لأنها خصلة واحدة لا تفاضل فيها، ولا نهي عن التفاضل بزيادة الخصوصيات والكرامات.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٤٠.

وقيل: إن جميع هذه الأقوال لا تخلو من ضعف؛ لأنه لا تعارض بين القرآن والسنة؛ فإن القرآن دل على أن الله فضل بعض أنبيائه على بعض، وذلك لا يستلزم أنه يجوز لنا أن نفضل بعضهم على بعض، فإن المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية؛ وليست معلومة لدى البشر. فقد يجهل أتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصياته فضلاً عن مزايا غيره. والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي من أجلها كان هذا مفضلاً؛ وهذا مفضولاً، إلا كان تفضيلاً مبنياً على جهل بجهات التفضيل، وإقداماً على أمر لا يعلمه الفاعل له؛ وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنه لم يرد إلا القرآن في الإخبار عن تفضيل الله تعالى لبعض أنبيائه على بعض، لم يكن فيه دليل على أنه يجوز للبشر أن يفضلوا بعض الأنبياء. فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك؟

وإذا عرفت هذا علمت أن لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه. فالقرآن فيه الإخبار الإلهي بأنه فضل بعض أنبيائه على بعض، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضلوا بين أنبيائه. ومن حاول الجمع بينهما زاعماً أنهما متعارضان فقد غلط غلطاً بيناً [(١)].

هذا ما رآه الشوكاني – رحمه الله تعالى – ولو اقتصر الإخبار في القرآن على قوله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [(٢)]. لأمكن أن يكون

---

(١) فتح القدير: ١/ ٢٦٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

الأمر كما زعم – أما وقد قال الله عز وجل: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾. وقال: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ وقال: ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [١]. أفلا يدل ذلك على أن موسى وعيسى – عليهما السلام – من فضلاء الرسل؟ وقد جاء عن موسى – عليه السلام – أنه قال في حديث طويل: «اجعلني فرداً من أمة محمد ﷺ» [٢] أفلا يدل ذلك على أن الرسول ﷺ أفضل الرسل – عليهم السلام – ؟

وقول الشوكاني: «والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً، وهذا مفضولاً» ليس مسلماً؛ فمجرد الإعلام والإخبار من الله عز وجل ولو بخصيصة واحدة كاف في جواز ذلك وحكايته.

وماذا عن قول الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٣].

وماذا عن قول النبي ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي** ...» [٤].

وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٥].

---

(١) من سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) ابن كثير: ٦/ ٤٧١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾[1].

وقال جلت حكمته: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾[2].

وقال تباركت آلاؤه: ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ ﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾[5].

في الآية الأولى: نفي الشفاعة، وفي الثانية: إثبات الشفاعة لله وحده، وفي الآيات بعد؛ عدم وجودها إلا بإذن الله تعالى ورضاه. فكيف التوفيق؟

والجواب: إنه لا شفاعة في إثم عبادة الأصنام والكواكب، وكل ما عبد من دون الله.

ويدل على ذلك قوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[6]. ولا شفاعة في إثم ترك

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٥) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الزمر، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

الواجبات، ويدل على ذلك الخطاب مع المؤمنين في النفقة الواجبة وهي الزكاة وهذا هو المراد بنفي الشفاعة.

وأما إثبات الشفاعة لله، وإثباتها لغيره بإذنه ورضاه، فلا منافاة، إذ لا يملك أحد من الأنبياء، أو العلماء أو الشهداء أو الصالحين أو الأطفال شفاعة إلا بمنحها له.

ويدل على وجود الشفاعة قول النبي ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» وفي حديث أنيس: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة؛ فقال: «**أنا فاعل**»[1].

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[4].

---

(١) مسائل الرازي: / ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣١.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

في الآيتين الأوليين: نفي للخلة، وفي الأخيرة إثبات لها، فكيف التوفيق بينها؟

والجواب: إن الخلة المنفية هي الحاصلة بسبب ميل الطبيعة، ورعونة النفس، والمصالح الدنيوية. والخلة المثبتة هي: الحاصلة بسبب محبة الله؛ ألا تراه أثبتها للمتقين فقط، ونفاها عن غيرهم؟

وقيل: إن ليوم القيامة أحوالاً مختلفة؛ ففي بعضها يشتغل كل خليل عن خليله، ويفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه !!!.

وفي بعضها: يتعاطف الأخلاء بعضهم مع بعض، ويسامر بعضهم بعضاً بما حدث منهم في الدنيا [١].

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [٢].

وقال عز وجل: ﴿ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٍۚ ﴾ [٣].

وقال جل علاه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ ﴾ [٤].

---

(١) الخازن: ٣/ ٧٩ بتصرف.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٤) سورة البقرة، ١٩٣، وسورة الأنفال، الآية: ٣٩.

وقال سبحانه: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١].

وقال عز من قائل: ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ ﴾ [٣].

الآيات الثلاث الأولى: تدل على أنه لا يكره أحد على الدخول في الدين؛ بعد إبلاغ الرسول ﷺ، وبيان الرشد من الغيّ. والآيات الثلاث الأخرى: تدل على إكراه الكفار على الدخول في الإسلام، أو القتل، فكيف التوفيق بينها؟

والجواب: إن عدم الإكراه على الدخول في الدين: خاص بأهل الكتاب، وأنهم كانوا قبل نزول قتالهم لا يكرهون على الدين مطلقاً. وبعد نزول قتالهم لا يكرهون عليه إذا أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، والدليل على خصوصها بهم: ما رواه أبو داود عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كانت المرأة تكون مقلاة [٤] فتجعل على نفسها – إن عاش لها ولد أن تهوده – فلما أجليت بنو النضير؛ كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له (الحصين) كان له ابنان

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٨.

(٣) سورة الفتح، الآية: ١٦.

(٤) المرأة المقلاة: هي التي لا يعيش لها ولد.

نصرانيان وكان هو مسلماً، فقال للنبي ﷺ ألا استكرههما؟ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله هذه الآية (١) .

وروى ابن جرير أن سعيداً بن جبير سأله أبو بشر عن هذه الآية فقال: نزلت في الأنصار فقال: خاصة؟ قال: خاصة (٢) .

ولا يرد على هذا: أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب؛ لأن التخصيص فيها عرف بالنقل عن علماء التفسير، لا بمطلق خصوص السبب، وأن الإكراه على الدخول في الدين خاص بالذين لا كتاب لهم، ولا دين لديهم، فهؤلاء لا يقبل منهم غير الإسلام، ويدل على ذلك ما أخرجه ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ قال: أكره عليه هذا الحي من العرب؛ لأنهم كانوا أمة أمية، ليس لهم كتاب يعرفونه، فلم يقبل منهم غير الإسلام.

ولا يكره عليه أهل الكتاب - إذا أقروا بالجزية، أو بالخراج، ولم يفتنوا عن دينهم، فيخلى سبيلهم.

وعلى هذا، يفهم مراد النبي ﷺ بقوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام**» (٣) .

(١) أسباب النزول للسيوطي: ٤٩.
(٢) تفسير الطبري: ٣/ ١٥.
(٣) تفسير ابن كثير: ٧/ ٢٧٨.

وقوله: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل**»[١] وأن المراد: الكفار.

وقيل: إن الآية الأولى: نزلت قبل أن يؤمر الرسول ﷺ بقتال المشركين والكفار. وعلى هذا فتكون منسوخة بآيات القتال. ومعلوم أن سورة البقرة من أول ما نزل بالمدينة، وسورة براءة من آخر ما نزل بها، والمتأخر ناسخ للمتقدم عند التعارض.

والقول الأول: أصح؛ لأن إعمال الآيتين أولى من إهدار إحداهما.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وقال عز وجل: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[٣].

وقال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٤].

وقال تبارك آلاؤه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾[٥].

الآيات الثلاث الأول تدل بظاهرها على عدم هداية الله لبعض الخلق، والآية الرابعة تدل على إطلاق هدايته لكافة الخلق، فما سبيل الجمع بينها؟

والجواب: إن الهدى قسمان: عام وخاص، فالعام هو: بيان الطرق،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٨.

(٥) سورة الليل، الآية: ١٢.

وتيسير الأدلة، وإقامة الحجج على العبادة بما يجب عليهم، وما يجوز لهم في حياتهم التكليفية، وهذا قد أوجبه الله على نفسه - فضلاً منه وكرماً لجميع الخلائق، قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ ﴾ [(١)] . أي: طرق الهداية والضلالة.

وأما الخاص: فهو هداية التوفيق، وتيسير سبل الطاعة، حتى يختم للعبد بخاتمة السعادة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [(٢)] . فالمثبت: العام؛ والمنفي: الخاص، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

وقيل: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ ﴾ [(٣)] ، معناه: إن الطريق الذي يدل علينا وعلى طاعتنا هو: الهدى لا الضلال.

وقيل المعنى: إن من سلك طريق الهدى وصل إلى الله. وعلى هذين القولين، فلا إشكال في الآية أصلاً [(٤)] .

قال عز وجل: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [(٥)] .

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الليل، الآية: ١٢.

(٤) دفع إيهام الاضطراب، ص٣٣٣، بتصرف.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.

وقال سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾[1].

وفي الآية الأولى: دلالة على أن الله تعالى يكلف العباد حتى بالخطرات التي لا يملكون دفعها.

والآية الثانية تفيد: أنه لا يكلفهم بها؛ لأنها ليست في وسعهم، ولا تحت مقدرتهم. فكيف التوفيق؟

والجواب: إن الخطرات التي لا يستطيعون دفعها، ولا يملكون التحرز منها كحديث النفس والوسوسة ليسوا بمكلفين بها، وإنما هم مكلفون بما يستطيعون التحرز منه كالعزم القاطع، والاعتقاد الجازم مما أبدوه في أنفسهم أو: أخفوه، فلا تعارض بين الآيتين.

وقيل: الآية الأولى منسوخة بالثانية.

ويرد هذا القول: أن الآية خبر، والخبر لا يدخله النسخ، كما أن النسخ لا يقال به إلا عند التعارض، ولا تعارض.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

وقيل: إن الآية الأولى خاصة بكتمان الشهادة وإظهارها، ويرد عليه أنه لا دليل على هذا التخصيص.

وقيل: إن معنى الآية الأولى أن الله يحاسب المؤمنين والكافرين بما أبدوا وبما أخفوا، فيغفر للمؤمنين، ويعذب الكافرين والمنافقين. ويرد عليه: أن هذا العموم لا يسلم بعد ما تقرر من أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها سواء أكانت نفساً مؤمنة أم كافرة؛ لأن لفظ (نفساً) نكرة في سياق النفي فتعم [١].

قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [٢].

ومن المعلوم: عدم مؤاخذة الإنسان على النسيان والخطأ، لقول النبي ﷺ: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان** ... » [٣]. فكيف أمر الله عباده أن يدعوا بهذا الدعاء؟

والجواب: إن طلب ذلك مع العلم بحصوله من باب التضرع والتذلل لله سبحانه والاعتراف والتحدث بنعم الله تعالى عليهم كما قال عز وجل: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [٤].

وقد كان ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، وكان يستغفر الله في اليوم مائة مرة؛ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولما

(١) مسائل الرازي: ص٢٣، ومناهل العرفان: ٢/ ٢٦٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ٥/ ٢٩٩.

(٤) سورة الضحى، الآية: ١١.

سئل عن ذلك قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»؟ [(١)] .

وقيل المراد: طلب عدم المؤاخذة بما صدر عنهم من الأسباب المؤدية إلى النسيان والخطأ، من التفريط، وعدم المبالاة، لا من نفس النسيان والخطأ.

وقيل، إنه يجوز أن يدعو الإنسان بحصول ما هو حاصل له قبل الدعاء، لقصد استدامته.

وقيل، إنه وإن ثبت شرعاً، أنه لا مؤاخذة بهما، فلا امتناع من المؤاخذة بهما عقلاً.

وقيل، لأنهم كانوا على جانب عظيم من التقوى بحيث لا يصدر عنهم الذنب تعمداً، وإنما يصدر عنهم خطأ أو نسياناً؛ فكأنه وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً بنزاهة ساحتهم عما يؤاخذون به، وكأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذون به، فما منهم سبب مؤاخذة إلا بهما.

وقيل: إن النسيان على ضربين.

أما الأول: فهو ما كان من العبد على وجه التضييع والتفريط، وهو ترك ما أمر بفعله؛ كمن رأى على ثوبه دماً، فأخر إزالته عنه ثم نسي، فصلى وهو على ثوبه، فيعد مقصراً، إذ كان يلزمه المبادرة إلى إزالته.

أما إذا لم يره فيعذر فيه، وكذا لو ترك ما أمر بفعله على وجه السهو، أو ارتكب منهياً عنه من غير قصد إليه، كأكل آدم – عليه السلام – من الشجرة

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٢٨.

التي نهي عنها على وجه النسيان من غير عزم على المخالفة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [١] . فمثل هذا يجب أن يسأل الله تعالى العفو عنه [٢] .

وأما الضرب الثاني، فهو كمن ترك صلاة ثم نسيها، أو ترك دراسة القرآن بعد أن حفظه حتى نسيه، فهذا لا يعذر بنسيانه وسهوه؛ لأنه قصر وفرط. فثبت أن النسيان على قسمين، وإذا كان كذلك صح طلب العفو والغفران عن النسيان.

والخطأ أيضاً على وجهين.

أحدهما: أن يأتي العبد ما نهي عنه بقصد وإرادة، فذلك خطأ منه، وهو به مأخوذ، فيحسن طلب العفو والغفران لذلك الفعل الذي ارتكبه.

وثانيهما: أن يكون الخطأ على سبيل الجهل والظن بأن له فعله، كمن ظن أن وقت الصلاة لم يدخل، وهو في يوم غيم، فأخرها حتى خرج وقتها، فهذا من الخطأ الموضوع عن العبد. لكن طلب العفو والغفران لسبب تقصيره.

وبعد أن علمنا أن المؤاخذة ليست على الخطأ والنسيان، بل على ما يؤدي إليهما، يرجع هذا القول إلى القول الثاني، ولا شك أن الخطأ والنسيان المرفوعان عن هذه الأمة، هما اللذان لا دخل للإنسان في اكتسابهما، ولا هما مما في وسعه وتحت تصرفه [٣] .

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٢) الفتوحات الإلهية: ١/ ٢٣٨، والخازن: ١/ ٢٠٧، وفتح القدير: ١/ ٣٠٧.

(٣) وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»، وقد سبق تخريج الحديث.

سورة آل عمران

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[1].

وقال جلت حكمته: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2].

وقال تباركت آلاؤه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾[3].

في الآية الأولى: دلالة على أن القرآن منه ما هو محكم، ومنه ما هو متشابه.

وفي الآية الثانية: دلالة على أنه كله محكم.

وفي الآية الثالثة: دلالة على أنه كله متشابه، وظاهر هذا كله يبدو عليه التعارض، فكيف نوفق بينها جميعاً؟

والجواب: إن معنى كونه كله محكماً: أنه كلام في غاية الإحكام والإتقان، ونهاية الصدق والحق، فصيح الألفاظ، صحيح المعاني، بين الإعجاز، أخباره صدق، وأحكامه عدل، لا تعتريه الشبه، ولا يشوبه عيب، منزه عن العبث والهزل، ومصون عن الخلل والزلل، محفوظ من التغيير والتبديل، وهذا هو الإحكام العام.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

ومعنى كونه كله متشابهاً: أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن، ويصدق بعضه بعضاً في المعنى، ويماثل بعضه بعضاً في الصحة والسلامة من العيوب وعدم التناقض، ويعاضد بعضه بعضاً في الإعجاز، وهذا هو التشابه العام.

ومعنى كون بعضه محكماً، ،بعضه متشابه أن بعضه يستوي السامعون في تأويله ومعرفة مراده، وبعضه ليس كذلك. فظهر أن الإحكام الذي عم به غير الذي خص به، في الإعجاز[(١)] .

وإذا ثبت أن بعض القرآن متشابه، فكيف التوفيق بين هذا المعنى وبين قوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[(٢)] .

والجواب: من جملة وجوه:

الأول: إنه لما كان كلام العرب على ضربين:

أحدهما: الموجز الذي لا يخفى على أحد، ولا يلتبس على سامعه، ولا يحتمل غير ظاهره، ويوقف على معناه من أول نظرة.

وثانيهما: المجازات والكنايات والإشارات، والتلويحات، وهذه المعاني المتزاحمة تحتاج في الوصول إليها إلى قدح الذهن، وإعمال الفكر، وهذا الضرب الثاني: هو البديع عند العرب، والمستملح في كلامهم، والمقياس في فصاحتهم وبلاغتهم.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ومباحث في علوم القرآن بتصرف.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

ولما كان الأمر كذلك أنزل الله تعالى القرآن العظيم على هذين الضربين ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله، فكأنه قال عارضوه بأي الضربين شئتم، فإنه جامع لهما، ولو نزل كله محكماً واضحاً لقالوا هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا والمعتبر لدينا.

الثاني: أن الله تعالى أنزله مختبراً به عباده، ليقف المؤمن عنده ويرده إلى من يعلمه، فيعظم بذلك ثوابه، ويرتاب المنافق فيداخله الزيغ، فيستحق بذلك مزيد العقوبة كما ابتلى الله عباده بنهر طالوت وغيره.

الثالث: أن الله تعالى أراد أن يشغل أهل العلم بردهم المتشابه إلى المحكم بالنظر والاستدلال، فيطول بذلك فكرهم ويتحقق بالبحث عنه مرادهم، فيثابون على تعبهم ونصبهم كما يثابون على سائر عباداتهم. ولو جعل القرآن كله محكماً ظاهراً جلياً، لاستوى فيه العالم والجاهل، ولم يكن للعلماء على غيرهم فضل، ولماتت الخواطر بعدم البحث والاستنباط، فإن نار الفكر إنما تنقدح بزناد المشكلات، وقد قال بعض الحكماء: عيب الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخاطر، وفضيلة الفقر أنه يبعث على إعمال الفكر واستنباط الحيل في الكسب.

الرابع: أن أهل كل صناعة يجعلون في علومهم معاني غامضة، ومسائل دقيقة ليحرجوا بها من يعلمون، ويمرنونهم على انتزاع الجواب؛ لأنهم إذا قدروا على انتزاع الغامض كانوا على الواضح أقدر، فلما كان ذلك حسناً عند العلماء، جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو [1].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب، ص٤٧، ومسائل الرازي: ص٢٦، ٢٧، ومجمع البيان: ٣/ ١٤، وزاد المسير: ١/ ٣٥٠، والخازن: ١/ ٢١٠.

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ (١).

وقال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ (٢).

في الآية الأولى: دلالة على أن المؤمنين رأوا الكافرين مثليهم في العدد.

والآية الثانية: تدل على أن المؤمنين قد رأوا الكافرين عدداً قليلاً. فكيف التوفيق بين الآيتين: والموقف واحد، وهو غزوة بدر الكبرى.

والجواب: إن التقليل والتكثير في حالين مختلفين قلل الله المشركين في نظر المؤمنين أولاً، والمؤمنين في نظر المشركين، حتى اجترأت كل فئة على قتال الأخرى. فلما التقتا كثر الله المؤمنين في نظر المشركين، أو أراهم إياهم على ما هم عليه، وكانوا في الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى بقوله: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ (٣). فإن المؤمنين غلبوهم في هذه الغزوة – وهذه غزوة بدر – مع أنهم أضعاف عدد المؤمنين.

وقيل: أرى الله المؤمنين المشركين مثل عدد المؤمنين – وكانوا ثلاثة أمثالهم تقريباً – لكنه قللهم في أعين المسلمين، وأراهم إياهم بقدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم، لتقوى قلوبهم بما سبق من الوعد: أن المائة من المؤمنين يغلبون المائتين من المشركين (٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٤) مسائل الرازي، ص ٢٧ – ٢٨.

قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [(١)] .

وهنا يمكن أن يقال: ما فائدة الشهادة منه سبحانه ومن لا يعرفه لا يثق بقوله، وكذلك شهادة الملائكة والعلماء؟

والجواب: إن المراد بالشهادة هنا البيان، والتوضيح بالدلائل، وإنزال الآيات، وبعث السامعين على التأمل، وليس المراد بذلك: الشهادة التي هي مثل البيانات في الحقوق، ومعنى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ أي: بين لخلقه بالدلائل وإنزال الآيات وقد نبه سبحانه على طريق معرفته في مثل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [(٢)] . وفي آية المحاجة لإبراهيم [(٣)] – عليه السلام – وغير ذلك.

فأراد تعالى أن يحقق التوحيد بذكر شهادة الملائكة والعلماء، ومثل ذلك بعد البيان يكون مصلحة [(٤)] .

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٤) تنزيه القرآن، ص٥٩، والسراج المنير: ١/ ٢٠٣.

قال الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [1].

كيف يطلب زكريا – عليه السلام – من الله تعالى الذرية الصالحة، ويبشره الله بيحيى – عليه السلام – ثم يستبعد الولد معللاً ذلك بأن امرأته عاقر، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً؟

والجواب: إن زكريا – عليه السلام – ما كان شاكّاً في قدرة الله تعالى ولا مستبعداً تنفيذ وعد الله ببشارته بغلام اسمه يحيى، بل إنه – عليه السلام – يؤمن بأن الله على كل شيء قدير. وهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله عز وجل غني عن الأسباب والوسائط، وبأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وإنما قال ذلك تعجباً من قدرة الله عز وجل واعترافاً بأن المؤثر فيه كمال قدرته، وأن الوسائط واهية، والأسباب لاغية.

ويدل على ذلك: قول الله تعالى أو: الملك المبلغ للبشارة لزكريا – عليه السلام – تصديقاً له (كذلك) أي: الأمر كذلك، وكما قال: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [2]. ولم يقل له: أو لم تؤمن؟

وقيل: إنما قال ذلك استفهاماً واستعلاماً عن الحالة التي يهبه الله تعالى فيها الولد: من شيخ فان، وعجوز عاقر، هل يهبه في حال الشيخوخة أم يرده

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٣٨ – ٤٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩.

إلى حالة الشباب ثم يهبه؟!

ويرد هذا القول: عدم مناسبة ما أجيب به زكريا – عليه السلام – له، وهو قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [(١)].

وقيل: إن هذا تعجب فرح وسرور، لا تعجب إنكار واستبعاد. وقيل: إنما قال ذلك استفهاماً؛ هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر، أو: من غيرها.

وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنه مر وقت طويل بعد سماع البشارة، قيل: عشرون سنة وقيل: أربعون، فكان القلق من هذه الحيثية.

وقيل: إنما قال ذلك؛ لا على وجه الإنكار والاستبعاد، بل ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [(٢)] فيزداد الموقنون إيقاناً، ويرتدع المبطلون.

ولعل مراد القائل: ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد، هو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [(٣)].

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [(٤)].

وقال عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠﴾ [(٥)].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

(٥) سورة مريم، الآية: ١٠.

الآية الأولى: ذكرت أن المدة ثلاثة أيام، وبينت الآية الثانية: أنها ثلاث ليال، فكيف الجمع بين الآيتين؟

والجواب: إن كلا منهما مقيد بالآخر، ويدل مجموع الآيتين على أن تلك الآية كانت حاصلة في الأيام الثلاثة مع لياليها.

ولما كانت الأيام تستلزم الليالي: ذكر في موضع الأيام، وفي آخر الليالي، ويدل على ذلك ما أخرجه الطبري عن السدى قال: فاعتقل لسانه ثلاثة أيام وثلاث ليال [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [(٢)].

كيف نفي حضور النبي ﷺ في زمن مريم، وذلك معلوم، وترك نفي استماعه ذلك الخبر، وهو الذي كانوا يتوهمونه؟

والجواب: إنه لا سبيل إلى المعرفة إلا عن طريق التعلم والدراسة، وقد سد هذا الطريق أمام المنكرين سداً محكماً بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [(٣)]، عندما قالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾. وبكونه ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

---

(١) جامع البيان للإمام الطبري: ١٦/ ٥٣ وفتح الرحمن.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

أو: يكون عن طريق الحضور في زمن الحوادث ومشاهدتها. فلما ثبت لديهم أنه لا سبيل إلى الافتراء بالتهمة الأولى، لم يبق إلا هذا الطريق الثاني الذي هو في غاية الاستحالة، فنفاه عن طريق التهكم بالمنكرين للوحي – مع علمهم أنه لا قراءة له ولا رواية، حتى يثبت لهم أن طريقه الوحيد لمعرفة ذلك هو: الوحي الإلهي والإنباء بالغيب.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[2].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[3].

وقال جلت قدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾[4].

وقال عز شأنه: ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾[5].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٤٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٤٦. وانظر: مسائل الرازي، / ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

(٥) سورة ص، الآية: ٧١.

وقال تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [١] .

آيات كثيرة، يبدو على ظاهرها التعارض، فكيف نوفق بينها؟ وكيف شبه عيسى بآدم - عليهما السلام - وآدم خلق من التراب، وعيسى خلق من روح الله وكلمته فقط، وآدم خلق من غير أبوين، وعيسى خلق من أم وكيف قال: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولا تكوين بعد الخلق؟ وكيف نوفق بين ما يوهم ظاهره الخلاف في التعبير عن خلق آدم - عليه السلام - ؟ مرة (من تراب) وأخرى (من صلصال) وثالثة: (من طين).

والجواب من نقاط:

إحداها: إن عيسى شبه بآدم - عليهما السلام - في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، فشبه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته، إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه؛ لأن الوجود من غير أب وأم: أغرب في العادة من الوجود من غير أب، وهما من هذه الجهة نظيران.

ومناسبة نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ قال عن عيسى - عليه السلام: **«إنه عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»** [٢] ، فغضب النصارى وقالوا: يا محمد، هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية [٣] .

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٤.

(٢) ابن كثير: ٢/ ٤٦٠.

(٣) انظر أسباب النزول، للسيوطي: ص٥٦، بالمعنى.

ثانيها: إن الله تعالى خلقه جسداً من تراب، ثم قال له كن بشراً فكان، فيصح النظم. أو: أن الله عز وجل أخبر بأنه خلقه من تراب لا من ذكر وأنثى، ثم ابتدأ خبر آخر فقال: إني أخبركم أيضاً أني قلت له: كن فكان، من غير ترتيب في الخلق كما يكون في الولادة.

وقيل: الضمير في قوله (كن) يرجع إلى عيسى – عليه السلام – وعلى هذا فلا إشكال في الآية. وإن كان يرد على هذا القول اختلاف مرجع الضمائر(١).

ثالثها: إن الله عز وجل عندما أراد خلق آدم – عليه السلام – جمع مادته من تراب الأرض، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ ثم صب الماء على التراب فصار طيناً، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ ترك حتى صار حمأً مسنوناً (منتناً) وإليه الإشارة بقوله: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ثم صوره كما يصور الإبريق وغيره من الأواني، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾، ثم ترك حتى يبس وصار في غاية الصلابة كالخزف الذي إذا نقرته صوَّت ليعلم هل فيه عيب أم لا، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ ثم نفخ فيه الروح فكان بشراً سوياً، وإليه الإشارة بقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ فهذه أطوار خلق آدم – عليه السلام – الطينية، ذكر في كل جانب من جوانب قصته طوراً من أطوار خلقه، وكل مناسب فيما وضع فيه(٢).

---

(١) مسائل الرازي، ص٣٣، والخازن: ١/ ٢٣٥.

(٢) مسائل الرازي، ص٣٣، والفتوحات: ٤/ ٢٥٥.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾[(١)].

وهنا يقال: إن أكثر الإنس والجن كفرة، فكيف أسلم له من في السموات والأرض؟

والجواب: إن المراد بالإسلام هنا: الاستسلام والخضوع والانقياد لما قضاه الله وقدره عليهم من الحياة والموت، والسعادة والشقاوة، والغنى والفقر ونحو ذلك. ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[(٢)].

وقيل: المراد إسلام الكل يوم الميثاق طوعاً وكرهاً.

وقيل: المؤمن أسلم طائعاً فنفعه ذلك، وقبل منه. وأما الكافر: فأسلم حين رأى بأس الله، فلم ينفعه ذلك، ولم يقبل منه. كما قال تعالى: ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا ﴾[(٣)].

والتعبير بقوله: (وله أسلم) يشوب هذا القول[(٤)] وأقرب ما سبق إلى روح القرآن ونظمه ما في الجواب الأول من توجيه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[(٥)].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٩.

(٣) سورة غافر، الآية: ٨٥.

(٤) مسائل الرازي، ص٣٤، وزاد المسير: ١/ ٤١٧، وفتح القدير: ١/ ٣٥٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

وقال عز جاهه: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[(١)].

كيف التوفيق بين الآيتين؛ وقد دلت الأولى على أنه أول بيت، وكم من بيت بني قبل الكعبة، من زمن آدم إلى إبراهيم – عليهما السلام – ؟ وكيف نجمع بين إضافة البيت إلى الله سبحانه وإضافته إلى الناس؟

والجواب عن الأول: إنه أول بيت وضع للناس في الأرض، فقد بناه آدم – عليه السلام – عندما هبط من السماء، وأوحى الله إليه: أن ابن لي بيتاً في الأرض، واصنع حوله نحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، فبناه وجعل يطوف حوله، وعلى أن الذي بناه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – ابتداء ولم يكن عملهما تجديداً لما فعله آدم – عليه السلام – فالمراد أول بيت وضع قبلة للناس ومكان عبادة لهم.

والجواب عن الثاني: إنه أضافه إلى نفسه إلى سبيل التشريف والتعظيم للبيت، كما قال: ناقة الله، وأضافه إلى الناس؛ لأنه يشترك فيه جميع الناس؛ لأنه موضع حجهم وقبلة صلاتهم[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[(٣)].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٢) مسائل الرازي، ص٣٤، والخازن: ١/ ٢٥١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

وقال عز وجل: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [١].

الآية الأولى: تأمر المؤمنين بالتقوى الحقيقية وهي الكاملة كماً وكيفاً. والثانية تأمرهم بتقوى الله قدر الاستطاعة، فما توجيه هذا التعارض الظاهري؟

والجواب: إن تقوى الله حق التقوى المأمور بها في الآية الأولى معناها: الإتيان بما يستطيعه المكلفون من هداية الله، دون ما خرج عن استطاعتهم، وقد ورد تفسيرها: بأن يحفظ الإنسان رأسه وما وعى، وبطنه وما حوى، ويذكر الموت والبلى، ولا ريب أن ذلك مستطاع بتوفيق الله تعالى.

وقيل: الآية الأولى في الإيمان والعقيدة، والثانية في التكاليف الشرعية.

وقيل: الأولى منسوخة بالثانية [٢].

والقول الأول هو الصحيح؛ لاقتضائه إعمال الآيتين.

قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [٣].

وقال جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [٤].

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٢) مناهل العرفان، ٢/ ٢٦٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

كيف التوفيق بين الآية الأولى التي توجب على جميع المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الآية الثانية التي يوهم ظاهرها إعفاءهم من هذا الواجب والاكتفاء بإصلاح النفوس؟

والجواب: إنه ليس في الآية الثانية رخصة للتباطؤ والتكاسل عن أداء هذا الواجب، ولكنه درجات، وللآمر الناهي: أن ينتقل من درجة إلى درجة، ومن حال إلى حال بحسب ظروفه وأحواله وما أوتي من معرفة واحتمال. يشير إلى هذا قول الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

فإذا وصل الأمر إلى أدنى حالاته، فعلى الآمر أن يتمثلها، وعليه بنفسه، ولا يضره ضلال الضالين، ولا زيغ المنحرفين، يدل على ذلك ما رواه الترمذي عن أبي أمية الشعياني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً: الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم**»(٢).

فليس في الآية ما يدل على سقوط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٦.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٦٦٨.

فإن من تركه – مع كونه من أعظم الفروض الدينية – فليس بمهتد، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ والمعنى: لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته.

وقيل: إن المراد بالنفس هنا: أهل الدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [(١)]، والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم.

وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك أو لاموه فنزلت [(٢)].

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [(٣)].

كيف قال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ﴾ ثم قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؟ وكيف قال: ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾؟ ولا يقال: هذا خير من ذلك إلا إذا كان في كل منهما خير، ولا خير في عدم إيمانهم؟

والجواب عن الأول: إن المراد لو آمن من لم يؤمن منهم؛ لأنه لا يصح إلا فيهم، وقوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: من تقدم إيمانهم [(٤)].

والجواب عن الثاني: إن المراد ولو آمن أهل الكتاب بمحمد ﷺ، لكان خيراً لهم من الإيمان بموسى وعيسى – عليهما السلام – فقط. والخيرية إنما

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٢) مسائل الرازي، ص٧٨، وفتح القدير: ٢/ ٨٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٤) تنزيه القرآن، ص ٧٥.

هي باعتبار زعمهم، إذ لا خير أصلاً لمن لم يؤمن بمحمد ﷺ وحينئذ فأفعل التفضيل على بابه.

وقيل هو: لبيان إن الإيمان فاضل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

وقال الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[3].

وعلى هذه الآيات يرد سؤال: كيف التوفيق بين عرض النبي ﷺ على المؤمنين أن يمدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة، ووعد الله للمؤمنين أن يمدهم بخمسة آلاف، وإمداد الله لهم بألف من الملائكة؟

والجواب: إن ترغيب النبي ﷺ للمسلمين في الجهاد بعرضه عليهم: أن يمدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة. ووعد الله لهم أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة إن صبروا واتقوا كان في غزوة أحد، ولما لم يصبروا لم يأت المدد. والمذكور في سورة الأنفال، في يوم بدر، وعلى هذا، فلا إشكال.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٩.

وقيل: الآيات كلها في شأن يوم بدر، وكانت أول دفعة من الملائكة ألف ملك، ثم عززها بألفين، فصاروا ثلاثة آلاف. ثم قال لهم: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[1] . زيادة على ما ذكر. فالتنصيص على الألف لا ينافي الثلاثة آلاف فما فوقها؛ لقوله تعالى: ﴿ مُرۡدِفِينَ ﴾ .بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوفاً أخرى مثلهم[2] .

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[3] .

وعلى هذه الآية ترد ثلاثة أسئلة:

الأول: إن المسارعة والمسابقة من المفاعلة، وهي لا تكون إلا بين اثنين كقولك: سابق زيد عمراً، فكيف قال: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ و ﴿ سَابِقُوٓاْ ﴾ . وكيف حث على المسارعة والرسول ﷺ يقول: «**العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن**»؟

الثاني: كيف قال هنا: ﴿ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ وفي سورة الحديد: ﴿ كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ! وإذا كان كذلك فأين النار؟

الثالث: كيف قال: ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ وسيدخلها غير المتقين؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

(٢) دفع إيهام الاضطراب، ص٦٩، ومتشابه القرآن للشيخ خليل يس: ١/ ٢٤٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

والجواب عن الأول: إن المعنى سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في الميدان.

وقيل المعنى: سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال التي توصلكم إلى الجنة.

وقيل المعنى: سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك[1].

والجواب عن الشق الثاني من السؤال الأول: إن النبي ﷺ قد استثنى من هذا العموم خمسة مواضع فقال: إلا في التوبة من الذنب، وقضاء الدين الحال، وتزويج البكر البالغ، ودفن الميت، وإكرام الضيف إذا نزل. والمسارعة المأمور بها في الآية هي: المسارعة إلى التوبة وما في معناها من أسباب المغفرة.

والجواب عن الشق الأول من السؤال الثاني. فهو أن المراد بالسماء جنس السماوات لا سماء واحدة، كما أن المراد بالأرض في الآيتين جنس الأرضين، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع. وقيل المراد بالجنة التي عرضها كعرض السماء: هي جنة كل واحد من أهل الجنة، وقيل: عنى به جنة واحدة من الجنات.

وأما الشق الثاني وهو: إذا كان كذلك فأين النار؟

فالجواب عنه كما في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ:

---

(١) مسائل الرازي: / ٣٣٨.

سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار»؟ وهذا يحتمل معنيين أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النهار يكون حيث شاء الله – عز وجل – وهذه معارضة فيها إسقاط المسألة، لأن القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء، قادر على أن يخلق النار حيث شاء وهذا أظهر، إذ ملكوت الله ليست مقصورة على ما نراه، بل هي أكثر لقول الله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات وتحت العرش وعرضها كما قال الله – عز وجل – كعرض السماوات والأرض، والنار في أسفل السافلين، فلا تنافي بين كون الجنة كعرض السموات والأرض، وبين وجود النار.

وقيل: إن المعنى: ثمنها لو بيعت كثمن السماوات والأرض لو بيعتا كما يقال: عرضت هذا المتاع للبيع، والمراد بذلك عظم مقدارها. وجلالة قدرها، وأنه لا يساويها شيء وإن عظم. وهذا وجه مليح إلا أن فيه تعسفاً.

وقيل: إنه لم يرد بالعرض خلاف الطول، وإنما أراد السعة والعظمة والعرب إذا وصفت الشيء بالسعة، وصفته بالعرض، كقوله: ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾[2].

(١) سورة النحل، الآية: ٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥١.

وقيل إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة، وذلك أنها لما كانت الجنة من الاتساع والانفساح في غاية قصوى، حسن التعبير عنها بعرض السموات والأرض مبالغة؛ لأنها أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده، ولم يقصد بذلك التحديد.

وقيل إنه قادر على نفس السماء والأرض أن يزيد فيها أضعافاً كثيرة وكذلك يقدر على الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض وزيادة على ذلك.

والجواب عن الثالث: إن كون الجنة معدة للمتقين، لا يمنع أن يدخلها غيرهم بفضل الله وعفوه، كما يقال: أعددت هذه المائدة للأمير ثم قد يأكلها أتباعه، ألا ترى أنه قال: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَـٰفِرِينَ ﴾[1]، ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق[2].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[3].

وقال عز شأنه: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾[4].

وقال جلت حكمته: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣١.

(٢) تنزيه القرآن عن المطاعن، ص٧٨ وفتح القدير: ١/ ٣٨١ ومختصر ابن كثير: ١/ ٣٦٨، ومجمع البيان المجلد الثاني: ٤/ ١٩٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٣٧.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ١٤.

فالآية الأولى: تدل على أنه لا أحد يملك غفران الذنوب سوى الله. والآيتان: الثانية والثالثة تفيدان جواز أن يغفر العباد بعضهم لبعض الإساءة، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن الذنوب منها صغائر، ومنها كبائر، ومنها ما يتعلق بحق الله عز وجل، ويترتب عليها العقاب، لا يغفرها إلا الله تعالى ولا يسترها سواه، وهذا هو مدلول الآية الأولى.

والذنوب التي تتعلق بحق العباد، يجوز أن يغفرها العباد بعضهم لبعض.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ﴾ [(١)].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [(٢)].

كيف التوفيق بين الآية الأولى التي تفيد أن الإنسان يأتي يوم القيامة حاملاً ما غله في الدنيا وبين الآية الثانية التي تفيد أن الإنسان يرجع إلى ربه عارياً كما بدأه أول مرة؟

والجواب: إن مفاد الآية الأولى: أن من يغلل يوافي بما غل – يوم القيامة – فيكون حمل غلوله على عنقه أمارة يعرف بها. وذلك حكم الله تعالى في كل من وافى يوم القيامة بمعصية لم يتب عنها أو أراد الله تعالى أن يعامله فيها بالعدل، يظهر عليه من معصيته ما يدل أهل القيامة عليه، ويعلمون سبب استحقاقه العقوبة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

روى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال: «**لا ألقين أحدكم يجيء يوم القيامة – على رقبته بعير له رغاء، يقول يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغتك. لا ألقين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألقين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك: لا ألقين أحدكم يجيء يوم القيامة ....**» الحديث (١).

ومفاد الآية الثانية: إن الناس يأتون يوم القيامة مجردين عن كل شيء كانوا يتوقعون منه النصرة، أو الشفاعة، أو النجاة من العذاب كالأهل والمال والصديق: ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢). ويشهد لذلك قوله في عجز الآية: ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٣).

وقيل: معنى (يأت بما غل) أي: يأتي به مكتوباً في ديوانه، أو: يأتي به حاملاً إثمه، وهذا مخالف لنص القرآن والسنة (٤).

---

(١) صحيح الإمام البخاري.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٤) مسائل الرازي، ص٣٦، وزاد المسير: ١/ ٤٩٢، ومجمع البيان: ٤/ ٢١٥، والخازن: ١/ ٢٩١.

قال الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (١).

هذه الآية نزلت في اليهود الذين عاصروا الملة المحمدية. وهؤلاء ما قتلوا نبياً قط وإنما قتل الأنبياء آباؤهم وأجدادهم، فكيف صح وصفهم بذلك؟

والجواب: إنهم لما نهجوا نهج آبائهم وأجدادهم راضين، وساروا على سنة أسلافهم مختارين فكأنهم فعلوا فعلهم، وباشروا جريمتهم. ومن ثم وصفوا بهذا الوصف وأضيف إليهم، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً.

أضف إلى هذا، أن تلك الفئة الباغية إذا ما سنحت لها الفرصة في مثل ذلك ما فاتتها، ألم يمنع النبي ﷺ من السفر إلى الشام قبل بعثته خوفاً عليه منهم؟

ألم يتآمروا على قتله مرة بالتفكير في إلقاء حجر عليه، وأخرى بدس السم له؟ أليس في هذا دلالة على أن مرض أجدادهم قد استشرى فيهم (٢).

قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾ (٣).

وقال عز وجل: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ (٤).

فالآية الأولى: تقتضي خزي كل من يدخل النار، والثانية تقتضي انتفاء

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

(٢) مسائل الرازي: ٣٧ بتصرف.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٢.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٨.

الخزي عن المؤمنين؟ ومن ثم فلا يدخلون النار. وإذا كان هذا يوهم الخلاف، فما سبيل توجيهه؟

والجواب: إن أخزى في الآية الأولى: من الخزي وهو الإذلال والإهانة. وفي الآية الثانية من الخزاية وهي: النكال والفضيحة. وكل من يدخل للنار يذل ويهان، وليس كل من يدخلها: ينكل به ويفضح، فالمراد بالخزي في الأول: الخلود، وفي الثاني: تحلة القسم. كما قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [1]. أو: أن المراد إدخال التطهير الذي يكون لبعض المؤمنين بقدر ذنوبهم.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله ولا يقتضي نفي الإخزاء مطلقاً، وإنما يقتضي أن لا يحصل الإخزاء حال ما يكونون مع النبي، وهذا النفي لا يناقضه إثبات الإخزاء في الجملة؛ لاحتمال أن يحصل ذلك الإثبات في وقت آخر.

يعني أن نفي الإخزاء خاص بمن آمن مع النبي ﷺ في وقته؛ ومن يستأهلون هذه الدرجة ممن آمن بعده، وهؤلاء لا يشوبهم هوان ولا ذل، ولا يعتريهم نكال ولا فضيحة. أما غيرهم - وهم المعنيون بصدر هذه الآية - فقد يصيبهم بعض من الخزي، أو جزء من الهوان، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

مَعَهُۥ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾[1].

أما تحلة القسم فعام كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ﴾[2][3].

***

(١) سورة مريم، الآية: ٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٣) مسائل الرازي: ١/ ٣٩، والخازن: ١/ ٣١٠ بتصرف.

سورة النساء

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ۝١٦ ﴾ [(١)].

وقال الله عز وجل: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾ [(٢)].

ويقول الرسول ﷺ: «**خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**» [(٣)].

فالآية الأولى: تدل على أن حد النساء الزواني: الحبس في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً. والآية الثانية: تدل على أن حد الرجال الزناة: الإيذاء بالسب والشتم والتعيير حتى التوبة والإصلاح بالسخرية. والآية الثالثة: تدل على أن حد الزاني والزانية: الجلد مائة، فكيف التوفيق بينها جميعاً؟

والجواب: إن الدين الإسلامي الحكيم، جاء فوجد بعض العادات السيئة

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) سورة النور، الآية: ٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣١.

التي استشرت في البشرية، وتغلغلت في دمائها، فما كان له أن يستأصلها طفرة، أو يأخذهم بغلظة وقسوة، وإلا انفضوا من حوله. فاستلها منهم كما تسل الشعرة من العجين، وقومهم بالتدرج في تشريع الأحكام، ترى ذلك واضحاً جلياً في تحريم الخمر وبيان حد الزنا.

فأول ما شرع الحكيم في حكم الزنا الحبس في البيوت للنساء الزواني والشتم والسب والتعيير للرجال الزناة، ثم الجلد مائة للزانية والزاني غير المحصنين، ثم الجلد والتغريب للبكر، والجلد والرجم للمحصن، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [(١)] وقوله ﷺ: «**قد جعل الله لهن سبيلاً ...**» والسنة النبوية مبينة للقرآن الكريم.

وقيل: إن الآيتين: الأولى والثانية، وردتا فيمن يأتون مواضع الريب والفسوق، ولم يتحقق زناهن، وأما الثالثة: فإنها فيمن تحقق زناهم.

وهذا مردود: لأنه تأويل يصادم الظاهر من الكتاب والسنة بدون دليل، فقوله ﴿ يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ ﴾ . يتبادر منه مقارفتهن نفس الفاحشة لا مجرد غشيان مكانها والأخذ بأسبابها دون الوقوع فيها.

وقوله ﷺ: «**خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً**» الحديث يفهم منه أن الحكم الأول كان مؤقتاً.

وقيل: الآيتان: الأولى والثانية: منسوختان بآية سورة النور، وبالآية التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها وهي: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥.

ولما كان النسخ لا يجوز الذهاب إليه، ولا القول به إلا عند التعارض، ولا تعارض هنا، فيمكن أن تكون هذه الآية المنسوخة التلاوة، هي التي وصل التدرج إليها، وانتهى المطاف للعمل بها وهي متعاضدة مع الحديث الشريف، أو الحديث مساند ومبين لها [1].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [2].

كيف قال (بجهالة) ولو عمل السوء بغير جهالة ثم تاب العاصي قبلت توبته؟ وكيف قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ ، ولو تاب المذنبون من بعيد قبلت توبتهم؟ وكيف جمع الله المذنبين مع الكفار في العذاب الأليم، مع إجماع أهل السنة على أن مرتكب الكبيرة من المؤمنين إذا مات قبل التوبة: فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه بعذاب غير دائم؟

والجواب عن الأول: إن المعنى بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها، لا بكونها معصية وذنباً، وكل عاص جاهل بذلك حال المباشرة للمعصية، والمعنى: أنه مسلوب كمال العلم به، بسبب غلبة الهوى وتزيين الشيطان.

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ٢٦٤، ومسائل الرازي، ص٤٣، ومجمع البيان: ٤/ ٤٨.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٧، ١٨.

وقيل: المعنى يجهلون أنها ذنوب ومعاصٍ فيفعلونها: إما بتأويل يخطئون فيه، وإما أن يفرطوا في الاستدلال على قبحها، وهذا ضعيف لأنه خلاف ما أجمع عليه المفسرون؛ ولأنه يوجب عدم قبول التوبة لمن علم أنها ذنوب ومعاصٍ [١].

والجواب عن الثاني: إنه ليس المراد بالقريب ما يقابل البعيد، إذ حكمهما واحد، بل المراد: قبل المعاينة [٢] بقرينة قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [٣] وهذا قول ابن عباس – رضي الله عنهما – وهو الظاهر من سياق الآية ونظمها [٤].

وقيل المراد التوبة على قرب عهد من الذنب من غير إصرار، أو التوبة قبل أن يحيط السوء بحسنات العاصين، فيحبطها، أو التوبة قبل إدمان المعاصي وحبها فيطبع على قلوبهم فيتعذر عليهم الرجوع أو التوبة في حال الصحة [٥].

والجواب عن الثالث: إن المراد بالسيئات هنا الشرك، كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما – وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية الأولى في المؤمنين يعني قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَـــةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ . والوسطى في المنافقين، يعني قولـه:

---

(١) مسائل الرازي، ص٤٣، ومجمع البيان: ٤/ ٥٠.

(٢) أي رؤيـة مقدمـات المـوت مـن شـخوص بصـر، وتجمـد ماء العين ورؤية منزل النعيم أو العذاب .. إلخ.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٨.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري: ٤/ ٣٠٠.

(٥) مسـائل الـرازي، ص٤٣، وفتح القدير: ١/ ١٣٩، والبيضاوي: ١/ ٢١٠، وزاد المسير: ١/ ٣٧.

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ ﴾ والأخرى في الكافرين، يعني قوله: ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ وإذا كانت الآية نازلة في المنافقين والكفار، فلا وجه لحملها على المؤمنين والذي يدل على تخصيص السيئات هنا بالشرك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (١).

فالمشيئة في الآية لا تتناول سوى المؤمنين من أهل الكبائر الذين يموتون قبل التوبة. أما المؤمن المطيع فهو خارج، وكذلك التائب؛ إذ لا خلاف في أن الله تعالى لا يعذب أهل الطاعات من المؤمنين ولا التائبين من المعصية. والكافر أيضاً خارج عن المشيئة؛ لإخبار الله تعالى أنه لا يغفر الكفر فلم يبق تحت المشيئة إلا من مات مؤمناً موحداً، وقد ارتكب كبيرة لم يتب منها.

وقيل: إنه على تقدير أن تكون الآية نازلة في عصاة المؤمنين، فهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وهذا حكم من الله، والنسخ جائز في الأحكام، فحرم الله المغفرة على من مات كافراً، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته، ولم يقنطهم من رحمته ومغفرته.

والقول بالنسخ هنا غير مسلم؛ لأن النسخ وإن جاز في الأحكام – كما هو جائز في الأوامر والنواهي – لا يجوز في الأخبار بأن يقول: كان كذا وكذا، ثم يقول: لم يكن أو يقول: في المستقبل لا يكون كذا، ثم يقول: يكون كذا، وما هنا من قوله (أعتدنا) وارد مورد الخبر فلا يجوز النسخ فيه.

---

(١) سورة النساء، من الآيتان: ٤٨، ١١٦.

وقيل: إن مرتكبي الكبائر من المؤمنين: إذا أهملوا التوبة حتى انقضت آجالهم، عذبوا عذاباً دائماً مع الكفار؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا توبة لهم عند معاينة الموت؛ ولأن الله تعالى جمعهم في قوله تعالى: (**أولئك**) وأخبر أنه أعد لهم العذاب الأليم بقوله: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾.

وهذا مردود لما علمنا سابقاً من المراد بالسيئات، ومن تخصيص هذه الآية في المنافقين والكفار، وغير ذلك، وأما جمعهم في الإشارة بقوله: (**أولئك**) فيجوز أن ترجع إلى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ؛ لأنه أقرب إليه من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والإشارة ترجع إلى أقرب مذكور.

وعلى أن الإشارة تجمعهم، فمعنى إعداد العذاب لهم: إنما هو خلق النار التي هي مصيرهم، فالظاهر يقتضي استيجابهم لدخولها، وليس في الآية أن الله يفعل بهم ما يستحقونه لا محالة. ويحتمل أيضاً أن يكون التقدير: أعتدنا لهم العذاب إن عاملناهم بالعدل، ولم نشأ العفو عنهم، وتكون الفائدة في الإخبار الإعلام بما يستحقونه من العقاب، وأن لا يأمنوا أن يفعل بهم ذلك (١).

قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (٢).

وقال عز جاهه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ (٣).

في الآية الأولى: حكم علي الإنسان بالضعف منذ الفطرة والجبلة، وفي الثانية حكم له بالقوة، وهما ضدان، فكيف الجمع بينهما؟

---

(١) مسائل الرازي، ص٤٣، ومجمع البيان: ٤/ ٥٢، والخازن: ١/ ٣٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٨.

والجواب: إن الضعف في طور، والقوة في طور، فلا تضاد؛ فقد خلق الله الإنسان من سلالة من ماء مهين، وصوره فأحسن صورته، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وأحكم عضده وشد أسره، وربط أوصاله وأعصابه حتى صار في أحسن تقويم.

أو: أن الضعف والقوة بحسب حال الإنسان وتغيره؛ فقد يكون الإنسان عظيماً قوياً مختالاً فخوراً، ثم يصير ذليلاً ضعيفاً تحت تأثير الهوى والشهوة. وقيل: معنى كونه ضعيفاً، أي بالنسبة إلى خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والجبال ونحو ذلك. ومعنى: ﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ أي وكلفناهم بالأمر والنهي كيلاً يجاوزوا حدود الله، كما يشد الأسير بالقيد لئلا يهرب [١].

قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [٣].

كيف وعد على اجتناب الكبائر بهذا الأجر العظيم، مع أن الاجتناب وحده لا يكفي مطلقاً؟ وكيف التوفيق بين الآيتين: والأولى تدل على أن اجتناب الكبائر يمحو الصغائر، والثانية تدل على أن الكتاب قد أحصى الصغائر والكبائر.

---

(١) فتح الرحمن وتفسير الخازن: ١/ ٣٤٠، ٣/ ١٥، ومجمع البيان: ٢٩/ ١٥٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

والجواب عن الأول: إن المخاطب بهذه الآية هم: المؤمنون؛ لأن اجتناب الكبائر لا يكون متحققاً مع وجود الكفر. وتقدير الكلام: إن تجتنبوا - أيها المؤمنون - كبائر ما تنهون عنه، وتفعلوا الطاعات: نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم، فالتكفير ليس مرتباً على الاجتناب وحده.

والجواب عن الثاني: إن المراد بالمجرم: الكافر، وهو محاسب على الصغائر والكبائر، وإن فرضنا أن المراد بالمجرم، كل مذنب مطلقاً. فيجوز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة، ثم تكفر عنه، فيعلم قدر نعمة العفو، فإن أكثر ذنوب العبد ينساها، خصوصاً الصغائر [١].

قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [٢].

وقال عن شأنه ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [٣].

في الآية الأولى دلالة عن أن الرسل يشهدون على أممهم، وفي الآية الثانية: لما سئلوا عما أجابتهم به أممهم، قالوا: لا علم لنا، فكيف يشهدون على ما لا علم لهم به؟

والجواب: إن الله عز وجل، يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وهو نبيها، وهؤلاء الرسل: يشهدون على أممهم بمقتضى علمهم بهم. ولكن

---

(١) مسائل الرازي، ص٢٠٢، والفتوحات الإلهية: ١/ ٣٧٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

لما كان علم الرسل بأممهم إنما يتناول ظاهر أحوالهم. وعلم الله المحيط: يشمل السر وأخفى، تحرزوا في الإجابة وقالوا: لا علم لنا، وكأنهم قالوا: ما المسؤول عن ذلك بأعلم من السائل. ويدل على ذلك تعليلهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ والمعنى: لا علم لنا بحقيقة ما أجابونا به، أو: لا علم لنا إلا ما علمتنا، أو: لا علم لنا إلى جنب علمك فحذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل: إنهم قالوا ذلك لما اعتراهم من فرط الدهشة، وبالغ الحيرة، من شدة هول يوم القيامة، حين تطيش العقول من زفرة جهنم – نعوذ بالله منها – ومثل ذلك: لا يفيد منه نفي العلم ولا إثباته، ثم إذا ثابت إليهم عقولهم، وأونس رشدهم: يشهدون على أممهم بالتبليغ.

حقاً، إن الفزع في هذا اليوم كبير، والهول شديد، والموقف خطير، حتى الأنبياء أنفسهم يقول الواحد منهم: نفسي نفسي. ولكن: ليس إلى هذا الحد، ولا إلى تلك الدرجة بالنسبة إلى الأنبياء، وكيف ذلك؟ وقد قال الله تعالى في حقهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ (١). وقال: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢). فهل يتناسب مع هذه البشارة ذهاب العقول؟ وما فائدة البشارة إذن؟ وأيضاً الأهوال التي تنزع القلوب، وتعطل العقول، تمنع من الإجابة مطلقاً كما أنهم والحال أنهم لا يعون سؤالاً ولا يفهمون جواباً، لا يليق بجناب الله عز وجل توجيه السؤال إليهم.

ولا يقال: إن المراد بالفزع الأكبر: هو دخول النار؛ لأن ذلك إنما يحدث

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٢، ٢٧٧، وسورة يونس، الآية: ٦٢.

يوم العرض والحساب، ولا يقال: إن قوله: ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ إنما هو كالبشارة بالنجاة من أهوال ذلك اليوم: كما يقال للمريض: لا بأس عليك، ولا خوف عليك. لأنهم إذا بشروا بذلك: فقد أمنوا من أن تكون حالهم هكذا.

وقيل: إنهم قالوا ذلك تعريضاً بالتشكي من قومهم، وتحقيقاً لفضيحتهم وتفويضاً والتجاء إلى الله تعالى، في الانتقام منهم، وإظهاراً للعجز وعدم القدرة؛ خاصة وأنهم علموا: أن السؤال سؤال توبيخ، فإن تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك، فالرسل لما علموا أن قولهم لا يجلب خيراً ولا يدفع شراً، فرأوا أن الأدب في السكوت، وفي تفويض الأمر إلى الله تعالى، وعدله، فقالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ ، والمعنى: أنت أعلم بما أجابونا به من التصديق والتكذيب، وبكل أحوالهم معنا. ولا تحتاج في ذلك إلى شهادتنا.

وقيل المعنى: لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا، لأنا كنا نعلم ما كان من أفعالهم وأقوالهم وقت حياتنا، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا، وهذا كما قال عيسى – عليه السلام: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[(١)].

ومنه ما روي عن أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: **«ليردني على الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا دفعوا إلي اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب أصحابي فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»** زاد في

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

رواية: فأقول: «**سحقاً لمن بدل بعدي**»[(١)].

وقيل المعنى: لا علم لنا بوجه الحكمة من سؤالك إيانا عن أمر أنت أعلم به منا، وهذا ليس بشيء[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾[(٣)].

وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[(٤)].

وقال عز شأنه: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[(٥)].

وقال عز من قائل: ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[(٦)].

في الآية الأولى والأخيرة دلالة على أن الكفار يشهدون على أنفسهم بالكفر ولا يكتمون الله حديثاً، وفي الآية الثانية، دلالة على أنهم أبطنوا الكفر، وأقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم ما كانوا مشركين في الدنيا، فما سبيل الجمع بينهما؟

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٨٨.

(٢) مسائل الرازي، ص٧٨، والخازن: ١/ ٤٩٧، ومجمع البيان: ٧/ ٢٣٠، وفتح القدير: ٢/ ٩٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٥) سورة المرسلات، الآية: ٣٥.

(٦) سورة الأنعام، من الآية: ١٣٠. سورة الأعراف، من الآية: ٣٧.

وفي الآية الثالثة: دلالة على أن الكفار لا ينطقون، وفي الآيات سواها دلالة على أنهم ينطقون، فكيف التوفيق بينها؟

كما أن الله – عز وجل – يكشف الغطاء في هذا اليوم، ويعرف الله جل جلاله قسراً وإلجاء فما وجه كذب الكفار؟

والجواب عن الأول: إن يوم القيامة طويل، فيه مواقف مختلفة وأحوال شتى ففي بعضها يختصمون ويجحدون ويحلفون وهم الكاذبون. وفي بعضها يقرون بالحقيقة، ويشهدون على أنفسهم بالكفر.

وقيل: إن مرادهم بقولهم: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [(١)] . أي: عند أنفسنا، وفي اعتقادنا وتقديرنا. وذلك أن المشركين كانوا في الدنيا يعتقدون كونهم مصيبين، فيحلفون على هذا في الآخرة، وعليه. يكون قولهم وحلفهم، وقد وقعا على وجه الصدق، ولكن هذا القول، لا يوافق قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [(٢)] . أي ينفي الشرك عنها. وحمله على كذبهم في الدنيا تعسف يخل بالنظم الكريم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [(٣)] .

والله عز وجل يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن تلك الحالة أخرى، ليدل على مدى الأهوال التي تلحقهم، والزلازل التي تحيط بهم، والفزع الذي ينتابهم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٤.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٨.

والجواب عن الثاني: إن المراد من قوله تعالى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أنهم لا ينطقون بما يستحق، فإن النطق بما لا ينفع كلا نطق، والمبتلى يوم القيامة ينطق بما يضره، وبما يتوقع نفعه؛ لعدم التمييز بسبب الحيرة والدهشة، كحال المبتلى المعذب في الدنيا، يكذب على نفسه وعلى غيره، ويتكلم بما يضره، وهكذا حال هؤلاء يوم القيامة، ألا تراهم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ ﴾ [1]. وقد أيقنوا بالخلود فيها، ويقولون: ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [2]. وقد علموا أنه: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [3].

وقيل: إن عدم النطق يكون وقت دخولهم النار، وذلك أن الخلق يختصمون، ويدعى المظلومون، فإذا وقع القصاص، وثبت الحكم بدخولهم النار، قيل لهم: لا تختصموا، ولا تنطقوا، ولا تعتذروا. فليس ذلك بمغن عنكم، ولا نافع لكم. فيخسؤون فيها، وحينئذ لا ينطقون؛ لأن مواقف الحساب والسؤال قد انقضت [4] قال تعالى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥ ﴾ [5].

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٦.

(٤) مسائل الرازي، ص٨٣، ومجمع البيان: ٧/ ٣١، وتفسير البيضاوي: ١/ ٣٠٦، ٢/ ٥٣١ ومشكل القرآن، ص٦٦ وفتح القدير، ٥/ ٣٦٠، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٥٨٨.

(٥) سورة النمل، الآية: ٨٥.

والجواب عن الثالث: إن الكفار لجهلهم بالله – سبحانه – وعدم علمهم بما يجب له، يظنون أن الله يخفى عليه – سبحانه – ما في سرائرهم وما كانوا يعتقدونه في الدنيا، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (١).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝ ﴾ (٢).

هددهم بطمس الوجوه أو اللعنة، إن لم يؤمنوا، ولم يؤمنوا، فكيف لم يفعل بهم ذلك؟

والجواب: إن هذا مشروط بعدم الإيمان، وقد آمن بعضهم، فرفع عن الباقين.

وقيل إن الله جعل الوعيد بأحد الشيئين. إما بالطمس أو: باللعنة وهي الطرد والإبعاد. ولكن اللعنة لأصحاب السبت كانت بجعلهم قردة. فيرجع الأمر إلى نفس السؤال. والله – عز وجل – قد توعدهم بطمس الوجوه، وردها على أدبارها، أو لعنهم كما لعن أصحاب السبت. ولم يبين متى يحدث ذلك هل في الدنيا أو في الآخرة، ولكن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (٣) يخصص حدوث ذلك بالآخرة (٤).

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٤) تفسير الخازن: ١/ ٣٦٠.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [١].

وقال عز من قائل: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [٢].

وقال جل ثناؤه: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ [٣].

في الآية الأولى: قيد مغفرته لما دون الشرك بمشيئته، وفي الآية الثانية أخبر بغفران الذنوب جميعاً، فكيف التوفيق؟

وفي الآية الأولى أيضاً قوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ يوهم الميل والمحاباة وهما غير جائزين على الله سبحانه فكيف ذلك؟

وفي الآية الثانية: بين أن المسرفين ليس لهم أن يقنطوا من رحمة الله، وفي الآية الثالثة ذكر أن المسرفين هم أصحاب النار، فكيف التوفيق؟

والجواب عن الأول: إن المطلق يحمل على المقيد، وعليه فالآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ مقيدة بما دون الشرك، لنص الآية الأولى، ومقيدة أيضاً بالتوبة، لقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [٤] وللأمر بالتوبة في آيات كثيرة.

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٣) سورة غافر، الآية: ٤٣.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٤.

فالذنوب غير الشرك. إذا تاب الإنسان منها فلا خلاف في غفرانها، وأما إذا لم يتب منها حتى مات، فمرده إلى مشيئة الله تعالى إن شاء تفضل عليه وعامله برحمته فغفر له. وإن شاء عامله بعدله ولم يغفر له، وعاقبه بقدر ذنوبه، ثم يدخله الجنة برحمته.

وهذه الآية نزلت في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام: كالشرك وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ وكأنه نبههم على أنه لا يجوز أن يعتقد العاصي مهما ارتكب من الذنوب، أنه لا مخلص له من العقاب، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله.

والجواب عن الثاني: إن الله عز وجل هو المالك لعبيده، والمتصرف فيهم كيفما شاء، وهو المتفضل عليهم بالغفران. وللمتفضل أن يخص بفضله قوماً دون قوم، وفرداً دون آخر. وهو عادل في تعذيب من يعذبه، ولا مانع عقلاً ولا شرعاً من الفضل والعدل.

والجواب عن الثالث: إن الإسراف يكون بالكفر، ويكون بارتكاب باقي المعاصي دون الكفر، فآية: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ المراد بالإسراف فيها: الكفر، أو: أنهم أصحاب النار إذا لم يتوبوا.

وآية: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ . المراد بالإسراف فيها باقي المعاصي دون الكفر أو المسرفون الذين تابوا [(١)] .

(١) تفسير الخازن: ٤/ ٥٩، ودفع إيهام الاضطراب، ص٢٥٢. ومسائل الرازي، ص٤٧.

وقيل: إن إخبار الله تعالى لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً، يدل على أنه يشاء غفرانها جميعاً، وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين [(١)] .

واستدل صاحب هذا القول: بأنه لو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة، لم يكن لها كبير موقع، فإن التوبة من الشرك: يغفر الله بها كل ما فعله المشرك أثناء شركه – بإجماع المسلمين – وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [(٢)] .

كما أورد على سبب النزول: أن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم، لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم. وهذا القول مردود بما يلي:

أن قوله: «لو كانت هذه البشارة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كبير موقع، ليس كذلك بل لها كبير موقع، وهو قوة الرجاء في غفران تلك الذنوب، فإن العقل لا يسوى بين من لم يقترف أصلاً مثل هذه الذنوب، ومن اقترفها، ثم دخلوا جميعاً في الإسلام».

وأيضاً فيها فائدة للمسلم الذي لم يتب، وهي دخوله تحت المشيئة. ولو قلنا: إنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين، ما كان لوجوب التوبة على

(١) فتح القدير: ٤/ ٤٧٠.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٦.

المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[١]. وقوله: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٢]. أي معنى.

وقوله: لو كانت التوبة قيداً في المغفرة، لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، مردود بأن الفائدة هي: أن من لم يتب من الشرك، فقد انقطع أمله، وخاب رجاؤه في المغفرة. أما من لم يتب من غير الشرك، فأمله موجود ورجاؤه باق. ولو لم تكن التوبة قيداً في المغفرة، لما كان لقوله تعالى: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فائدة. إذ أن قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ يدل على أنه يغفر ما دون الشرك، وإذا كان كذلك، فما معنى (لمن يشاء)؟

ولو كان المراد كما زعم ما عقب الله تعالى على هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ بالحث على التوبة، والأمر بالإنابة في قوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

فالتوبة واجبة على الجميع، وخوف العقاب مطلوب، والأمل في الرجاء مرغوب. ولو كان الأمر – كما توهم – لكان في ذلك إغراء بالمعصية، وإطلاق في الإقدام عليها، وطمع لمرضى القلوب، وأمان مطلق وهذا مما لم يقل به أحد.

وأما قوله: بأن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم، لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

فهو وإن لم يكن محل اتفاق إذ بعض العلماء يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ – فلا علاقة له بهذه القضية. إذ سبب النزول يتناول أناساً فعلوا الكبائر، وأرادوا الدخول في الإسلام، وخافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوه قبل. فأخبروا بأن الإسلام يجب ما قبله، وأن الله يغفر الذنوب جميعاً، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهؤلاء قد تابوا من أكبر الكبائر.

وقضيتنا في المسلم الذي رضي بالله ربّاً والإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، هل يجوز له أن يرتكب الذنوب، ويصر عليها معتمداً على ما يدل عليه ظاهر هذه الآية؟ كلا، إنه يجب عليه إذا فعل فاحشة، أو ظلم نفسه أن يذكر الله، ويستغفر من ذنبه، ولا يصر على فعله، حتى يكون جزاؤه المغفرة والرضوان.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [1].

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [2].

وقال سبحانه على لسان يوسف – عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [3].

وقال ﷺ: «**والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض**» [4].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٩.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٧٤.

في الآيات السابقة: نهى المولى - عز وجل - عن تزكية النفوس، وقول النبي ﷺ وقول نبي الله يوسف - عليه السلام - يوهم ظاهره تزكية النفس، فكيف الجمع بين هذه النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض؟

والجواب: إن تزكية النفس المنهي عنها: ما كان على سبيل الجزم والقطع فيما يتعلق بأمر الآخرة، إذ هو حكم على ما لا يعلمه إلا الله تعالى كذلك ما يتعلق بأمر دنيوي يقصد منه الفخر والإعجاب.

وقد أخر يوسف - عليه السلام - عن هذه الخلافة سنة، إذ يقول الرسول ﷺ: «**رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض**» لاستعمله من ساعته ولكنه أخر سنة، على الرغم من أنه ما قال ذلك لمأرب شخصي، ولا لغرض دنيوي، وإنما بغية إقامة العدل، وبسط سلطان الحق، وإمضاء أحكام الله تعالى؛ وكل ذلك من وظائف الأنبياء فلا أحد في عصر النبي أقدر ولا أقوم ولا أعدل منه.

ولما كان في هذا الطلب، والثناء على النفس: ما يشعر بالتزكية، كان ما كان على سبيل عتاب الحبيب للحبيب.

وأما قول النبي ﷺ ذلك فقد كان رداً على قول المنافقين، اعدل في القسمة. حيث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والأمانة، ولم يكن يقصد الفخر والإعجاب، وشبيه به قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» (١).

قال الله تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٦.

يقال: إذا كان الله – عز وجل – قادراً على إبقاء الجلود مصونة عن الاحتراق مع إدراك العذاب لهم، فلم هذا التبديل؟

والجواب: إن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق، ولا تستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة من التألم والعذاب مع صيانة بدنها عن الاحتراق، فكان التبديل لرفع هذا الوهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[(١)].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[(٢)].

ما سبيل الجمع بين الآيتين، ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النساء؟

والجواب: إن كيد الشيطان ضعيف في جانب نصرة الله المؤمنين، وحفظه لأوليائه المخلصين من عباده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[(٣)]. وقال عز شأنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[(٤)]. وقال حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[(٥)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.

(٤) سورة النحل، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٥) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

وكيد النساء عظيم بالنسبة للرجال، خاصة فيما يتعلق بأمر الشهوة والجماع: لا على الإطلاق. فالنساء لهن - في هذا الباب - من المكر والحيل والخداع ما لا يكون للرجال، إذ كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيراً في النفس. والرجال أعظم منهن - في غير هذا الباب - حيلة ومكراً.

وقيل: إن كيد النسوان عظيم؛ لأنهن يواجهن به الرجال، والشيطان يوسوس به مسارقة.

وهذا غير مسلم به، فالمواجهة أخف من المسارقة، إذ الأخيرة تنال من صاحبها من حيث لا يعلم ولا يشعر، أما الأولى: فيمكن أن يحتاط منها، ويعد لها العدة.

وقيل: القائل: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. هو: عزيز مصر، لا الله تعالى وذلك أنه لما ثبتت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف - عليه السلام - قال هذه المقالة. فلا تناقض.

وقيل: إنما وصف كيد الشيطان بهذا، لضعف دواعي أولياء الشيطان إلى القتال، إذ لا بصيرة لهم، وإنما يقاتلون بما تدعو إليه الشبهة والمؤمنون يقاتلون بما تدعو إليه الحجة [(١)].

قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ

(١) الفتوحات الإلهية: ٢/ ٤٤٨، وتفسير الخازن: ٣/ ١٥، ومسائل الرازي، ص٥٠، ومجمع البيان: ٥/ ١٦٢.

هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (١).

كيف عاب على الكفار قولهم، ثم تحدث بظاهر قولهم المردود؟

ويقال: إن الشرك والمعصية بإرادة الله، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ فكيف التوفيق؟

والجواب عن الأول: إن المعنى ما أصابك – أيها الإنسان – من حسنة أي: رخاء ونعمة، فمن فضل الله. وما أصابك من سيئة، أي: قحط وشدة، فبشؤم فعلك ومعصيتك، لا بشؤم محمد ﷺ كما زعم الكفار. ويؤيده قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢).

فما عابه على الكفار هو: إسناد الشر إلى النبي ﷺ وما أخبر به هو: إثبات أن الشر بشؤم فعل الشخص لا بشؤم غيره.

وقيل: إن الآية الثانية متصلة بما قبلها حكاية لقولهم أيضاً وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ويقولون: ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك؛ قل كل من عند الله.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

ولكن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

والجواب عن الثاني: إنه ليس المراد بالحسنة والسيئة: الطاعة والمعصية، بل القحط والرخاء، والنصر والهزيمة، ألا ترى أنه قال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ ﴾ ولم يقل: ما عملت من سيئة؟

وعلى أن المراد بالحسنة والسيئة: الطاعة والمعصية، فإضافة الأشياء كلها إلى الله تعالى في قوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ على الحقيقة؛ لأن الله تعالى هو خالقها وموجدها. وإضافة السيئة إلى فعل العبد على المجاز، والتقدير: وما أصابك من سيئة فمن الله بذنب نفسك عقوبة لك أو: أن إضافة السيئة إلى فعل العبد على سبيل الأدب كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [(٢)].

التقييد بوصف الكثرة يدل من حيث المفهوم على أن في القرآن اختلافاً قليلاً، مع أنه لا اختلاف فيه أصلاً، فكيف ذلك؟

وأيضاً يدل عدم الاختلاف الكثير في القرآن على أنه من عند الله، إذن كل كتاب من عند غير الله فيه اختلاف كثير، فكيف ذلك والواقع بخلافه؟ لأن المراد من الاختلاف: إما الكذب والتباين في نظمه، وإما التناقض في معانيه، أو التفاوت بين بعضه والبعض الآخر من الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٠. ومسائل الرازي، / ٥١ والخازن: ١/ ٣٧٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

والجواب عن الأول: إن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة في إثبات الملازمة، فكأنه قال: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فضلاً عن القليل، لكنه من عند الله، فليس فيه اختلاف كثير ولا قليل، فكيف يكون من عند غير الله؟

فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة؛ لا أن القرآن مشتمل على اختلاف قليل.

والجواب عن الثاني: إن كل كتاب في فن من العلوم، إذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة، ويعرف ذلك بالاستقراء.

والقرآن جامع لفنون من علوم شتى، فلو كان من عند غير الله، لوجد فيه بالنسبة إلى كل فن اختلاف ما، فيصير مجموع الاختلاف اختلافاً كثيراً [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [(٢)].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [(٣)].

وقال عز وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ

---

(١) مسائل الرازي، ص٥٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٣) سورة النساء، من الآيتان: (٦٨، ١١٦).

وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [(١)].

وقال جل ثناؤه: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [(٢)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [(٣)].

في الآية الأولى: دلالة على أن قاتل المؤمن عمداً لا توبة له، وأنه مخلد في النار، وفي الآيات الأخرى: دلالة على أن له توبة، فكيف يقال: إن أهل الكبائر لا يخلدون في النار؟ وكيف الجمع بين هذه الآيات؟

والجواب: إن قوله تعالى: ﴿ فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ معناه: أن هذا جزاؤه إذا كان مستحلاً لقتل المؤمن عمداً؛ لأن مستحل ذلك كافر، بدليل النصوص المصرحة بأن جميع المؤمنين: لا يخلد أحد منهم في النار.

وقيل: إن المعنى: فجزاؤه إن جوزي مع إمكان أن لا يجازى إذا تاب، أو كان له عمل صالح يرجح على عمله السيئ.

وقيل: إن الآية للتغليظ في الزجر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [(٤)]. على القول بأن معناه: ومن لم يحج [(٥)].

---

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٦٨ – ٧١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٨٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٥) مسائل الرازي / ٥٤، ودفع إيهام الاضطراب / ٨٧.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾[1] .

كيف أخبر أن فضل الجاهدين على القاعدين درجة واحدة، ثم بين أنه فضل الجاهدين على القاعدين درجات عدة؟

والجواب: إن القاعدين عن الجهاد؛ إما أن يكون تخلفهم لعذر؛ وهؤلاء مع الجاهدين بالنية الحسنة، وهم الذين فضل الله الجاهدين عليهم درجة واحدة، ويشهد لهذا قوله عقب ذكرهم: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ .

وإما أن يكون القعود بدون عذر طلباً للفتنة، أو بغية الركون إلى شهوات الدنيا؛ وهؤلاء هم الذين فضل الله الجاهدين عليهم درجات عدة، لتقاعسهم وتقصيرهم.

وقيل: أراد بالدرجة الأولى: علو المنزلة، وبالثانية الدرجات في الجنة، التي يتفاضل بها المؤمنون بعضهم على بعض على قدر استحقاقهم.

وجاء في الحديث: إن الله فضل الجاهدين على القاعدين سبعين درجة بين كل درجتين مسيرة سبعين خريفاً للفرس الجواد المضمر.

---

(١) سورة النساء، الآيتان: ٩٥، ٩٦.

وقيل: القاعدون الأول هم: الأضراء، والآخرون: هم الذين أذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم.

وقيل: المجاهدون الأولون: من جاهد الكفار، والآخرون: من جاهد نفسه، وعليه قوله ﷺ رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [(٢)].

الظاهر من سؤال الملائكة، أن يكون جواب المستضعفين، كنا في كذا، أو لم نكن في شيء، فكيف طابق الجواب السؤال؟

والجواب: إن سؤال الملائكة ليس على حقيقته، بل مرادهم: التوبيخ للمستضعفين بأنهم لم يكونوا في شيء من الدين، حيث قدروا على الهجرة ولم يهاجروا، فقولهم: ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ مجاز عن قولهم لم تركتم الهجرة؟ فقالوا: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾ . اعتذاراً عما وبخوا به تعللاً، أي: كنا مقهورين في أرض مكة لا نستطيع أن نذكر الإيمان فردت الملائكة عليهم بقولهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ ﴾ يعني: أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عليكم، كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد القريبة منكم التي تقدرون فيها على إظهار دين الإسلام.

---

(١) مسائل الرازي / ٥٥، ومجمع البيان المجلد الثاني، ٥/ ٢٠٤، وتفسير للبيضاوي: ١/ ٢٣٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

وقيل: معنى السؤال: في أي حالة كنتم؟ بدليل الجواب، أي: في حالة قوة أو ضعف [١].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [٢].

قصر الصلاة في السفر جائز مع الأمن، فكيف شرط خوف العدو؟

والجواب: إن ذلك خرج مخرج الغالب لا مخرج الشرط. والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب، أو على حادثة، فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [٣]. وكقوله تعالى: ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [٤]. وكقوله عز وجل: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [٥].

وغالباً أسفار النبي ﷺ وأصحابه، لم تخل من خوف العدو؛ فصار نظير ما ذكر.

وقيل: إن الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾. وقوله: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ ﴾ كلام مستأنف وجوابه محذوف تقديره: فاحتاطوا أو تأهبوا.

---

(١) مسائل الرازي / ٥٥ والفتوحات ١/ ٤١٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠١.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٥) سورة النور، الآية: ٣٣.

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية إنما هي مبيحة للقصر في السفر للخائف من العدو، فمن كان آمناً فلا قصر له، وهذا خلاف ما عليه الجمهور من العلماء.

وذهب البعض إلى أنه ليس المراد بالقصر هنا: القصر من عدد الركعات. وإنما المراد: القصر من شروطها، وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة، واستقبال القبلة، وهذا توجيه جيد [(١)] ، ولكنه مندرج تحت ما عليه جمهور العلماء.

قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [(٢)] .

كيف التوفيق بين هذه الآية، وبين ما هو معلوم من أن التائب غير مجزي بعمله السيئ الذي تاب منه، وكذلك من عمل سيئة ثم أتبعها حسنة؛ لأنها مذهبة وماحية لها بنص القرآن والسنة؟

والجواب: إن المراد من يعمل سوءاً، ويمت مصراً عليه، يجز به؛ فإن تاب منه لم يجز به.

وقيل: إن المؤمن يجازى في الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب، كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما في رواية أبي صالح لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة، وقالوا يا رسول الله: وأينا لم يعمل سوءاً غيرك. فكيف الجزاء؟

---

(١) مسائل الرازي، ٥٥، ٥٦، وفتح القدير: ١/ ٥٠٧، وتفسير ابن كثير: ١/ ٤٢٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

قال: منه ما يكون في الدنيا، فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات. ومن جوزي بالسيئة: نقصت واحدة من عشر حسناته، وبقيت له تسع حسنات، فويل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه في الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة، وينظر في الفصل فيعطي الجزاء في الجنة، «فيؤتى كل ذي فضل فضله».

ويدل على صحة هذا القول: ما روي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: لما نزلت هذه الآية بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: **«قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها»** (١).

وقيل: المراد بالسوء: الشرك، والمعنى: من عمل سوءاً يعني شركاً فمات عليه يجز به النار.

وقال الحسن: هذا في حق الكفار خاصة؛ لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير، ولا يجزى المؤمن بسيئ عمله يوم القيامة، ولكن يجزى بأحسن ويتجاوز عن سيئاته، ويدل على صحة هذا القول قوله: ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ فهذا يليق بالكافر دون المؤمن (٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٠١.

(٢) مسائل الرازي: ٥٩، والخازن: ١/ ٣٩٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

وقال عز شأنه: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١).

في الآية الأولى: دلالة على أن من جالس الخائضين في آيات الله بالاستهزاء والتكذيب فهو مثلهم في الإثم.

وفي الآية الثانية: إشارة إلى أنه لا إثم على من جالسهم، فكيف الجمع بينهما؟

والجواب: إن معنى قوله: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ أي: وما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء. ومعنى: ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾. أي: أنهم إذا اجتنبوا مجالسهم سلموا من الإثم، ولكن الأمر باتقاء مجالستهم عند الخوض في الآيات، لا يسقط وجوب تذكيرهم ووعظهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، لعلهم يتقون الله بسبب ذلك.

أو: أن المعنى وما على الذين يتقون ما يقع من الكفار من الخوض في آيات الله في مجالستهم لهم من شيء.

وعلى هذا القول: فهذا الترخيص في مجالسة الكفار للمتقين من المؤمنين: كان في أول الإسلام للضرورة، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٦٨، ٦٩.

﴿مِّثْلُهُمْ﴾ ويكون معنى قوله: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أن الترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير لعلهم يتقون الخوض في آيات الله بالباطل إذا وقعت منكم الذكرى لهم.

وقيل: إن الضميرين للمتقين، ولا يخفى بعده؛ لصرف اللفظ عن ظاهره، ولأنه يحتاج إلى تأويل، وما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إليه.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية الأولى تؤكد: أن العزة لله تعالى وحده، والآية الثانية تدل على أن الرسول ﷺ والمؤمنون لهم منها نصيب، فكيف التوفيق بينهما؟

والجواب: إن القدرة الكاملة لله؛ وكل من سواه بإقداره صار قادراً، وبإعزازه صار عزيزاً، فالعزة الحاصلة للرسول ﷺ وللمؤمنين، لم تحصل إلا من الله تعالى فكان الأمر عند التحقيق أن العزة لله جميعاً (٢).

قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (٣).

المتبادر إلى الأذهان – الآن – كيف نوفق بين هذه الآية وبين ما نراه الآن من أحوال المسلمين؟

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٩.

(٢) أضواء على متشابهات القرآن: ١/ ١٧٧ بتصرف.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤١.

والجواب: إن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً ما دام المؤمنون مؤمنين بالله حقاً، مطيعين لله ولرسوله صدقاً، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر. أما إذا رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، وتركوا الحق مكتفين بالباطل، فالذلة قائمة، والسبيل موجود.

ويوم أن كانت الأمة الإسلامية قائمة على عهد ربها، متمسكة بسنة نبيها، يوم أن دان لهم الخلق، ومكنهم الله في الأرض، وما تقهقر المسلمون عن أرضهم، وما تنازلوا عن عزتهم ومجدهم، وما رضوا بما هم عليه الآن، إلا بعد أن قطعوا صلتهم بالله - عز وجل - وتمردوا على منهج نبيهم ﷺ، وراحوا يطلبون العزة ممن لا يملكها، وقد وبخهم القرآن العزيز على ذلك حيث قال: ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومن ابتغى الهدى في غير القرآن أضله الله تعالى.

وقيل: إن المعنى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً شرعاً فإن وجد فبخلاف الشرع.

وقيل: المعنى لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً يستبيح به بيضتهم. ويمحو به دولتهم، ويذهب آثارهم. كما يفيده الحديث الثابت في الصحيح: «**وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٣٨.

وقيل: المراد بالسبيل: الحجة والبرهان. والمؤمنون غالبون بالحجة والبرهان دائماً. وقيل المراد بالسبيل: النصر والغلب. ولكن ذلك يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ فآخر الكلام يرجع إلى أوله. فقد أخرج البيهقي في الشعب والحاكم وصححه عن علي – رضي الله عنه – أنه قيل له: أرأيت هذه الآية: ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون، فقال: أدنه أدنه ثم قال: ﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2].

وقال جلت حكمته: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾[3].

في الآيـة الأولى دلالة على أن عذاب المنافقين متيقن الوقوع، فكيف علق عذابهم بمشيئته في الآية الثانية؟

والجواب: إن الآية الثانية نزلت قبل الآية الأولى، ومعنى الآية الثانية: إن شاء عذابهم وقد شاء، أو: إن شاء موتهم على النفاق، ثم أخبرنا الله عز وجل بمصير هؤلاء المنافقين الذين علم من حالهم أنهم سيموتون على الكفر فقال: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[4][5].

---

(١) مسائل الرازي: ٦٠، وفتح القدير: ٢/ ٥٢٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٥) مخطوطة فتح الرحمن بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢).

وقال جلت حكمته: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (٣).

يستحيل أن يكون لأحد على الله - عز وجل - حجة في فعل من أفعاله، بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء، فكيف يكون للناس حجة على الله قبل الرسل؟ وهم محجوجون بما نصبه لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته؟ كما أنه يفهم من الآية الأولى والثانية ونظائرهما، أن الله تعالى لا يعذب أحداً من خلقه حتى ينذره على ألسنة رسله، ويفهم من الآية الثالثة ونظائرها: أن أهل الفترة في النار، فكيف الجمع؟

والجواب عن الأول: إن الرسل والكتب منبهة من الغفلة، وباعثة على النظر في أدلة العقل، ومفصلة لمجمل شؤون الدنيا، ومبينة لأحوال التكاليف التي لا يستقل العقل بمعرفتها؛ فكأن إرسالها إزاحة للعلة، وقطعاً للمعذرة، وتتميماً لإلزام الحجة، لئلا يقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا إلى ما يجب الانتباه له، ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ (٤).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٤) سورة طه، الآية: ١٣٤.

فليست لأحد على الله – سبحانه – حجة وإنما سماها حجة للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه لخلقه، ورحمته بعباده، بمنزلة الحجة القاطعة، والحق الذي لا مرد له، ولذلك قال: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [(١)].

والجواب عن الثاني: إن من لم يأته نذير في دار الدنيا، وكان كافراً حتى مات، اختلف فيه العلماء، هل هو من أهل النار بكفره، أو: معذور لأنه لم يأته نذير؟

فقال قوم: إن الكافر في النار، ولو مات في زمن الفترة، لدلالة الأحاديث على تعذيب بعض أهل الفترة وأجابوا عن قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وأمثالها من الآيات بثلاثة أوجه:

الأول: إن التعذيب المنفي في قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وما يشبهها هو: التعذيب الدنيوي، فلا ينافي ثبوت التعذيب في الآخرة، ورد هذا الوجه بأنه خلاف الظاهر من الآيات الدالة على اعتراف أهل النار بأن الرسل أنذروهم في دار الدنيا كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ ﴾ [(٢)].

الثاني: إن محل العذر بالفترة في غير الواضح الذي لا يلتبس على عاقل، أما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل كعبادة الأوثان، فلا يعذر فيه أحد.

---

(١) مسائل الرازي: ٦١، ٦٢ والفتوحات الإلهية: ١/ ٤٤٩.

(٢) سورة الملك، الآيتان: ٨، ٩.

الثالث: إن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبله ﷺ تقوم عليهم بها الحجة.

وهذا الوجه يرده القرآن في آيات كثيرة مصرحة بنفي أصل النذير عنهم كقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾ (١). وقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (٢).

وقال آخرون: إن أهل الفترة معذورون، وأجابوا عن مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٣ ﴾ (٣). بأنه لا يتبين لهم أنهم من أصحاب الجحيم، ولا يحكم لهم بالنار ولو ماتوا كفاراً، إلا بعد إنذارهم وامتناعهم من الإيمان كأبي طالب.

وأما ما ثبت في الصحيح من دخول بعض أهل الفترة النار كحديث: «**إن أبي وأباك في النار**» فهي أخبار آحاد، يقدم عليها المتواتر كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ، ولو عذب إنسان واحد من غير إنذار، لتطرق الكذب إلى مثل هذه الأخبار، وهو محال على الله – تعالى – ولثبت لذلك المعذب الحجة على الله تعالى التي بعث الله الرسل لقطعها، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (٤).

---

(١) سورة يس، الآية: ٦.

(٢) سورة القصص الآية: ٤٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

ويقول صاحب أضواء البيان: «والذي يظهر رجحانه بالدليل هو الجمع بين الأدلة؛ لأن الجمع واجب إذا أمكن. ووجه الجمع بين هذه الأدلة هو: عذرهم بالفترة، وامتحانهم يوم القيامة باقتحام نار، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل» [١].

وبهذا الجمع: تتفق الأدلة، فيكون أهل الفترة معذورين، وقوم منهم من أهل النار بعد الامتحان، وقوم منهم من أهل الجنة بعده أيضاً. ويحمل كل واحد من القولين على بعض منهم: علم الله مصيرهم، وأعلم به نبيه ﷺ فيزول التعارض. والدليل على هذا الجمع: ورود الأخبار به عنه ﷺ كما روى عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني: كلهم يتكلم بحجته. فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: أبرز، ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه، قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أنى ندخلها ومنها كنا نفر؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعاً. قال: فيقول الله تعالى أنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار**» [٢].

وما احتج به البعض لرد مثل هذا الحديث: من أن الآخرة دار جزاء، لا دار عمل وابتلاء، فهو مردود من جهتين:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٨٩ - ٢٩١.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٨٩.

الأول: أن ذلك لم ترد به النصوص الصحيحة عنه ﷺ ولو سلمنا عموم ما قال: من أن الآخرة ليست دار عمل، لكانت الأحاديث المذكورة مخصصة لذلك العموم.

الثاني: أنا لا نسلم انتفاء الامتحان في عرصات الحشر، بل نقول: دل القاطع عليه؛ لأن الله تعالى صرح في سورة القلم بأنهم يدعون إلى السجود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [1]. ومعلوم أن أمرهم بالسجود تكليف في عرصات الحشر. وثبت في الصحيح: أن المؤمنين يسجدون يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك، ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة، طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خر قفاه[2]. وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه. أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى يا ابن آدم ما أغدرك! ثم يأذن له في دخول الجنة ومعلوم أن تلك العهود والمواثيق: تكليف في عرصات الحشر [3].

***

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٧/ ٩٠.

(٣) دفع إيهام الاضطراب: ١٧٨. وتفسير ابن كثير: ٥/ ١٥.

سورة المائدة

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١).

نزلت هذه الآية كما ذكر المفسرون في حجة الوداع، أي: في العام التاسع للهجرة، يعني: قرب وفاة النبي ﷺ فهل كان الدين ناقصاً قبل ذلك حتى أتمه في ذلك اليوم؟ وهل الذين ماتوا قبل نزول هذه الآية، ماتوا ناقصي الإيمان؟ كما أن ظاهر هذه الآية يوحي بأنه تعالى لم يرض لهم الإسلام ديناً قبل نزولها، فكيف ذلك؟

والجواب عن الأول: إن دين الله تعالى ما كان ناقصاً أبداً، وإنما كان كاملاً في كل حال، إلا أنه سبحانه كان عالماً في أول وقت البعث بأن ما هو كامل في اليوم ليس بكامل في الغد، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت، ويزيد بعد النقصان.

وأما في آخر الزمان: فأنزل شريعة كاملة، وحكم ببقائها وصلاحها إلى يوم القيامة، فلم يمتنع أن توصف بالكمال، إذ أمن النسخ والزيادة.

فالشرع: كان أبداً قائماً كاملاً، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص، والثاني: كمال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا يشبه قول القائل: إن شرع محمد ﷺ أكمل من شرع موسى

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

وعيسى - عليهما السلام - لاشتماله على ما لم يقع في الكتب السابقة من الأحكام، ومع هذا فشرع موسى - عليه السلام - كان كاملاً في زمانه، وتجدد في شرع عيسى - عليه السلام - بعده ما تجدد. فالأكملية أمر نسبي، والنقص أمر نسبي. وهذا أيضاً كما تصف العشرة بأنها كاملة، ولا يلزم أن توصف بالنقصان لما كانت المائة أكثر منها وأكمل[١].

والجواب عن الثاني: إن الذين ماتوا قبل تمام الدين، لم يكونوا ناقصي الإيمان؛ لأن الإيمان وقت وجودهم كان تاماً كاملاً، والنقص بالنسبة لهم بعد تمام الدين: صوري نسبي، ولهم فيه رتبة الكمال من حيث المعنى، إذ النقص أمر نسبي كما تقرر لكن منه ما يترتب عليه الذم، ومنه ما لا يترتب عليه: ذم.

فالأول: ما نقصه بالاختيار، كمن علم وظائف الدين، ثم تركها عمداً.

والثاني: ما نقص بغير اختيار، كمن لم يعلم، أو لم يكلف، أو لم يجد من يعلمه، فهذا لا يذم، بل يحمد من جهة أن قلبه كان مطمئناً بالإيمان، وأنه لو زيد له لقبل، ولو كلف بشيء لعمل، وهذا شأن الذين ماتوا قبل تمام الدين[٢].

والجواب عن الثالث إن الإسلام كان ولم يزل ديناً مرضيّاً للنبي ﷺ وأصحابه، عند الله منذ أرسله، وإنما قال تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ يوم نزلت هذه الآية؛ لأنه لم يزل يصرف نبيه ﷺ وعباده المؤمنين من حال إلى حال، وينقلهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها، حتى أكمل لهم شرائع الدين

---

(١) الفتوحات الإلهية: ١/ ٤٦٢، ومجمع البيان: ٦/ ٢٥.

(٢) الفتوحات: ١/ ٤٦٢.

ومعالمه، وبلغ أقصى درجاته ومراتبه ثم قال: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ يعني: بالصفة التي هو اليوم عليها، وهي نهاية الكمال، وأنتم اليوم عليه، فالزموه ولا تفارقوه، أي: أن هذه الجملة ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾. مستأنفة لا معطوفة، واليوم ظرف للجملتين الأوليين لا لهذه الجملة[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ ﴾[(٢)].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾[(٤)].

وقال جل وعلا: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨ ﴾[(٥)].

فالآية الأولى تدل بظاهرها على إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقاً، ولو سموا عليها غير الله، أو سكتوا ولم يسموا الله ولا غيره، لأن الكل داخل في طعامهم، والمراد بطعامهم هنا: ذبائحهم كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره.

---

(١) مسائل الرازي: ٦٣، وتفسير الخازن: ١/ ٤٢٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٨.

والآيتان: الثانية والثالثة تدلان على منع الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، أو مما ذكر اسم غير الله عليه، كالصليب أو عيسى - عليه السلام - أو غير ذلك.

وكيف علق كونهم مؤمنين بالأكل من الذبيحة المسمى عليها، وهم من المؤمنين وإن لم تؤكل الذبيحة أصلاً؟

والجواب عن الأول: إن المسلم إذا ترك التسمية على الذبيحة عمداً لا تؤكل، وإن تركها نسياناً أكلت. ويرى البعض أن ذبيحة المسلم تؤكل ولو ترك التسمية عمداً، أما داود الظاهري فيرى: أن المسلم إذا لم يسم على ذبيحته لا تؤكل مطلقاً، سواء تركها عمداً أم نسياناً.

وطعام أهل الكتاب من غير ذبائحهم كالجبن والخبز، وما شابه ذلك، فهو حلال بلا خلاف.

وأما طعامهم من ذبائحهم فله خمس حالات:

الأولى: أن يعلم أنه سمى الله عليها، وفي هذه تؤكل بلا نزاع، خلافاً للشيعة.

الثانية: أن يعلم أنه أهل بها لغير الله، فالجمهور على التحريم، لما تقرر في الأصول: من أن النهي إذا تعارض مع الإباحة - كما هنا - فالنهي أولى بالتقديم والاعتبار؛ لأن ترك مباح أولى من ارتكاب محرم، وذهب البعض إلى الحل؛ لأن الله أباح ذبائحهم، وهو أعلم بما يقولون.

الثالثة: أن يعلم بأنه جمع بين اسم الله واسم غيره، وظاهر النصوص أنها لا تؤكل أيضاً لدخولها فيما أهل لغير الله به.

الرابعة: أن يعلم أنه سكت، ولم يسم الله ولا غيره، فالجمهور على الإباحة - وهو الحق - والبعض على التحريم.

الخامسة: أن يجهل الأمر لكونه ذبح حالة انفراده، فتؤكل - على ما عليه جمهور العلماء - وهو الحق إن لم يعرف الكتابي بأكل الميتة، كالذي يسل عنق الدجاجة بيده، فإن عرف بأكل الميتة، لم يؤكل ما غاب عليه عند بعض العلماء، ويجوز أكله عند البعض.

وعدم الأكل أولى لظهور عدم تحرز الكتابي من الحرام وإلى أشباهه يشيرو قول النبي ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» [(١)] . وبعد هذا البيان. يظهر جلياً متى تكون الإباحة؟ ومتى يكون الحظر [(٢)] .

والجواب عن الثاني: إن المراد اعتقاد الحل لا نفس الأكل، فإن بعض من كان يعتقد حل الميتة من العرب، كان يعتقد حرمة الذبيحة، والشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ للتهييج والإلهاب بأحكامه من الأوامر والنواهي التي من جملتها. الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، فإن الإيمان بآيات الله، يقتضي استباحة كل ما أحله سبحانه وتعالى، واجتناب ما حرمه[(٣)] .

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٨٢.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: / ١٠٠.

(٣) مسائل الرازي: ٨٨، وفتح القدير: ٢٨٥٦، والبيضاوي: ١/ ٣٢٨.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ ﴾ (١).

كيف نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم، وهم إنما سموا نصارى لقولهم: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ ؟

والجواب: إنهم لما لم يثبتوا على نصرة دين الله، وانقسموا إلى نسطورية ويعقوبية وملكانية، فقد صاروا أنصاراً للشيطان لا لله. فنسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم، إيذاناً بأنهم في قولهم نحن أنصار الله في معزل من الصدق، وأنه محض تقول منهم، وليسوا من أنصار الله في شيء، وإظهاراً لسوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم. فإن ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعي ثباتهم على طاعته - جل وعلا - والحفاظ على ميثاقه (٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ (٣).

وقال عز وجل: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ (٤). وعلى هاتين الآيتين يرد سؤالان:

الأول: كيف يدعون لأنفسهم ما يدعونه لأنبيائهم ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ ﴾ ؟

الثاني: كيف يحتج عليهم بتعذيبهم ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم ﴾ وهم ينكرونه، بل يدعون أن ما يذنبونه بالنهار يغفر بالليل، وبالعكس؟

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٤.

(٢) مسائل الرازي، ص٦٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

والجواب عن الأول: أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما يدعونه لأنبيائهم وإنما أرادوا من ذلك معزتهم عند الله، وحظوتهم لديه، ولهذا قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه، وهم بنوه، وله بهم عناية وهو يحبنا.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ ﴾ : خاصة الله، كما يقال: أبناء الدنيا وأبناء الآخرة.

وقيل: فيه إضمار تقديره: أبناء أنبياء الله.

وأما ادعاؤهم أن أنبياءهم أبناء الله، فقد روي أن طائفة من اليهود وطائفة من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا كلهم، فالألف واللام للعهد لا للجنس، ولا للاستغراق.

أو أنه أطلق اسم الكل وأراد البعض كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ ﴾ (١) . وإنما قال لها جبريل وحده.

وقيل: إن هذا القول كان فاشياً، في اليهود جميعاً، ثم إنه انقطع واندرس، ولم يبق يهودي يقولها، فأخبر الله تعالى به عنهم، وأظهره عليهم.

ولا عبرة لإنكار اليهود ذلك، فإن خبر الله – عز وجل – أصدق وأثبت من إنكارهم. ففي كتابهم، أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

النصارى عن كتابهم: أن عيسى – عليه السلام – قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربي وربكم.

ويدل على أن هذا مذهبهم، أنهم لم ينكروا ذلك لما سمعوا هذه الآية – مع شدة حرصهم على تكذيب الرسول ﷺ [١].

وهذا هو الصحيح. ولعل إنكار اليهود والنصارى لهذه اللفظة حديثاً إنما يرجع إلى ما تنبهوا إليه من استحالة نسبتها إلى الله سبحانه وقد تراجعوا عن أشياء لم تكن محل بحث عند أسلافهم؛ كإباحة الطلاق بعد إجماعهم على تحريمه.

والجواب عن الثاني: إنهم أقروا بأن يعذبهم الله أربعين يوماً وهي مدة عبادتهم العجل في غيبة موسى – عليه السلام – لميقات ربه. ولذلك قالوا: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [٢].

وقيل: المراد بعذاب الاحتجاج: هو ما أوقعه ببعضهم في الدنيا، من مسخهم قردة – كما فعل بأصحاب السبت، وخسف الأرض كما فعل بقارون، وهذا لا ينكرونه، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضي في قوله: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم ﴾ والإضافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم، كأنه قال: فلم عذب آباءكم [٣]؟

---

(١) مسائل الرازي: ص٦٦، ١١٢، وتفسير ابن كثير: ١/ ٤٩٩ ومجمع البيان المجلد الثالث: ١٠/ ٤٨ وتفسير الخازن: ٢/ ٢١٥.

(٢) مسائل الرازي، ص٦٦ – ٦٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [(١)].

وقال عز وجل: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [(٢)].

الآية الأولى تدل على أن الله تعالى كتب لقوم موسى – عليه السلام – الأرض المقدسة، والثانية: تدل على أنه حرمها عليهم، فما سبيل الجمع بينهما؟

والجواب: إن هذا الوعد كان مشروطاً بجهاد أهلها، فلما لم يوجد الشرط، وأبوا الجهاد، لم يوجد المشروط.

وقيل: إن كلاً من الكتابة والتحريم عام أريد به خاص، فالكتابة للبعض وهم المطيعون والتحريم على البعض وهم العاصون.

وقيل: :إن التحريم مؤقت بأربعين سنة، والكتابة غير مؤقتة فيكون المعنى: أن بعد مضى الأربعين تكون لهم [(٣)].

قال الله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [(٤)].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٦

(٣) مسائل الرازي، ص٦٨، والفتوحات الإلهية: ١/ ٤٧٩، وتفسير الخازن: ١/ ٤٤٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

والمتبادر إلى الأذهان أن يقال. كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل، وإحياء الواحد كإحياء الكل، والعقل يأبى ذلك من وجهين:

الأول: إن الجناية كلما تعددت كانت أقبح، فيناسبها زيادة الإثم والعقوبة، لا المساواة بين قاتل الكل، وقاتل الواحد.

الثاني: إنه يلزم عليه أن لا يكون على قاتل الكل إثم في قتل الثاني وما يليه؛ لأنه أثم إثم قتل الكل بقتل الأول. وهذا مما لم يقل به أحد.

والجواب: إن قتل النفس كقتل الجميع في أصل الوعيد، وهو الخلود في النار. ولا مساواة بين قاتل ما فوق الواحد إلى الكل على تقدير وجوده، وقاتل الواحد؛ فمن قتل نفساً واحدةً فله عذاب عظيم، ومن قتل نفسين يضاعف له العذاب ضعفين، وكلما زاد قتلاً زاده الله إثماً، والنار دركات.

ولا مساواة بين من أحيا نفساً واحدة، ومن أحيا الناس جميعاً على تقدير حصوله إلا في أصل الثواب. فمن أحيا نفساً واحدة كان له ثواب جزيل، ومن أحيا نفسين. أعطى الأجر مرتين، وكلما زاد إحياء، زاده الله ثواباً والجنة درجات.

فالتشبيه في أصل الثواب والعقاب، كما يقال الجنة والنار بالإيمان والكفر، وتفاوت الدرجات والدركات، بتفاوت الأعمال الصالحة والطالحة.

وقيل المعنى: من استحل دم نفس بغير حق فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم نفس فكأنما حرم دماء الناس جميعاً.

وقيل المعنى: أنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي يجب عليه لو

قـتل الناس جميعاً. ومن عفا عن قتلها وقد وجب القود منها كان كمن عفا عن الناس جميعاً.

وقيل المعنى فكأنما قتل الناس جميعاً عند المقتول، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً عند المستنقذ. وهذا تقييد للعام.

وقـيل المـراد: إن مـن قـتل نفسـاً واحـدة بغـير حـق، كـان الناس كلهم خصـومه في الدنـيا - إن لم يكـن للمقـتول ولـي - فقـد وترهم وتر من قصد لقتلهم جميعاً، فأوصل إليهم من المكروه ما يشبه القتل الذي أوصله إلى المقتول فكأنما قتلهم كلهم. وفي الآخرة مطلقاً؛ لأنهم من أب وأم واحدة.

ومـن استنقذها من غرق أو حرق، أو هدم أو ضلال أو ما يميت لا محالة فكأنمـا أحـيا الـناس جمـيعاً. أي أجـره على الله أجر من أحياهم جميعاً؛ لأنه في إسـدائه المعـروف إلـيهم بإحيائه أخاهم. بمنزلة من أحيا كل واحد منهم. وهذا لا يعدو أن يكون بياناً لعلة الجزاء.

وقـيل: المعنى من قتل نفساً - نبياً أو إماماً عادلاً - فهو كمن قتل الناس جـميعاً، أي يعـذب عليه كما لو قتل الناس كلهم، من حيث إبطال المنفعة على الكـل؛ لأن منفعـتها عامـة للكـل. ومن أشد أزر نبي أو إمام عادل فكأنما أحيا الناس جميعاً في استحقاق الثواب [1].

---

(١) ويـرد عـلى هـذا القـول عمـوم قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسًۢا﴾ ومضاعفة الثواب أو العقاب طبقاً للنفع أو الضر المترتب على القتل أو الإحياء أمر معلوم من الدين بعيداً عن اللفظ، فالقول يدلك تخصيص بلا مخصص.

وقيل المعنى: من قتل نفساً بغير حق، فعليه مأثم كل قاتل من الناس؛ لأنه سن القتل وسهله لغيره، فكان بمنزلة المشارك. ومن زجر عن قتلها بما في حيازتها – على وجه يقتدى به فيه، بأن يعظم تحريم قتلها – كما حرمه الله – فلم يقدم على قتلها لذلك، فقد أحيا الناس بسلامتهم منه، فذلك إحياؤه إياها. ويؤيده قوله ﷺ: «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[(١)].

وقوله ﷺ: «**ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها**».

قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[(٢)].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾[(٣)].

الآية الأولى تدل على أن الكفار يدخلون النار ماكثين فيها أبداً، والثانية: يوهم ظاهرها أن عذابهم لأجل معلوم وأمد محدود؛ لأن الأحقاب وإن طالت متناهية فما سبيل الجمع بينها؟

---

(١) ويرد على هذا القول عموم قوله تعالى (أنه من قتل نفساً)، ومضاعفة الثواب أو العقاب طبقاً للنفع أو الضر المترتب على القتل أو الإحياء أمر معلوم من الدين بعيداً عن اللفظ، فالقول يدلك تخصيص بلا مخصص.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

(٣) سورة النبأ، الآيات: ٢١ – ٢٥.

والجواب: إن لفظ الأحقاب لا يدل على نهاية، والحقب الواحد متناه، وقوله: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ متعلق بما بعده، فهو توقيت لأنواع العذاب الذي يبدلونه، لا توقيت للبثهم في النار. أي: لابثين فيها أحقاباً في حال كونهم ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ فإذا انقضت تلك الأحقاب عذبوا بأنواع أخرى من العذاب غير الحميم والغساق. وهذا هو الظاهر الموافق لنص القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [1].

وقيل: إن هذه الأحقاب لا تنقضي أبداً وهذا هو مراد الحسن – رحمه الله – بقوله: إن الله تعالى: لم يجعل لأهل النار مدة بل قال: ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ فوالله ما هو إلا أنه: إذا مضى حقب دخل حقب آخر، ثم آخر إلى الأبد، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود.

ويشير إلى ذلك ما روى عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال: لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا. ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا.

وقيل: إننا لو سلمنا دلالة قوله: (**أحقابا**) على التناهي والانقضاء، فإن ذلك إنما فهم من مفهوم الظرف، والتأبيد مصرح به منطوقاً، والمنطوق مقدم على المفهوم كما هو مقرر في علم الأصول.

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

وقيل: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ يعني: إن العدد قد ارتفع، والخلود قد حصل.

وهذا القول مرفوض؛ لأن الآية من قبيل الأخبار التي ليست محلاً للنسخ، وقيل: الآية محمولة على العصاة من المسلمين الذين يخرجون من النار.

وهذا مردود أيضاً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾؛ لأن من لم يوقن بالحساب، فليس بخارج من النار، وله فيها عذاب القيم وقوله: ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ﴾ وهؤلاء هم الكفار[(1)].

قال الله تعالى: ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[(2)].

وقال عز وجل: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[(3)].

في الآية الأولى خير المولى - عز وجل - رسوله ﷺ بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم. وفي الآية الثانية: أمره بالحكم بلا تخيير، فكيف الجمع بين الآيتين:

والجواب: إن الله عز وجل خير نبيه ﷺ في الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم. فإذا اختار الحكم بينهم، فليكن بما أنزل الله في القرآن، لا

---

(١) تفسير الخازن: ٤/ ٣٤٧، فتح القدير: ٥/ ٣٦٦، ودفع إيهام الاضطراب، ص٣٠٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٢.

(٣) سورة السابقة، الآية: ٤٩.

بحسب أهوائهم وشهواتهم.

وقيل: إن التخيير منسوخ بالأمر بالحكم بينهم، أي أن الآية الأولى منسوخة بالثانية، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ في الحكم بالتوراة.

ويرد القول بالنسخ: عدم التنافي بينهما، فالأولى: خيرت بين الحكم والإعراض، والثانية بينت كيفية الحكم إذا اختاره. وإعمال الآيتين أولى من إهدار إحداهما [١].

قال الله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [٢].

كيف أمرهم بالحكم بما في الإنجيل، وهو منسوخ بنزول القرآن الكريم؟

والجواب: إن المعنى وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه مما لم ينسخ بالقرآن، كالبشارة بنبوة محمد ﷺ وعلامات صدقه المذكورة في الإنجيل، فإذا آمنوا بمحمد فقد حكموا بما في الإنجيل، وذلك غير منسوخ ونظير هذه الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [٣] . فالآية من قبل العام المخصوص.

وقيل إن التقدير: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل، فيكون على حكاية ما فرض عليهم، وحذف الوقف لدلالة ما قبله عليه من قوله: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم ﴾ [٤] . كما قال تعالى: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾

(١) مسائل الرازي: ٧١، ودفع إيهام الاضطراب: ١١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

(٣) سورة السابقة، الآية: ٦٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[١].

وقيل: إنه استأنف أمر أهل الإنجيل على غير الحكاية؛ لأن أحكامه كانت حينئذ موافقة لأحكام القرآن، لم ينسخ بعد[٢].

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٥].

وقال جل شأنه: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٦].

---

(١) سورة الرعد، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) فتح الرحمن، ومسائل الرازي: ٧١، ومجمع البيان: ٦/ ١٠٨، وتفسير الخازن: ١/ ٤٦٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٥) سورة السابقة، الآية: ٩.

(٦) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

وفي الآية الأولى ونظائرها: دلالة على منع موالاة الكافرين وموادتهم مطلقاً.

وفي الآية الثانية: دلالة على أن الكافر إذا لم يقاتل المؤمن في الدين، ولم يخرجه من داره، فلا يحرم بره والإقساط إليه، فكيف التوفيق بينها جميعاً.

والجواب: إن الكافر الذي لم ينه عن بره والإقساط إليه - دون موالاته ومودته مشروط فيه، عدم القتال في الدين، وعدم إخراج المؤمنين من ديارهم، والكافر المنهي عن ذلك فيه، هو المقاتل في الدين، المخرج للمؤمنين من ديارهم، المظاهر للعدو على إخراجهم.

فالموالاة منهي عنها مطلقاً، والبر والإقساط منهي عنهما لمن قاتل المؤمنين وأخرجهم من ديارهم، وظاهر على إخراجهم. والبر والإقساط المرخص فيهما لمن لم يقاتل المؤمنين في الدين ولم يخرجهم من ديارهم، ولم يظاهر على إخراجهم، وعلى هذا فلا نسخ.

وقيل: إن المخاطب بقوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ في الآية الأولى، المنافقون لأنها نزلت في شأنهم وهم كانوا من الكفار في الدنيا ضميراً واعتقاداً. ومعناه أنه منهم في الآخرة جزاء، أو عقابه أشد. وعليه فالمراد بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ المؤمنون ظاهراً، وهذا ليس بشيء، فالآية تعليم وإرشاد، وتشديد عظيم من الله - عز وجل - في مجانبة اليهود والنصارى وكل من خالف دين الإسلام. ولا معنى لأن يكون ذلك للمنافقين خاصة. فإذا كان المنافقون من الكفار في الدنيا ضميراً واعتقاداً، فكيف يحذرهم - إن والوهم - أن يكونوا منهم؟ فالخطاب في قوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ للمؤمن حقاً والمعنى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ولا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب.

وقوله: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ إيماء إلى علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم، يوالي بعضهم بعضاً. لاتحادهم في الدين، واجتماعهم على مضادتكم كما قال ﷺ: «**لا تتراءى ناراهما**»[(١)]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ في الكفر، محكوم له حكمهم في وجوب لعنه والبراءة منه، وأنه من أهل النار، ومن والاهم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر؛ لأنه لا يوالي أحد أحداً، إلا وهو عنه راض. فإذا رضى عنه، رضي دينه، وصار من أهل ملته، وهذا على سبيل المبالغة في الزجر. قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[(٢)].

ومعنى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي: لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها، فتولى اليهود والنصارى مع علمه بعداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[(٣)].

فالترخيص في برهم، والإقساط إليهم، ومصاحبتهم في الدنيا بقدر يرتضيه الشرع، ويقتضيه الكرم، مع أخذ الحيطة والحذر لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[(٤)]. وهذا الأمر لا يصل إلى درجة المودة

---

(١) أي: من الواجب أن يتجنب أولياء الله أعداءه تعاملاً وسكناً حتى إذا أوقد المؤمن ناراً لا يراه المشركون والعكس صحيح، ولا يتحقق ذلك إلا بالابتعاد.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

والموالاة التي تقتضي نصرهم ومناصحتهم، وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا. فهذا هو المحظور [١].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٢].

كيف ذلك؟ وكم مرة غلب حزب الله عز وجل في زمن النبي ﷺ وبعده إلى يومنا هذا.

والجواب: إنه متى صح إطلاق هذه اللفظة (حزب الله) على فئة من الناس، فهم غالبون لا محالة، منتصرون بلا شبهة، بكل ما تعنيه لفظة الغلبة من الحجة والبرهان، والدولة والصولة، والعزة والسلطان، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [٣].

فإن حدث ما يوهم خلاف ذلك، فما هو إلا وكف قد أصاب تلك الفئة، وخلل تسرب إلى فهم مقوماتها. فإن عادوا إلى إصلاح عيوبهم، وسد ثلمهم، وإحكام دعائمهم، عاد الله عز وجل عليهم بإنجاز وعده وتحقيق نصره وبسط مدده وفيضه.

وقد سبق مزيد إيضاح في هذا الموضوع عند الحديث عن قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [٤].

---

(١) الخازن: ١/ ٤٥٦، زاد المسير: ٢/ ٣٧٨، مجمع البيان: ٦/ ١١٩ ومسائل الرازي، ٧٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤١.

وقيل: المراد الغلبة بالحجة والبرهان، لا بالدولة والصولة، وحزب الله وهم المؤمنون غالبون بالحجة أبداً [١].

وهذا تخصيص للعام بلا مخصص، قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [٢].

قال الله تعالى – مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [٣].

وقد حدثنا التاريخ الإسلامي أنه ﷺ قد شج وجهه، وكسرت رباعيته يوم أحد فكيف التوفيق؟

والجواب: إن المراد من العصمة هنا: العصمة من القتل، لا من جميع الأذى، فإن العصمة من جميع المكاره، لا تتناسب مع وظيفة الرسل، والتي هي الدعوة إلى الله عز وجل وقد فضل الله تبارك وتعالى بعض الرسل على بعض بشدة عزمهم، وقوة صبرهم، وتحملهم لأذى أقوامهم.

وقيل: إن هذه الآية من سورة المائدة – التي هي من آخر ما نزل من القرآن الكريم – وما حدث كان في غزوة أحد، في أوائل العهد المدني [٤].

قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [٥].

---

(١) مسائل الرازي: ٧٣.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٤) مسائل الرازي: ٧٤، ٧٥.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

أي دلالة لهذه الأشياء المذكورة على علم الله تعالى بما في السموات وما في الأرض وأنه بكل شيء عليم؟

والجواب: إن العرب كانت تسفك الدماء، وتنهب الأموال. فلو لم يجعل زماناً ومكاناً يقتضي كفهم عن القتل والنهب لهلكوا، وذلك من مقتضى علمه فيما جعله الله تعالى في البلد الحرام، والشهر الحرام من الآيات والأعاجيب، دلالة على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء. وذلك أنه جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء، فالظبي يأنس فيه بالسبع والذئب ما دام في الحرم فإذا خرج من الحرم خاف وطلبه السبع، وهرب منه الظبي حتى يرجع إلى الحرم، فإذا رجع إليه كف السبع عنه.

وكذلك الطير والحمام، يأنس بالإنسان، فإذا خرج من الحرم خافه.

هذا مع أمور كثيرة وعجائب شهيرة، فيكون ما دبره من ذلك دالاً على أنه عالم بمصالح الخلق وبكل شيء. فقد علم أن العرب يكونون أصحاب عداوات وطوائل، وأنهم يكونون حوالي الكعبة، فلما خلق السموات والأرض، جعل الكعبة موضع أمن، وعظم حرمتها في القلوب، وبقيت حرمتها إلى يومنا هذا، فلولا كونه – سبحانه – عالماً بالأشياء قبل كونها، لما كان هذا التدبير وفقاً لصلاح المعاش والمعاد.

وقيل: إن الله تعالى صرف قلوب الخلق إلى مكة في الشهور المعلومة. فإذا وصلوا إليها عاش أهلها معهم، ولولا ذلك لماتوا جوعاً لعلمه بما في ذلك من صلاحهم؛ وليستدلوا بذلك على أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض.

وقيل: إن الإشارة بقوله (**ذلك**) ترجع إلى ما سبق ذكره من الغيوب

كقصة موسى وعيسى - عليهما السلام - والتوراة والإنجيل، وما فيهما من الأحكام والأخبار، وذلك كله مما لم يشاهده نبينا ﷺ ولا أحد في عصره، ولذلك قال: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ ومعناه: لولا أنه سبحانه بكل شيء عليم لما جاز أن يخبركم بهذا [١].

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٢].

وقال عز وجل: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ ﴾ [٣].

في الآية الأولى: دلالة على قبول شهادة الكافر على المؤمنين في الوصية في السفر، وفي الآية الثانية دلالة على أنه لا بد أن يكون الشهود من المسلمين، فكيف التوفيق بينهما؟

والجواب: إن اشتراط العدالة، وعدم قبول شهادة الكفار على المسلمين: هو القاعدة العامة التي لا بد منها في الظروف العادية، أما الضرورات - والتي تبيح المحظورات - إذا انقطع الإنسان عن أهله، وترك أهل دينه لظروف السفر، فيرخص له في استشهاد الكافرين، لتعذر وجود العدول من المسلمين،

---

(١) مسائل الرازي: ٧٧، ٧٨، ومجمع البيان: ٧/ ٢٠٣، وزاد المسير: ٢/ ٤٣١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٦.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٢.

ولو لم يبح الشارع الحكيم ذلك، لضاق الأمر وربما ضاعت الوصية، فالآية الأولى: خاصة بظروف السفر الدقيقة، والآية الثانية عامة.

وقيل الآية الأولى منسوخة بالثانية، وهذا مردود لعدم التعارض بين الآيتين. مع إمكانية الجمع بينهما – كما سبق.

وقيل إن معنى ﴿ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي من قبيلة الموصي، وقوله: ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي من غير قبيلة الموصي من سائر المسلمين. ولا يخفى ما عليه الجمهور من أن قوله **(منكم)** أي من المسلمين، وقوله: **(من غيركم)** أي من غير المسلمين، ولم يقل أحد بضرورة أن يكون الشهود من قبيلة الموصي[1].

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

الحواريون هم صفوة أتباع عيسى – عليه السلام – فكيف قالوا هذا القول الذي يحتمل الشك في قدرة الله – عز وجل – ويوهم التشبيه حيث أسندوا إليه إمكانية الاستطاعة وعدمها؟

والجواب: إن هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة، لا على ما تقتضيه القدرة. والمعنى هل يطيع ربك، أي هل يجيبك؟ واستطاع بمعنى أطاع، كاستجاب وأجاب، وهذا يسمى استطاعة المطاوعة، لا استطاعة

---

(١) دفع إيهام الاضطراب: ١١٣، ومناهل العرفان: ٢/ ٢٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٢.

القدرة، كما يقول الفقير للغني القادر هل تقدر أن تعطيني شيئاً؟

وقيل المعنى هل يسهل عليك أن تسأل ربك من غير صارف، كقولك لآخر هل تستطيع أن تقوم معي؟ وأنت تعلم قدرته على ذلك.

وإنما قالوا ذلك ليحصل لهم مزيد الطمأنينة، كما قال إبراهيم – عليه السلام – : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [(١)] . ولا شك أن مشاهدته هذه الآية العظيمة، تورث مزيد الطمأنينة في القلب، ولهذا السبب قالوا: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ [(٢)] .

وقد أنكر عيسى – عليه السلام – عليهم هذا الطلب، وأمرهم بتقوى الله عز وجل؛ لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذي لا يليق بالمؤمن المخلص – وإن كانوا لم يقصدوه – أو لأنهم سألوا ما لم يسأله أحد من الأمم السابقة، أو أنه أمرهم بالتقوى ليحصل لهم هذا المطلوب.

وقيل المعنى هل يقدر ربك، وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله تعالى، وقبل علمهم أن عيسى – عليه السلام – أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى – بإذن الله – ولذلك أنكر عليهم وقال: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مصدقين فلا تشكوا في قدرة الله تعالى.

أو أنهم طلبوا ذلك بعد الإيمان، ورؤية معجزات عيسى – عليه السلام – فأمرهم بالتقوى؛ لأن سؤالهم سؤال تعنت، ونهاهم عن اقتراح الآية بعد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٣.

الإيمان ولا سيما أن الله تعالى قد أراهم من البراهين والمعجزات ما هو أوكد مما سألوه.

وهذا القول يناسب ظاهر النص القرآني، إذ قال الله تعالى: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

ولو كان مرادهم غير ذلك ما قالوا: ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ (٢).

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴾ (٣).

وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤).

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) ﴾ (٥).

تدل الآية الأولى على أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة. والآية الثانية توحي بأن أشدهم عذاباً هم آل فرعون. والثالثة تؤكد أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وهو أشد دركات النار عذاباً فكيف التوفيق؟

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

(٢) مسائل الرازي: ٧٩، وتفسير البيضاوي: ١/ ٢٩٨، ومجمع البيان: ٧/ ٢٣٧، وتفسير الخازن: ١/ ٤٩٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

(٤) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

والجـواب: إنـه لا منافاة بين الآية الثانية والثالثة؛ لأن كلاً من آل فرعون والمـنافقين في أسـفل دركات النار، وفي أشد العذاب، وليس في الآيتين ما يدل على أن بعضهم أشد عذاباً من الآخر.

وأمـا الآيـة الأولى: فالمـراد بالعـالمين: عـالمي زمـانهم، وعليه فلا إشكال ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [(١)].

أو أن المراد بالعذاب: العذاب الدنيوي الذي هو مسخهم خنازير، ولكن مـا رواه ابـن جرير عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – أنه قال: «أشد الـناس عذابـاً يـوم القـيامة ثلاثة المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون» [(٢)]. يدل على أن المراد بالعذاب: العذاب الأخروي.

ولعـل مـا يجمـع بـين الآيـات الـثلاث أن يقال إن من كفر من أصحاب المـائدة مسـخوا خـنازير في الدنيا، وهم في الآخرة أشد العذاب كالمنافقين وآل فرعون.

وهـذا الإشـكال في أصـحاب المـائدة لا يـتوجه إلا عـلى القـول بنزول المـائدة، وأن بعضـهم كفـر بعـد نـزولها. أما على قول من قال إنهم خافوا من الوعـيد فقـالوا لا حاجة لنا في نزولها، فلم تنزل فلا إشكال، ولكن ظاهر قوله تعـالى: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا ﴾ يخـالف ذلك. وعلى القول بنزولها. لا يتوجه الإشكال إلا إذا ثبت كفر بعضهم كما لا يخفى [(٣)].

---

(١) سورة البقرة، من الآيتين: (٤٧، ١٢٢).

(٢) ابن كثير: ٢/ ٦٨٠.

(٣) دفع إيهام الاضطراب: ١١٥.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (1) .

لم يُعْلم في النصارى من اتخذ مريم إلهاً، فكيف قال: ﴿ إِلَٰهَيْنِ ﴾ ؟

والجواب: إنهم لما أعطوها من التعظيم والتقديس ما هو من حق الإله، صح إطلاق اسم الإله عليها، كما أطلق اسم الرب على الرهبان والأحبار في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (2) . لما عظموهم تعظيم الرب ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ (3) . والمشركون ما جعلوا الأصنام أنداد الله عز وجل ولكن لما عبدوها وعظموها وقد سوها تقديس الإله، فكأنهم جعلوها أنداداً لله سبحانه وتعالى.

وقيل إنهم لما جعلوا المسيح إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً إلهاً؛ لأن الولد يكون من جنس الوالدة، فهذا على طريق الإلزام لهم.

وقيل كان في النصارى قوم يقال لهم المريمية، ويعتقدون في مريم أنها إله، وعلى هذا القول – إن صح – فلا إشكال (4) .

قال الله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (5) .

---

(1) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(2) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(3) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(4) مجمع البيان: ٧/ ٢٤٦ بتصرف.

(5) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

كيف قال عيسى – عليه السلام – ذلك مع علمه بأن الله لا يغفر أن يُشرك به؟

والجواب: إن عيسى – عليه السلام – ما قال ذلك القول على طريق طلب المغفرة، ولو كان كذلك لقال: (فإنك أنت الغفور الرحيم) ولكنه قال ذلك على طريقة التسليم لأمر الله – عز وجل – والتفويض إلى مراده فيهم؛ لأنه العزيز في ملكه الحكيم في فعله ويجوز – عقلاً – في حكمته وسعة مغفرته، أن يغفر للكفار، لو لم يخبر أنه لن يفعل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ .

ومعنى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعذبهم فإنه من منطلق الملك الحقيقي، وللمالك أن يتصرف في عبيده كيفما شاء، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا ينقص من عزه شيء بترك العقوبة والانتقام ممن عصاه (الحكيم) في كل ما يفعله من العذاب أو المغفرة.

ولم يقل عيسى – عليه السلام – : (فإنك أنت الغفور الرحيم) ؛ لأن الكلام لم يخرج مخرج السؤال. ولو قال ذلك لأوهم الدعاء لهم بالمغفرة، على أن قوله ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أبلغ في المعنى؛ وذلك أن المغفرة قد تكون حكمة، وقد لا تكون. والوصف بالعزيز الحكيم يشتمل على معنى الغفران والرحمة إذا كانا صوابين [1] ويزيد عليهما باستيفاء معان كثيرة؛ لأن العزيز هو المنيع القادر الذي لا يضام، والقاهر الذي لا يرام. وهذا المعنى لا يفهم من

(١) أي: مرتبطان بالحكمة.

الغفور الرحيم. والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها، ولا يفعل إلا الحسن الجميل، فالمغفرة والرحمة، إن اقتضتهما الحكمة دخلتا فيه، وزاد معنى هذا اللفظ عليهما من حيث اقتضى وصفه بالحكمة في سائر أفعاله.

وقيل: إنه على رأي من قال: إن ذلك كان يوم رفعه إلى السماء، فلا اعتراض والمعنى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة بأن تميتهم على كفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ لا يقدرون على دفع ضرر نزل بهم، ولا جلب نفع لأنفسهم وأنت عدل فيهم؛ لأنك أوضحت لهم طريق الحق فرجعوا عنه وكفروا ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعني لمن تاب من كفره منهم بأن تهديه إلى الإيمان، فإن ذلك بفضلك ورحمتك ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني في الانتقام ممن تريد الانتقام منه، لا يمتنع عليك ما تريده (الحكيم) في أفعالك كلها.

وقيل: إن الله تعالى لما قال لعيسى – عليه السلام – : ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لم يقع لعيسى إلا أن النصارى حكت عنه الكذب؛ لأنه لم يقل ذلك. وقول الكذب ذنب، فيجوز أن يسأل له المغفرة.

ويرد على هذا القول، أنه كذب يتعلق بالاعتقاد، وعليه فما زال الإشكال قائماً [١].

***

(١) مسائل الرازي: ٨٠ والخازن: ١/ ٥٠٢، ومجمع البيان: ٧/ ٢٤٨.

سورة الأنعام

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

كيف جعل عدم إيمانهم مترتباً على خسرانهم، مع أن الأمر بالعكس؟

والجواب: إن المعنى الذين خسروا أنفسهم - في علم الله تعالى - لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون[2].

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٢٢﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٧٤﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢﴾[5]. كيف سأل عن الشركاء مع عموم الحشر لها؟ وكيف أضاف الشركاء إلى المشركين في الآية الأولى، وأضافهم إلى الله - عز وجل - في الآية الثانية؟

والجواب: عن الأول: إن السؤال إنما وقع بعدما جرى بين الشركاء

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢.

(٢) أضواء على متشابهات القرآن: ١/ ٢١٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٢.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٤.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٢٢.

والمشركين من التبري من الجانبين، وانقطاع ما بينهم من الأسباب والعلائق، حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ونحو ذلك من الآيات الكريمة، إما لعدم حضورها حينئذ حقيقة بإبعادها عن ذلك الموقف، وإما بتنزيل حضورها بعنوان الشركة والشفاعة بمنزلة عدم حضورها حقيقة، إذ ليس السؤال عنها من حيث ذواتها، بل إنما هو من حيث إنها شركاء، كما يعرب عنه الوصف بالموصول. ولا ريب في أن عدم الوصف، يوجب عدم الموصوف، من حيث هو موصوف فهي من حيث هي شركاء غائبة لا محالة، وإن كانت حاضرة من حيث ذواتها أصناماً كانت أو غيرها [(١)].

والجواب عن الثاني: إنه حيث أضاف الشركاء إليهم، للإيماء بأن شركتها ليست إلا بتسميتهم وتقولهم الكاذب، وأضاف الشركاء إليه. لما تبرأ المتبعون من الاتباع، وضل عنهم ما كانوا يفترون. فناسب تقريعهم وتوبيخهم إضافة الشركاء إليه، أي: شركائي في زعمكم واعتقادكم. ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فأخرجه مخرج التهكم بهم، كما قال الكفار للنبي ﷺ: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [(٢)].

وقيل: إنه أضاف الشركاء إليهم لكونهم شركاء لهم في هذا الخطاب.

وقيل: إنه أضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم؛ فهي شركاء من هذه الحيثية [(٣)].

---

(١) الفتوحات الألهية: ٢/ ١٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٣) مسائل الرازي: ٣٠٤. الفتوحات الإلهية: ٢/ ١٦، وفتح القدير: ٢/ ٤٣٩.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [(١)].

وقال الله عز وجل: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴾ [(٢)].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [(٣)].

في الآية الأولى: دلالة على أن المجرمين سألوا الرجعة عند معاينتهم للنار، وهم واقفون على شفيرها، وفي الآية الثانية: دلالة على أنهم سألوها بعد أن دخلوا النار، وتجرعوا ما فيها. وفي الآية الثالثة: دلالة على أنهم سألوها – وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة، فكيف التوفيق بينها؟

والجواب: إنهم سألوا الله – سبحانه – الرجعة ثلاث مرات: مرة عند وقوفهم أمام الله عز وجل للحساب، وأخرى عند رؤيتهم للنار ومشاهدتهم لما فيها من العذاب والنكال، وثالثة عند تجرعهم لغصصها وطول مكثهم فيها.

ولزوال عقولهم وعدم تمييزهم: تكرر سؤالهم وطلبهم مع علمهم بعدم إجابتهم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٢.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

ظاهر هذه الآية يدل على إن الله – سبحانه – لم ينزل على محمد ﷺ آية، ولو نزلها لبينها. كما أنه لو صح من النبي ﷺ هذا الجواب، لصح من كل مدع للنبوة فكيف ذلك؟

والجواب عن الأول: أن الله عز وجل لم ينزل عليهم تلك الآية التي اقترحوها، والعلامة التي التمسوها بقصد التعنت ومحاكاة السابقين؛ لأن الحكمة تمنع من إيتائها، والمصلحة تأبى نزولها .. قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

وقال عز شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]. وقد بين الله – عز وجل – في آية أخرى أنه لو أنزل عليهم ما التمسوه وما اقترحوه: ما آمنوا، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[4].

وأنكر عليهم اقتراح مثل هذه الآيات فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [(١)].

وقد أنزل الله – سبحانه – الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ من العقليات والحسيات.

فأنزل عليه القرآن الكريم الذي جعل أعناق المعرضين عنه خاضعين، وأجرى على يديه من المعجزات الباهرة التي رأوها رأي العين، ما لو نظروا فيها – أو في بعضها – حق النظر، لعرفوا صدقه وصحة نبوته. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [(٢)].

والجواب عن الثاني: إنه إذا ثبتت نبوته بما شاء الله من المعجزة، يصح له أن يقول ذلك بخلاف ما إذا لم تثبت نبوته، والنبي ﷺ كان قد ثبتت نبوته بالقرآن، وانشقاق القمر وغيرهما [(٣)].

قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [(٤)].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ ﴾ [(٥)].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٠.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١، وانظر: مجمع البيان: ٨/ ٥٥.

(٣) مسائل الرازي: ٨٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٥) سورة النساء، الآية: ٩٧.

وقال الله سبحانه: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [١].

وقال عز من قائل: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢].

في الآية الأولى: أضاف التوفي إلى رسل الله، وفي الثانية: أضافه إلى الملائكة، وفي الثالثة: أضافه إلى نفسه - جل وعلا - فكيف الجمع بينها؟

والجواب: إن الله عز وجل هو المتوفي على الحقيقة؛ وذلك بأمر الوسائط بنزع الروح وخلق الموت، والملائكة المتوفون: أعوان ملك الموت، وهم يجذبون الروح من الأظفار إلى الحلقوم، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم، فصحت الإضافات كلها.

والمراد بملك الموت: الجنس، ويدل عليه قوله: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾.

وقيل المراد: ملك الموت وحده، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له.

وقيل: جعلت الأرض لملك الموت مثل: الطست يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان، ينزعون الأنفس ثم يقبضها منهم: عن مجاهد.

وقيل: إن الأرواح إذا كثرت عليه: يدعوها فتستجيب له [٣].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٣) مسائل الرازي: ٢٧٥، وتفسير الخازن: ٢/ ٢٢ ومجمع البيان: ٢١/ ٨٠.

قـال الله تعـالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١).

وقـال الله عـز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ (٢).

في الآيـة الأولى: دلالـة على أن الله تعالى مولى جميع الخلائق، وفي الثانية: دلالة على أن الكفار لا مولى لهم، فكيف الجمع بينهما؟

والجـواب: إن الله سـبحانه مـولى عـباده جمـيعاً، عـلى معـنى أنـه ربهـم وخالقهم ومالك أمرهم ورازقهم.

وأنـه تعالى مولى المؤمنين دون الكافرين، بمعنى: يحبهم ويوفقهم ويحفظهم وينصرهم وهذا في باب الدين مخصوص بالمؤمنين دون الكافرين.

وقـيل: إن الضـمير في قولـه: ﴿ مَوْلَىٰهُمُ ﴾ عائد إلى الملائكة، فلا إشكال في الآية أصلاً.

ولمـا كـان هـؤلاء الكفار قد اتخذوا أولياء من دون الله سبحانه في الدنيا، قـال: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ ﴾ أي: صـاحب الولايـة الحقيقـية في الدنـيا والآخـرة، فهـو الـذي خلقهم فأحياهم وبلغهم هذا الحد، ولا يجوز أن يشـاركه غـيره في ذلـك. ولذلـك قـال بعـده: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٢) سورة محمد، الآية: ١١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٢، وانظر تنزيه القرآن المطاعن: ١٣٢، بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [(١)].

كيف أخبر بكشف ما يدعون، ومن جملته: عذاب الساعة، وهو لا يكشف عن المشركين؟

والجواب: إنه تعالى لم يخبر عن الكشف مطلقاً، وإنما أخبر عنه مقيداً بشرط المشيئة، وعذاب الساعة: لو شاء الله كشفه عن المشركين لكشفه، ولكنه لم يشأ، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ ﴾ [(٣)].

وقال الله عز وجل: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ [(٤)].

وقال سبحانه: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ [(٥)].

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٢) انظر: مسائل الرازي: ٨٥، بتصرف.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١).

وقال عز من قائل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢).

الآية الأولى: يوهم ظاهرها أن رسول الله ﷺ أرسل إلى أم القرى وما يقرب منها دون الأقطار النائية عنها، ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٣).

فكيف التوفيق بين هاتين الآيتين، وبين سائر الآيات الأخرى التي تصدع بعموم إنذاره لجميع الناس؟

وفي الآية الأولى أيضاً قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾. فكيف ذلك، واليهود والنصارى يؤمنون باليوم الآخر، ولا يؤمنون بالقرآن الكريم؟

والجواب عن الأول: إن المراد بقوله: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ شامل لجميع الأرض، كما رواه ابن جرير وغيره عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ولو سلمنا – جدلا – أن قوله: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة – حرسها الله تعالى – كجزيرة العرب مثلاً، فإن الآيات الأخر نصت على العموم كقوله: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٧.

وعامة العلماء – سوى أبي ثور – على أن ذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه.

فالآية – على هذا القول – كقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [(١)]. فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم كما هو واضح [(٢)].

والجواب عن الثاني: إن المراد بالذين يؤمنون بالآخرة هم أتباع محمد ﷺ الذين آمنوا بالله عز وجل وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه. ولما جاءت البشارة ببعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن الكريم عليه على لسان موسى وعيسى – عليهما السلام – في التوراة والإنجيل. ولما كان المؤمن لا يجوز أن يكون مؤمناً ببعض ما أوجبه الله عليه دون بعض. كان إيمان اليهود والنصارى باليوم الآخر كلا إيمان «حيث لم يصدقوا رسلهم وآمنوا ببعض الرسل دون بعض، وصدقوا ببعض الكتب دون البعض الآخر. فإيمانهم باليوم الآخر لا اعتبار له، ولا اعتداد به». قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [(٣)].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [(٤)].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: ١١٩، بتصرف.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ [١] .

وقال جل ذكره: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ [٢].

أثبت في هاتين الآيتين التشابه بين الزيتون والرمان، ونفاه عنهما، فكيف ذلك؟

والجواب: إنه أثبت التشابه بينهما في شيء. ونفاه عنهما في شيء آخر. فأثبت التشابه في اللون والشكل والصورة، ونفاه في الطعم والحلاوة واللذة[٣].

قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ [٤] .

كيف يصلح ذلك وليس في الناس من يجعل لله شريكاً من الجن؟

والجواب: إن كثيراً من الناس كان يعبد إبليس كالشريك لله – سبحانه – وقد حكى ذلك عن بعض المجوس، وما دام الله قد أخبر عن ذلك، فقد كان.

وقيل: إن المراد أنهم جعلوا الملائكة شركاء الجن من حيث اتفقوا في أنهم لا يرون [٥] .

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٣) دفع إيهام الاضطراب: ١٢٠، بتصرف.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.

(٥) تنزيه القرآن: ١٣٤، بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

وقال جلت حكمته: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾[2].

الآية الأولى: توهم أن الله تعالى لا يرى بالأبصار. والآية الثانية تدل على أن الله تعالى يرى بالأبصار، فكيف الجمع بينها؟

والجواب: إن المنفي في الآية: الإدراك المشعر بإحاطة الكنه. أما مطلق الرؤية، فلا تدل الآية على نفيه، بل هو ثابت بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك. وحاصل هذا الجواب: أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية؛ لأن الإدراك المراد به: الإحاطة. والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته، فمعنى ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ لا تحيط به. كما أنه تعالى يعلمه الخلق، ولا يحيطون به علماً. وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم. فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية، مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق.

وقيل: إن معنى ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ أي: في الدنيا، فلا تنافي الرؤية في الآخرة.

وقيل: إن آية ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ عام مخصوص بالآيات التي تثبت الرؤية للمؤمنين في الآخرة، وهذا قريب في المعنى مما قبله[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٣) دفع إيهام الاضطراب: ١٢٠، بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ (٢).

وقال جل شأنه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (٣).

في الآية الأولى: إشارة إلى أن النبي ﷺ كان دارساً للعلوم. وفي الآيتين بعدها: دلالة على أنه ﷺ كان نبياً أمياً، فكيف ذلك؟ وإذا كان أمياً، فكيف يعلم الناس ما لم يحسن؟

الجواب: إن الآية الأولى تحكي ما يقوله الكفار عندما تبهرهم الآيات العجيبة التي يرونها منه ﷺ وهو النبي الأمي بنص الآيتين المذكورتين قبل، وبنص حديث بدء الوحي: «**ما أنا بقارئ**» (٤). الحديث وغير ذلك.

وقيل: إن النبي محمداً ﷺ ليس أمياً بالمعنى المزعوم، أي أنه لا يقرأ ولا يكتب، فقد أسندوا تلك الأمية إلى أمر مغلوط، وهو أنه ورد في القرآن الكريم تسميته بالنبي الأمِّيّ، وقد فاتهم أن القرآن أخذ هذه الصفة هنا لا بمعناها اللغوي، بل بمعناها الاصطلاحي الذي أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز. فكل من عداهم من الناس أميون، أي: من الأمم الذين لا كتاب لهم منزل، فالعرب أميون وكتابيون. قال جل ذكره: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٧/ ٣٢٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

والرسول ﷺ أمي؛ لأنه منهم على أن نسبة الأمية إليه بالمعنى المذموم: نسبة النقص والجهل إليه. وهذا عيب لا يجوز أن يكون فيه؛ لأنه يجب أن يكون أكمل البشر، بل إن هناك أحاديث تثبت أنه كان يقرأ ويكتب [١] .

وهذا القول مردود من وجوه:

الأول: إن استعمال اليهود لهذه اللفظة بهذا المعنى، لا يعني خروجها عن مدلولها اللغوي، فكثير من الألفاظ مستعمل في غير ما وضع له [٢] . وألفاظ القرآن لا تخصص بعرف اليهود.

الثاني: إن القول بأن نسبة الأمية إليه عيب، غير مسلم. فالأمية التي هي عيب، هي تلك اللفظة المستعملة في مبناها، ومعناها. أما الأمِّيّ الذي أتى بما أعجز به الراسخين في العلم، فليست الأمية بالنسبة له عيباً ونقصاً بل مدحاً وكمالاً.

الثالث: إن الأحاديث التي وردت، تثبت أنه كان يقرأ ويكتب - إن صحت - فتحمل على أنه تعلم القراءة والكتاب بعد.

الرابع: إن الله تعالى ذكر في معرض المحاجة عن القرآن أن الرسول ﷺ لو كان قارئاً أو كاتباً، لقال الكفار: تعلمه من السابقين قال جل ذكره: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [٣] . وقال الرسول ﷺ: **«إنا أمة أمية لا نقرأ ولا نكتب»** [٤] .

---

(١) أضواء على متشابهات القرآن: ٢/ ٢٥٣.

(٢) فمثلاً كلمة صلاة: مستعملة في غير ما وضعت له لغوياً.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٤) بلفظ لا نكتب ولا نحسب صحيح الإمام البخاري، كتاب الصوم.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا ﴾ [١] .

وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [٢] .

في الآية الأولى: أضاف إنزال القرآن إلى الأمة. وفي الآية الثانية أضافه إلى النبي ﷺ فكيف الجمع بينهما.

والجواب: إنه لما كان إنزاله إلى النبي ﷺ ليبلغه إلى الخلق ويهديهم به، كان في الحقيقة منزلاً إليهم لكن بواسطته. فصح إضافة الإنزال إليه وإليهم [٣] .

قال الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [٤] .

وقال عز وجل: ﴿ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [٥] .

وقال سبحانه: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [٦] .

في الآية الأولى: أضاف التزيين إلى عملهم. وفي الثانية: أضافه إلى الله تعالى. وفي الثالثة: أضافه إلى الشيطان، فما سبيل الجمع بينهما؟

والجواب: إن التزيين من الشيطان يكون بالوسوسة، وإيراد الشبه، والضلالات، والإغواء. والتزيين من الله عز وجل يكون بخلق هذه الأشياء،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٣) مسائل الرازي: ٨٨، بتصرف.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٥) سورة النمل، الآية: ٤.

(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

فصحت الإضافتان [١]. أما إضافة التزيين إلى العمل فهو أمر مجازي، إذ أنهم لما داوموا على العمل الطالح حتى صار لهم خلقاً وعادة زين لهم الشيطان أعمالهم، وحسنها في أعينهم حتى لا يتخلوا عنها قال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [٢].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) ﴾ [٣].

وقال الله سبحانه: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [٤].

وقال عز وجل: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ ﴾ [٥].

المفهوم من الآية الأولى والثانية: إن الخلود في النعيم أو العذاب في الآخرة، أمر راجع إلى مشيئة الله تعالى. والآية الثالثة تصرح بأن نعيم الجنة وعذاب النار، لا انقطاع له أبداً، فكيف ذلك؟

والجواب: إن أهل الجنة مخلدون في النعيم أبداً، وأهل النار مخلدون في

---

(١) مسائل الرازي: ٨٨، بتصرف.
(٢) سورة النمل، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.
(٤) سورة هود، الآية: ١٠٧.
(٥) سورة البينة، الآية: ٨.

العذاب أبداً. وما ورد من اقتران الخلود بدوام السموات والأرض، وهما لا يدومان، فليس المراد منه التأقيت. فللعرب في معنى الأبد ألفاظ تعبر بها عن إرادة الدوام دون التأقيت كقولهم: لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار. وما دامت السموات والأرض. وما أطت الإبل ويريدون بذلك: لا أفعله أبداً، مع قطع النظر عن كون المؤقت به له نهاية أم لا نهاية له. والقرآن إنما نزل بلغة العرب وأساليبها.

وقيل: إنه خاطبهم على حسب معتقدهم أن السموات والأرض لا تزول ولا تتغير.

وقيل: إنه أراد به كون الفريقين في قبورهم: إما منعمين، أو معذبين. كما جاء في الحديث: «**القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار**»(١).

ومن كان في روضة من رياض الجنة، فهو في الجنة ومن كان في حفرة من حفر النار، فهو في النار. وعليه يكون المراد بالتأقيت بدوام السموات والأرض مدة الخلود إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد بالسموات والأرض في هذه الآية: سموات الآخرة وأرضها، وتلك دائمة لا تفنى ولا تزول. أما سموات الدنيا وأرضها فإنها تفنى وتزول.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير: ٦/ ١٤٣.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ [١]. ولأنه لا بد لأهل الجنة مما يقلهم ويظلهم، إما سماء يخلقها الله – عز وجل – أو العرش، كما جاء في الأخبار: أن أهل الجنة تحت ظل العرش [٢]. وكل ما أظلك فهو سماء، وجاء في الأخبار أيضاً في صفة الجنة أن ترابها من زعفران. فدل ذلك على أن لها أرضاً، فالمراد: تلك السموات وتلك الأرض.

وفي هذا القول نظر؛ لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه. ومن عرفه فإنما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه.

وأما مجيء الاستثناء فقد قيل: إن قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فيه إجمال. وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة مصرحة بأنهم خالدون فيها أبداً، وظاهرها أنه خلود لا انقطاع له، والظهور من المرجحات، فالظاهر مقدم على المجمل كما هو مقرر في الأصول.

وقيل: إن (إلا) في سورة هود بمعنى سوى ما يشاء الله من الزيادة على مدة دوام السموات والأرض.

وقيل إن الاستثناء على ظاهره، وأنه يأتي على النار زمان ليس فيها أحد. فقد قال ابن مسعود – رضي الله عنه – ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد. وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً.

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنها تأكلهم بأمر الله.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٢) مثل حديث. سبعة يظلهم الله في ظله .. رواه الشيخان وابن كثير: ٤/ ٢٥.

وقيل: إن هذه النار التي لا يبقى فيها أحد. هي الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين، كما جزم به البغوي في تفسيره؛ لأنه يحصل به الجمع بين الأدلة، وإعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما.

وقيل. إن هذا الاستثناء، إنما هو استثناء لا يفعله؛ كما تقول لأهجرنك إلا أن أرى غير ذلك، وعزمك على هجرانه أبداً، وتعليق ذلك بالمشيئة على سبيل التأكيد للخلود والتبعيد للخروج؛ لأن الله تعالى لا يشاء إلا تخليدهم على ما حكم به. وهو معنى قول ابن عباس – رضي الله عنهما – «إلا ما شاء ربك وقد شاء أن يخلدوا فيها».

قال الزجاج: وفائدة الاستثناء إعلامنا أنه لو شاء أن لا يخلدهم لما خلدهم، ولكنه ما شاء إلا خلودهم. وذلك كقوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ ﴾ [1] . أي سنعلمك القرآن حتى لا تنساه. وفائدة الاستثناء الإعلام بأنه سبحانه لو شاء أن ينسيه القرآن لفعل إذ ذلك تحت قدرته ولكنه ما شاء ذلك.

وقيل: إن المستثنى هو زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة، وزمان أهل النار للذين شقوا وهلاكهم، ثم يجدد الله لهم خلقهم.

أو المراد به: الزمن الذي تسبق به كل زمرة أختها عند دخولهم الجنة أو النار.

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ٦، ٧.

وقيل: إن المستثنى هو زمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب. فإن الأشقياء والسعداء في ذلك الزمان كله ليسوا في النار، ولا في الجنة. والمعنى خالدون في النار أو في الجنة، دائمون فيهما مدة كونهم في القبور: (ما دامت السموات والأرض) في الدنيا فإذا فنيتا وعدمتا: انقطع ثوابهم وعقابهم إلى أن يبعثهم الله للحساب، فقوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ استثناء وقع على ما يكون في الآخرة، والمراد بالمدة التي استثناها الله تعالى: المدة التي بين بعثهم من قبورهم، واستقرارهم في مصيرهم.

وقيل: إن الاستثناء من الخلود. إنما يتناول الذين شقوا ودخلوا النار من أهل التوحيد، وكانوا قد ضموا إلى إيمانهم وطاعتهم: ارتكاب المعاصي. فأخبر سبحانه أنهم معاقبون في النار إلا ما شاء ربك من إخراجهم إلى الجنة، وإيصال ثواب طاعتهم إليهم. أي: إلا ما شاء ربك أن يخرجه بتوحيده من النار ولا يخلده فيها. وقد تكون (ما) بمعنى (من) قال سبحانه: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1]. وقالت العرب عند الرعد: سبحان ما سبحت له. والاستثناء على هذا من الأعيان.

وأما في أهل الجنة، فهو استثناء من خلودهم أيضاً؛ لأن من ينقل إلى الجنة من النار ويخلد فيها، لا بد في الإخبار عنه بتأبيد خلوده من استثنائه ما تقدم. فكأنه قال: خالدين فيها إلا ما شاء ربك من الوقت الذي أدخلهم فيه النار قبل أن ينقلهم إلى الجنة، وما في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ على بابها، والاستثناء من الزمان.

---

(١) الآية: ١، من سورة الحديد والحشر والصف.

وعلى هذا القول، فالذين شقوا، هم الذين سعدوا بأعيانهم، وإنما أجرى عليهم كل لفظ في الحال الذي تليق به، فإذا دخلوا النار وعوقبوا فيها، فهم من أهل الشقاء، وإذا نقلوا منها إلى الجنة، فهم من أهل السعادة.

روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: الذين شقوا ليس فيهم كافر، وإنما هم قوم من أهل التوحيد، يدخلون النار بذنوبهم، ثم يتفضل الله عليهم فيخرجهم من النار إلى الجنة، فيكونون أشقياء في حال، سعداء في حال أخرى.

وقيل: إن المستثنى هو: الزيادة من العذاب لأهل النار في الاستثناء الأول، والزيادة من النعيم لأهل الجنة في الاستثناء الثاني. والتقدير: خالدين قدر مدة الدنيا إلا ما شاء ربك من الزيادة. والخلود على هذا المقدار إلى غير نهاية، كما يقول: الرجل لغيره: لي عليك ألف دينار، إلا الألفين اللذين أقرضتكهما وقت كذا، فالألفان زيادة على الألف بغير شك؛ لأن الكثير لا يستثنى من القليل. وكقولك: لأسكننك في هذه الدار حولاً إلا ما شئت، أن أزيدك على الحول، وعلى هذا تكون إلا بمعنى سوى أو غير، أي: سوى ما شاء ربك، كما يقال: ما كان معنا رجل إلا زيد أي: سوى زيد أو غير زيد.

والمعنى: إلا ما شاء ربك من أجناس العذاب الخارجة عن هذين الضربين؛ من سخط الله عليهم، والزمهرير، وغيره من أنواع العذاب سوى النار؛ ولا يتعلق الاستثناء بالخلود.

وفي أهل الجنة يتصل بما دل عليه الكلام، فكأنه قال لهم فيها نعيم إلا ما شاء ربك من أنواع النعيم كالزيادة التي وعدهم الله بها بقوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ

أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1] . وزيادة ورضوان الله كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[2] .

فهذه الزيادة من أنواع النعيم، هي المرادة بالاستثناء، ويعضد هذا الوجه: قوله تعالى بعد ذكر الاستثناء: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[3] . وقوله تعالى بعد ذكر السعداء: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[4] .

يعني: أنه يفعل بأهل النار ما يريد من أنواع العذاب، ويعطي أهل الجنة أنواع العطاء الذي لا انقطاع له.

فاختلاف المقطعين يؤكد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا، فتأمل كيف يفسر القرآن بعضه بعضاً؟

وقيل: إن (إلا) هنا بمعنى الواو أي: وما شاء ربك من الزيادة، وهذا القول قد ضعفه محققو النحويين.

وقيل: إن (إلا) بمعنى الكاف، والتقدير: كما شاء ربك، ومنه قوله تعالى:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠٨.

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [(١)] . أي: كما قد سلف، وهذا القول يرد عليه أن (إلا) بمعنى الكاف، لم يسمع به وقد سبق أن ضعف محققو النحويين: أن تكون (إلا) بمعنى الواو، وأيضاً: فليس معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ كما قد سلف، بل المعنى: إلا ما قد سلف فعله في الجاهلية.

وقيل: إن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذي ندب إليه الشارع في كل كلام فهو على حد قوله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [(٣)] .

ظاهر هذه الآية: أن الله أرسل رسلاً من الجن، والرسل إنما كانت من الإنس خاصة فكيف ذلك؟

والجواب: إن قوله (منكم) لا يدل على المشاركة في أن هناك رسلاً من الجن، بل قد يجوز أن يريد بالمشاركة في أنه من المكلفين العقلاء الذين يصلحون لذلك، وهم الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [(٤)] .

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧. مسائل الرازي: ١٤٢/ ٢١٨، والبيضاوي: ١/ ٤٨٢.

(٣) سورة الأنعام، ١٣٠.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

أو: أن الرسل من الإنس، وإنما قال (منكم) ليغلب أحد الطرفين على الآخر: كما قال سبحانه: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]. واللؤلؤ إنما يخرج من الماء المالح دون العذب.

وقيل: إن الله بعث إليهم رسلاً منهم، فتكون الآية على ظاهرها[2].

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾[3].

كيف خص هذه الأشياء الثلاثة بالتحريم، مع أن غيرها - وهو كثير - محرم؟

والجواب: إن هذا لفظ عام خصص بدليل آخر، وهو آية المائدة: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

(٢) مسائل الرازي: ٨٨ - ٨٩، ومجمع البيان: ٧/ ١٩٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣.

وما ورد في السنة من المحرمات. ويكون قد خص هذه الأشياء بالتحريم تعظيماً لحرمتها؛ ولأن المنخنقة والموقوذة والمتردية وغيرها: يقع عليه اسم الميتة، فيكون في حكمها، فأجمل هاهنا، وفصل هناك.

وقيل: إن وقت نزول هذه الآية لم يكن محرماً غير ما ذكر ونص عليه في هذه الآية، ثم حرم بعد نزولها أشياء أخرى.

وقيل: إن معنى الآية لا أجد محرماً مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها، إلا ما أوحي إليّ في هذه الآية [1].

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [2].

هذا الكلام الذي قاله المشركون: حق وصدق، فكيف كذبهم؟

والجواب: إن كلامهم بالنظر إلى ذاته حق وصدق لا شك فيه، فلو شاء الله ما أشركوا به شيئاً، ولا حرموا شيئاً مما لم يحرمه كالبحائر، والسوائب، وتكذيب الله لهم ليس على هذا الكلام، وإنما على باطلهم الذي قصدوه بهذا الكلام.

وإيضاح ذلك: أن مرادهم: أنه لما كان كفرهم وعصيانهم بمشيئة الله،

---

(١) مجمع البيان: ٨/ ٢٢٢، وتفسير الخازن: ٢/ ٦١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

وأنه لو شاء لمنعهم من ذلك. فعدم منعه لهم دليل على رضاه بفعلهم، فكذبهم الله في ذلك مبيناً أنه لا يرضى بكفرهم، كما نص عليه بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (١).

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية يلزمها الرضا وهو زعم باطل، بل الله يريد بإرادته الكونية ما لا يرضاه. بدليل قوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢) مع قوله: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ والذي يلازم الرضا حقاً إنما هو الإرادة الشرعية. فكلام الكفار بذلك حق أريد به باطل، فهم لا يعلمون: أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، حتى يقولوا هذا الكلام على جهة الاعتذار عن قبح أفعالهم، وإنما قالوا ذلك استهزاء وتبريراً لما أنكر عليهم من الشرك، وتحريم ما لم يحرمه الله (٣).

ونظير هذا قولهم: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٤).

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (٥).

وإيتاء موسى الكتاب كان قبل نزول القرآن الكريم، فكيف عبر بثم الدالة على التعقيب بعد ذكر المحرمات؟

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ١٣٨، بتصرف.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٢٠.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.

والجواب: إنه لما كان هذه المذكورات محرمات على جميع الأمم، وفي جميع الشرائع صح التعبير بثم، فكأنه قال: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً، ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب، يعني: بعد إيجاب هذه المحرمات.

وقيل: إن ثم هنا لتأخير الخبر، لا لتأخير النزول، والمعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم وهو كذا، وكذا إلى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ثم أخبركم أنا آتينا موسى الكتاب، فيكون عطف خبر على خبر، لا عطف معنى على معنى، كما يقال: علمت فلاناً العلم ثم ربيته، فيكون قصده: إعلام إنعامه عليه، لا ترتيب ذلك، فكأنه قال: ثم نعلمك يا محمد أنا آتينا موسى الكتاب.

وقيل: إن المعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. ثم قال بعد ذلك: يا محمد إنا آتينا موسى الكتاب، فحذف لفظة قل لدلالة الكلام عليها.

وقيل: إن ثم تستعمل للعطف من غير اعتبار ترتيب ولا مهلة كالواو.

وقيل: إنه معطوف على معنى التلاوة، والمعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ثم أتل عليكم ما آتاه الله موسى.

وقيل إنه متصل بقوله في قصة إبراهيم: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ ﴾ [1]. فعد سبحانه نعمته عليه بما جعل في ذريته من الأنبياء، ثم عطف عليه بذكر ما أنعم به على موسى من الكتاب والنبوة وهو أيضاً من ذريته وهو بعيد.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٤.

وقيل: إن الذي بعد ثم مقدم على الذي قبلها في النية والتقدير: ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد ﷺ[(١)].

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾[(٢)].

كيف قال: ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ وتلى غيره؟ وكيف خص مال اليتيم بالنهي عن قربانه إلا بالتي هي أحسن، ومال غيره كذلك أيضاً؟ وكيف غيا النهي ببلوغه الأشد، وهو منهي عنه مطلقاً؟ وكيف خص العدل بالقول، والحاجة إلى العدل في الفعل أمس؛ لأن الضرر الناشئ عن الجور الفعلي أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولي؟

والجواب عن الأول: إن قوله: ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ لا ينفي تلاوة غيره، فقد تلى ما حرم، وتلى غيره أيضاً، وقيل: إن فيه إضماراً تقديره: أتل ما حرم ربكم عليكم وأوجب.

والجواب عن الثاني: إنه إنما خصه بالنهي؛ لأن طمع الطامعين فيه أكثر لضعف مالكه وعجزه، وقلة الحافظين والناصرين له ولعظم إثمه.

---

(١) الخازن: ٢/ ٢٦٦، ومجمع البيان: ٨/ ٢٣٦، وزاد المسير: ٣/ ١٥٢، وتنزيه القرآن: ١٤٠.

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٥١، ١٥٢.

والجواب عن الثالث: إنه ليس بلوغ الأشد غاية للنهي، إذ لا يجوز أكل مال اليتيم بعد بلوغه، وإنما هو غاية لما يفهم من النهي، كأنه قال: احفظوه حتى يصير بالغاً رشيداً؛ فحينئذ سلموه إليه كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾[(١)].

وقيل: إن الغاية لمحذوف تقديره: حتى يبلغ فسلموه إليه.

والجواب عن الرابع: إنه لما خص العدل بالقول ليعلم وجوب العدل في الفعل بالطريق الأولى؛ فمن جعل عادته العدل في القول دعاه ذلك إلى العدل في الفعل، ويكون ذلك من آكد الدواعي إليه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾[(٢)] ولم يقل: ولا تسبهما، ولا تشتمهما ولا تضربهما؛ لأن ذلك معلوم من باب أولى.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[(٣)]. وقال الله عز وجل: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[(٤)].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[(٥)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ١٢.

وقال عز من قائل: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [١].

وقال جلت حكمته: ﴿ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ ﴾ [٢].

وفي الحديث: «**ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**» [٣].

الآية الثانية والرابعة والحديث يدلون على أن الضالين يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة، ويحملون أيضاً من أوزار الأتباع الذين أضلوهم. والآية الأولى والثالثة والخامسة تدل على أنه لا يحمل أحد وزر غيره، ولو كان ذا قربى، فكيف الجمع بينهما؟

والجواب: إنه لا يحمل أحد وزر غيره ولو كان ذا قربى، وهؤلاء الضالون قد تحملوا إثم أوزارهم كاملة، ولا ريب في هذا، وقد تحملوا بعض إثم أوزار من أضلوهم، وهذا نصيب التسبب في الإضلال والتشريع لهم بغير علم، وهو ذنب من ذنوب الضالين فأخذوا به. فهم قد تحملوا وزر الضلال ووزر الإضلال. فمن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً.

فالمراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ أي لا تزر وازرة وزر أخرى لا يكون مضافاً إليها بمباشرة، أو تسبب لتحقيق إضافته إلى غيرها

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٨.

(٣) تخريج هذا الحديث.

على الكمال. أما إذا لم يكن كذلك فهو وزرها من وجه فتزره، وقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ ﴾ معناه: وما الكافرون بحاملين شيئاً من خطايا المؤمنين التي ضمنوا حملها (وليحملن) الكافرون أثقال أنفسهم وهي ذنوب ضلالهم ﴿ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وهي ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفار لا خطايا المؤمنين التي نفى عنهم حملها.

وقيل المعنى عليه: لا تزره طوعاً كما زعم المشركون بقولهم للنبي ﷺ ارجع لديننا ونحن كفلاء بما يلحقك من تبعة في دينك. وهو المراد بقول الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾.

والآيات والأخبار التي تثبت حملهم لأوزار مع أوزارهم، فالمراد أنها تحمله كرهاً [(١)].

***

(١) دفع إيهام الاضطراب: ١٧٢، ومسائل الرازي: ص٩١.

سورة الأعراف

قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝﴾[1].

الإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس – وهو العذاب – فكيف صح هذا التعبير؟

والجواب: إن في الكلام حذفاً تقديره: وكم من قرية حكمنا بإهلاكها، أو أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝﴾[3].

وقيل: الهلاك والبأس قد يقعان معاً، كما يقال: أعطيتني فأحسنت إلي، فلم يكن الإحسان قبل الإعطاء ولا بعده، وإنما وقعا معاً، وتكون الفاء بمعنى الواو، وهي لمطلق الجمع، ولا ترتيب معها.

وقيل: إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية، فيكون المعنى: وكم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع.

وقيل: المعنى أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها، فجاءها بأسنا.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٨.

وفي هذين القولين الأخيرين تكلف ظاهر [١].

قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [٢].

وقال عز وجل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [٣].

علام يسأل الذين أرسل إليهم بعد إقرارهم بالكفر واعترافهم بالظلم، وعلام يسأل الرسل بعد صونهم وعصمتهم من التقصير؟ وكيف الجمع بين إثبات السؤال في الآية الأولى، ونفيه في الآية الثانية؟

والجواب عن الأول: إن الله عز وجل يسألهم عن السبب في عدم إجابتهم لرسلهم، والعلة في عدم امتثالهم لأوامرهم، والفائدة من سؤالهم بعد اعترافهم بالظلم: التقريع والتوبيخ لهم، إذ أنهم لما اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين، سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم والتقصير؛ لأنهم إذا أقروا على أنفسهم، كان أبلغ في المقصود، وأيضاً لتعلم الخلائق أنه سبحانه أرسل الرسل، وأزاح العلة، وأنه لا يظلم أحداً، وليعلم الكفار أنهم استحقوا العذاب بأفعالهم، وليزداد سرور أهل الإيمان بالثناء الجميل عليهم، ويزداد غم الكفار بما يظهر من أفعالهم القبيحة، ومنها: أن ذلك لطف بالمكلفين، إذا أخبروا به، فيتأهب العباد بحسن الاستعداد لذلك السؤال.

كما يسأل الرسل عن تبليغهم لرسالة ربهم، أو عما عملت أممهم فيما

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٨٨، وتفسير الخازن: ٢/ ٧٢، ومسائل الرازي: ٩٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.

جاؤوا به، وذلك على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا إليهم من الأمم، إذ الكفار يوم القيامة ينكرون قيام رسلهم بواجب التبليغ ويقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[1]. وفائدة السؤال مع العلم بأنهم لم يقصروا التقريع والتوبيخ للكفار، إذ بجواب الرسل يزداد خزيهم وهوانهم وعذابهم، فإذا بينت الرسل أنهم لم يصدر عنهم تقصير ألبتة، التحق التقصير كاملاً بالأمم، فيتضاعف إكرام الله تعالى للرسل؛ لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير، ويتضاعف الخزي والهوان في حق الكفار؛ لما ثبت أن ذلك التقصير إنما كان منهم[2].

والجواب عن الثاني: إنه تعالى نفى أن يسألهم سؤال استرشاد واستعلام، من حيث إن الله سبحانه وتعالى علم أعمالهم، وإنما يسألهم سؤال تبكيت وتقريع وتوبيخ، وتقرير لإيجاب الحجة عليهم، وإنزال العذاب بهم، ولذلك قال عقيبه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾[3].

وسؤال الاستعلام مثل قولك: أين زيد؟ ومن عندك؟ ومثل هذا لا يجوز على الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى كما يعلم العلن، وسؤال التوبيخ والتقريع كمن يقول: ألم أحسن إليك فكفرت نعمتي، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[4]. وقوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[5].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٩.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ٧٤، ومجمع البيان: ٨/ ١٤ والفتوحات الإلهية: ٢/ ١٢٢.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٤١.

(٤) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٥.

وقيل: إنهم يسألون يوم القيامة سؤالاً حقيقياً، كما قال تعالى:﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] . ثم تنقطع مساءلتهم بعد إقامة الحجة عليهم، وثبوت استحقاقهم للعقوبة ودخولهم النار، فلا تنافي بين الخبرين، بل هو إثبات للسؤال في وقت، ونفي له في وقت آخر.

وقيل: إن في القيامة مواقف، ففي بعضها يسأل، وفي بعضها لا يسأل فلا تضاد بين الآيات.

وقيل: إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد، وتصديق الرسل، وعدم السؤال: محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2] .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3] .

وزن الشيء وسيلة إلى العلم به، والله عز وجل عليم بكل شيء، ومن جملة ذلك: علمه بمقادير أعمال العباد، فكيف ذلك؟ وكيف توزن الأعمال؟ ولم جمع الميزان، وهو في يوم القيامة واحد؟

والجواب عن الأول: أن وزن الأعمال لحكم كثيرة منها: إظهار العدل، وأن الله عز وجل لا يظلم عباده، ومنها امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا،

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآيات: ٦٥.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٨، ٩.

وإقامة الحجة عليهم في العقبى، ومنها: تعريف العباد ما لهم من خير وشر، وحسنة وسيئة، ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة، ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ، ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى [(١)].

والجواب عن الثاني: إن الأعمال – وإن كانت أعراضاً – لا ثقل لها ولا جسم، فالله عز وجل يحيلها إلى جواهر وأجسام، فتتصور أعمال المطيعين في صورة حسنة، وأعمال العاصين في صورة قبيحة، ثم يزنها، والله على كل شيء قدير.

وقيل: الموزون هو صحائف الأعمال [(٢)].

والجواب عن الثالث: إنه جمعه؛ لأنه أراد بالميزان: الموزونات من الأعمال: فلما كانت الأعمال: توزن وزنة بعد وزنة: سميت موازين.

وقيل: إنما جمعه لأنه ميزان يقوم مقام موازين، ويفيد فائدتها؛ لأنه يوزن به ذرات الأعمال، وما كان منها في عظم الجبال.

وقيل: إنما جمع الموازين؛ لأنه يجوز أن يكون لكل نوع من أنواع الطاعات يوم القيامة ميزان. ويجوز أن يكون كل ميزان صنفاً من أصناف أعماله. ويؤيد هذا ما جاء في الخبر أن الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى.

وقيل: إن العرب توقع لفظ الجمع على الواحد وذلك من هذا الباب.

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٧٤.

(٢) مسائل الرازي: ٩٢.

وقيل: إنما جمعه؛ لأن الميزان يشتمل على اللسان والكفتين والشاهين [(١)].

ولا يتم الوزن إلا باجتماع ذلك كله، وهذا الأخير ليس بشيء [(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ ﴾ [(٣)].

الأمر بالسجود لآدم – عليه السلام – كان قبل خلقنا وتصويرنا، فكيف التعبير بثم، وهي تدل على الترتيب؟

والجواب: إن المراد: ابتدأنا خلق أبيكم آدم من التراب، ثم صورناه بطريق حذف المضاف كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ [(٤)]. أي: ميثاق أسلافكم ومن كلام العرب. فعلنا بكم كذا وكذا، وهم يعنون أسلافهم، وعلى هذا: فثم على بابها.

وقيل المراد: ولقد خلقنا أباكم ثم صورناكم في ظهره، وعليه فثم أيضاً على بابها؟

وقيل: إن الكلام على ظاهره، وثم هنا إما للترتيب الإخباري لا الوجودي، فكأنه قال: خلقناكم ثم صورناكم، ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، والمعنى: خلقناكم في أصلاب الرجال، ثم صورناكم في أرحام

---

(١) الجزء السفلي من الميزان الحامل للكفتين.

(٢) مسائل الرازي: ٩٢، وزاد المسير: ٥/ ٣٥٥، ومجمع البيان: ٨/ ١٦، وتفسير الخازن: ٢/ ٤٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

النساء، أو خلقناكم في الرحم ثم صورناكم بشق السمع والبصر وسائر الأعضاء، وإما أن تكون ثم هنا: لتفاوت ما بين نعمتي السجود له وما قبله؛ لأن السجود له أكمل إحساناً، وأتم إنعاماً مما قبله.

وقيل: إن (ثم) هنا في معنى الواو، ورده الجمهور من علماء اللغة [١].

قال الله تعالى: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [٢].

كيف خص عدم جواز الكبر في السماء أو في الجنة، وهو لا يجوز لغير الله سبحانه على حال؟

والجواب: إنه لما كانت السماء مقراً للملائكة المطيعين الذين لا توجد منهم معصية أصلاً، كان وجود المعصية منهم أقبح، فلذلك خص مقرهم بالذكر.

وقيل: إنما خصهما بالذكر؛ لأنه لا ينبغي أن يسكنهما متكبر مخالف لأمر الله عز وجل، فأما غيرهما. فقد يسكنهما المتكبر عن طاعة الله تعالى، وهم الكفار والعصاة الساكنون في الأرض.

وقيل: إن في الكلام حذف معطوف تقديره: فما يكون لك أن تتكبر فيها، ولا في غيرها كما قال تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾ [٣].

---

(١) مسائل الرازي: ٩٣، والفتوحات الإلهية: ٢/ ١٢٤، وابن كثير: ٢/ ٧، ومجمع البيان: ٨/ ١٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨١. مسائل الرازي: ٩٣، وتفسير الخازن: ٢/ ٧٦، ومجمع البيان: ٨/ ٢٢، والفتوحات: ٢/ ١٢٦.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ ﴾[١].

كيف أجيب إبليس – عليه اللعنة – وهو إنما طلبه ليفسد أحوال الناس ويغويهم؟

والجواب: إنه أجيب لما في ذلك من ابتلاء العباد، ولما في مخالفته من عظيم الثواب. ونظير ذلك ما خلقه الله تعالى في الدنيا من أصناف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركبه الله في الأنفس من الشهوات؛ ليمتحن بها عباده، ومن ثم جعله من المنظرين إلى وقت قيام الساعة، إهانة له وإمهالاً ليزداد في بلائه وشقائه[٢].

قال الله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾[٣].

كيف وسوس الشيطان لآدم – عليه السلام – وهما في الجنة، وإبليس كان قد أخرج منها؟ وكيف قبل آدم – عليه السلام – هذه الوسوسة، وهو قد عرف ما بينه وبين إبليس من العداوة؟

والجواب: إنه لا يشترط القرب المكاني حتى يتمكن إبليس من عمله ووظيفته، فقد أعطاه الله من القوة ما يستطيع به أن يوسوس في الأرض أو في السماء أو في الجنة.

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) مسائل الرازي: ٩٣، والخازن: ٣/ ٩٦، وزاد المسير: ٣/ ١٨١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

وقيل: إنه وسوس لهما – وهما في الجنة – وهذه الجنة: كانت من بعض جنان الأرض، والذي يقوله بعض الناس من أن إبليس دخل في جوف الحية، فدخلت به الحية إلى الجنة، فقصة مشهورة ركيكة، ورائحة الوضع بادية عليها.

وقيل: إن آدم وحواء ربما قربا من باب الجنة، وكان إبليس واقفاً عنده من خارجها، فقرب أحدهما من الآخر، فحصلت الوسوسة هناك.

والجواب عن الثاني: إن آدم – عليه السلام – قبل قول إبليس، وأثرت فيه وسوسته على الرغم من أنه قد عرفه وعلم مراده، وتحقق من عداوته عندما أبى الانصياع لأمر الله تعالى في السجود له، ورغبة في الأكل من الشجرة المنهي عن الاقتراب منها، بغية نيل الخلد والملك الذي لا يبلى، ليتحقق قضاء الله عز وجل وتنفيذ مشيئته الكونية. ويدل لذلك قول آدم لموسى – عليهما السلام – : «**أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين** سنة» [١].

وقيل: يحتمل أن إبليس لقي آدم مراراً كثيرة، ورغبه في الأكل من الشجرة بطرق كثيرة منها: رجاء نيل الخلد، ومنها قوله: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [٢].

فلأجل هذه المواظبة والمداومة على هذا التمويه، أثر كلام إبليس في آدم حتى أكل من الشجرة [٣].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٤٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢١.

(٣) تفسير الخازن: ٢/ ٧٢، بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1].

أي آية لله تعالى في اللباس والكسوة حتى قال: ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ؟

والجواب: إنه لما كان اللباس والكسوة من النبات الذي يخرجه الله تعالى من الأرض، ويكون منه طعام الإنسان والحيوان، وجيد اللباس، كان في ذلك دلالة على كمال قدرته، وبديع صنعته.

وقيل: إن اللباس والكسوة للإنسان خاصة علامة من العلامات الدالة على أن الله تعالى كرم بني آدم، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وقيل: المعنى ذلك من نعم الله[2].

ويرد على هذا القول، أن الآية تطلق في اللغة على معان عدة، وليس منها النعمة.

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

(٢) مسائل الرازي: ٩٤، بتصرف.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

وقال عز وجل: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (١).

في الآية الأولى نزه الله ذاته العلية، أن تأمر بالفحشاء، وفي الآيتين الثانية والثالثة، ما يوهم ظاهره، الأمر بالفحشاء. فما سبيل الجمع بينها؟

والجواب: إن الأمر المنفي في الآية الأولى: هو الأمر الشرعي الديني، والأمر المثبت في الثانية: هو الأمر الكوني القدري، كقوله تعالى: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً ﴾ (٢). وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣).

والمعنى: قدرنا عليهم الفسق بمشيئتنا، فظهر أن الأمر المنفي غير المثبت فلا تنافٍ.

وقيل إن معنى الآية الثانية: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ كثرناهم حتى بطروا النعمة ففسقوا.

وقيل: المعنى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ بعد قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي: رؤساءها وساداتها بالطاعة واتباع الرسل، أمراً بعد أمر، نكرره عليهم، وبينة بعد بينة نأتيهم بها، إعذاراً للعصاة، وإنذاراً لهم، وتوكيداً للحجة عليهم ﴿ فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ بالمعاصي،

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.

وأبوا إلا تمادياً في العصيان والكفران ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: فوجب حينئذ عليها الوعيد.

﴿ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ أي: أهلكناها إهلاكاً، ويشهد بصحة هذا التأويل: الآية المتقدمة، وهي قوله تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝ ﴾[1]. وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ جوابا لإذا، ويكون المراد بالأمر: الأمر الذي هو نقيض النهي.

وعلى هذا القول يؤول ما روي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير - رضي الله عنهم - أن المعنى: أمرنا بالطاعة والخير فعصوا وفسقوا، ومثله: أمرته فعصاني، وأمرته فخالفني فلا يفهم منه: الأمر بالمعصية، ولا الأمر بالمخالفة، وإنما يفهم منه: أن المأمور به شيء غير المعصية؛ لأن المعصية منافية للأمر مناقضة له، فكذلك أمرته ففسق، يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق؛ لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به ويناقضه.

ولا يقال: لو كان المضمر المحذوف: الأمر بالطاعة، لما كان مخصوصاً بالمترفين، إذ أن أمر الله تعالى: بالطاعة عام للمترفين وغيرهم؛ لأن أمر الله عز وجل بالطاعة وإن كان عاماً. لكن: لما كانت الرغبة تابعة لأمرائها ورؤسائها - وهم المترفون - وكان صلاحها وفسادها غالباً - مرتبط بصلاح وفساد

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

الرؤساء والأمراء، خصهم بالذكر، وكان الأمر لهم أمراً لأتباعهم. ولهذا جاء في الخبر: «صلاح الوالي صلاح الرعية، وفساد الوالي فساد الرعية».

وقد اعترض على هذا التأويل: بأنه لا يجوز أن يكون المعنى: أمرناهم بالطاعة ففسقوا؛ لأن حذف ما لا دليل عليه في اللفظ غير جائز، فكيف يقدر حذف ما قام الدليل في اللفظ على نقيضه.

وذلك لأن قوله: (ففسقوا) يدل على أن المأمور به المحذوف هو: الفسق، وهو كلام مستفيض - يقال: أمرته فقام، وأمرته فقعد، وأمرته فقرأ، ولا يفهم منه إلا أن المأمور به: القيام والقعود، والقراءة بخلاف قولهم: أمرته فعصاني، وأمرته فخالفني، حيث لا يكون المأمور به المحذوف: المعصية والمخالفة؛ لأن ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر وينافيه، مأموراً به، فيكون المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي، والمتكلم بمثل هذا لا ينوي لأمره مأموراً به، بل كأنه قال: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، أو كانت منه مخالفة: كما تقول: مر زيداً يطعك، وكما تقول: فلان يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويضر وينفع، فإنك لا تنوي مفعولاً.

ولا يقال: على هذا فحقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون من الله، فلا يقال: يقدر الفسق محذوفاً ولا مأموراً به؛ لأن الفسق المحذوف المقدر مجاز عن إترافهم، وصب النعم عليهم صباً أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصي، ووسيلة إلى اتباع الشهوات، فكأنهم أمروا بذلك لما كان السبب في وجوده الإتراف، وفتح باب النعم.

ولا يقال: لم لا يكون ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر

بالطاعة والعدل والخير، دليلاً على أن المراد: أمرناهم بالطاعة ففسقوا.

لأنه لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير: لكان المتكلم مريداً من مخاطبه علم الغيب؛ لأنه أضمر ما لا دلالة عليه في اللفظ، بل أبلغ؛ لأنه أضمر في اللفظ ما يناقضه وينافيه، وهو قوله: ﴿ فَفَسَقُواْ ﴾ فكأنه أظهر شيئاً وادعى إضمار نقيضه، فكان صرف الأمر إلى ما ذكرنا من المجاز هو الوجه.

يقول الرازي: هذا كله كلام الزمخشري، ولا أعلم أحداً من أئمة التفسير صار إليه غيره، ثم إنه أيده فقال: ونظيره: أمر، شاء، في أن مفعوله استفاض الحذف فيه لدلالة ما بعده، تقول: لو شاء فلان لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان لأحسن، ولو شاء الإساءة إليك لأساء.

فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت، وتعني: ولو شاء الإساءة لأحسن إليك، ولو شاء الإحسان لأساء إليك، وتقول: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة، أنه من أهل الإحسان دائماً، ومن أهل الإساءة دائماً، فيترك الظاهر المنطوق به، ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سداد [1].

ولكن الزمخشري ليس على سداد فيما ذهب إليه وزعم، إذ في الوقت الذي عاب فيه الإضمار بدون دليل، جاء بإضمار لا دليل عليه.

وبعد أن راح ينسج المقدمات، وينتزع النتائج، عاد إلى القول بالمجاز، ثم أليس الحال والمقام، والسياق واللحاق: من أقوى الأدلة على البيان والتأويل؟

والرازي حين ائتم به وقال: ولا أعلم أحداً من أئمة التفسير صار إليه

(١) مسائل الرازي: ١٨٦ – ١٨٧، مجمع البيان: ١٥/ ٣٠.

غيره، يقصد بذلك مدحه ونصرته «إنما ذمه وشانه من حيث لا يدري، إذ مخالفة الإجماع – ولا سيما من أئمة الفن ورواده – بدعاً من القول».

وقيل: إن قوله: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ من صفة القرية، والتقدير: وإذا أردنا أن نهلك قرية صفتها: أنا كنا قد أمرنا مترفيها ففسقوا فيها. فلا يكون لإذا جواب ظاهر في اللفظ للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

فلم يأت لإذا جواب في طول الكلام، للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه.

وقيل: إن الآية محمولة على التقديم والتأخير، وتقديرها: إذ أمرنا مترفي قرية بالطاعة، فعصوا، وأردنا إهلاكهم، ومما يمكن أن يكون شاهداً لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾[2]. وقيام الطائفة معه يكون قبل إقامة الصلاة؛ لأن إقامتها هو الإتيان بجميعها على الكمال وقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ [1]. والطهارة إنما تجب قبل قيام الصلاة.

وقيل: إنه سبحانه ذكر الإرادة على وجه المجاز والاتساع، وإنما عنى بها قرب الهلاك، والعلم بكونه لا محالة، كما يقال: إذا أراد العليل أن يموت: خلط في مأكله، وأسرع إلى ما تتوق نفسه إليه، وإذا أراد التاجر أن يفتقر، أتاه الخسران من كل وجه.

ومعلوم أن العليل والتاجر: لم يريدا في الحقيقة شيئاً، لكن لما كان من المعلوم من حال هذا الهلاك، ومن حال ذلك الخسران، حسن هذا الكلام، واستعمل ذكر الإرادة لهذا الوجه، ولكلام العرب إشارات واستعارات ومجازات، لأجلها كان كلامهم في الغاية القصوى من الفصاحة [2].

يقول الطبري: والوجه الأول عندي أصح الوجوه وأقربها إلى الصواب، إذا تأولت الآية على الأمر الذي هو ضد النهي، فأما إذا تأولت الآية على معنى القراءتين الأخيرتين من (آمرنا) بالمد، و(أمّرنا) بالتشديد، فلن يخرج على هذا الوجه، وتكون محمولة على أحد الأوجه الأخرى [3].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) مجمع البيان: ١٥/ ٣٠.

(٣) مجمع البيان: ٦/ ٤٠٦، وتفسير الخازن: ٣/ ١٥٩، ومسائل الرازي / ١٨٥، دفع إيهام الاضطراب / ١٣٣.

وأما الآية الثالثة، فالأمر فيها ليس على حقيقته؛ لأن الأمر إذا تقدمه نهي عما يؤمر به فمعناه: التهديد والوعيد، كقوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾[(١)]. وكقول القائل: اجتهد جهدك فسترى ما ينزل بك وتقول للرجل: لا تدخلن هذه الدار، فإذا حاول أن يدخلها قلت: ادخلها وأنت رجل. فلست تأمره بدخولها، ولكنك تتوعده وتهدده. وقيل: إن هذه الأوامر للشيطان على طريقة الاستخفاف به وبمن تبعه[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[(٣)].

بدأ الله خلق الناس: أولاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم لحماً، ونحن لا نعود عند الموت، ولا عند البعث على ذلك الترتيب، فكيف قال عز وجل: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾؟

والجواب: التشبيه في نفس الإحياء والخلق والإيجاد، لا في الأطوار والكيفية والترتيب، والمعنى: كما أوجدكم أولاً من العدم، كذلك يعيدكم بعد العدم.

وقيل: المعنى كما بدأكم سعداء وأشقياء، كذلك تعودون، ويؤيده تمام الآية.

وقيل: المعنى كما بدأكم أولاً من تراب، كذلك تعودون تراباً. ويشير إلى

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) تفسير الخازن: ٣/ ١٧١، زاد المسير: ٥/ ٥٩، فتح القدير: ٣/ ٢٤٢، دفع إيهام الاضطراب: ١٣٣، بتصرف.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

ذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [١].

وقيل المعنى: كما بدأكم لا تملكون شيئاً، كذلك تعودون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [٢].

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [٣].

كيف خص الزينة والطيبات بالذين آمنوا في الحياة الدنيا للذين آمنوا غير خالصة من الهموم والأحزان والمشقة، وهي خالصة يوم القيامة من ذلك.

وقيل: إن في الكلام إضماراً تقديره: قل هي للذين آمنوا غير خالصة في الحياة الدنيا؛ لأن المشركين شاركوهم فيها، خالصة للمؤمنين في الآخرة فهي لهم أصالة، وللكفار تبعاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ [٤].

قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [٥].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٦. مسائل الرازي: ٩٤، الفتوحات الإلهية: ٢/ ١٢٩، مجمع البيان: ٨/ ٤٦.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

وقال عز وجل: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١).

وقال تباركت آلاؤه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ (٢).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته**» (٣).

الحمد إنما يكون على نعم الله التي أنعم بها على العبد، كما في الآية الأولى والأخيرة، فكيف أمر بالحمد في الآية الثانية على عدم اتخاذه ولداً، وعدم وجود شريك له وولي؟

وفي الآية الأولى ونحوها: دلالة على أن الأعمال الصالحة تدخل الجنة، وفي الحديث، دلالة على أن الأعمال الصالحة ليست سبباً في دخول الجنة، فما سبيل الجمع بينها؟ وكيف قال: ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ والميراث: عبارة عما ينتقل من ميت إلى حي، وهو مفقود هنا؟

والجواب عن الأول: إن ملك الملوك إن كان له ولد، فإنما ينعم على عبيده بما يفضل عن ولده. وإن لم يكن له ولد، كان جميع إحسانه وإنعامه، مصروف إلى عبيده، فكان نفي اتخاذ الولد، مقتضياً مزيد الإنعام عليهم.

وأما نفي الشريك؛ فلأنه يكون أقدر على الإنعام على عبيده لعدم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

(٣) صحيح الإمام البخاري – كتاب الرقاق – باب القصد والمداومة على العمل.

المزاحم. وأما نفي الولي أو النصير، فلأنه يدل على القوة والاستغناء وكلاهما يقتضي القدرة على زيادة الإنعام، ومن ثم أمر بالحمد [(١)] .

وقيل: إن الحمد لله – سبحانه – على أفعاله المحمودة. وتوجه الحمد إلى من هذه صفته، كما يقال: أنا أشكر فلاناً الجميل، ولا تشكره على جماله، بل على أفعاله.

وهذا قول وجيه، إذ لو كان المراد: الحمد في مقابل النعم، لكان الأنسب أن يأمره بالشكر كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [(٢)] ولكن الأمر بالحمد يدل على أنه سبحانه مستحق الحمد لذاته [(٣)] .

والجواب عن الثاني: إن العمل الصالح المقبول، لن يناله المؤمن، ولن يبلغه إلا برحمة الله تعالى وحسن توفيقه. وإذا كان نيل العمل الصالح وبلوغه برحمة الله تعالى وتوفيقه، كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله تعالى وفضله.

فالمنفي في الحديث: العمل المطلق أو المجرد عن القبول والمثبت في الآية: العمل الصالح المتقبل بفضل الله ورحمته.

وقيل: دخول الجنة برحمة الله تعالى وفضله، وانقسام الدرجات والمنازل بالأعمال.

ولكن ظاهر النصوص يتناول مطلق الدخول دون ما تعرض للدرجات والمنازل.

---

(١) مسائل الرازي: ١٩٧، بتصرف.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٣) مجمع البيان: ١٥/ ١١٢، بتصرف.

والجواب عن الثالث: إنه لما كان دخول الجنة بفضل الله ورحمته من غير ما عوض، فأشبه الميراث الذي يصل إلى الوارث دون ما مقابل.

وقيل: إن معنى الميراث هاهنا: أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث، وهذا يرجع في المعنى إلى الأول.

وقيل: إن الكلام على تشبيه أهل الجنة، وأهل النار بالوارث والموروث عنه، وذلك أن الله تعالى لما سمى الكافر ميتاً بقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [١]. وسمي المؤمن حياً بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [٢]. وفي الشرع: أن الأحياء يرثون الأموات، فقال: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ يعني: أن المؤمن حي، وهو يرث من الكافر منزله في الجنة؛ لأنه في حكم الميت.

ويرد على هذا، أن المؤمن كما يرث منزل الكافر – في الجنة – فكذلك الكافر يرث منزل المؤمن في النار. ففي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: **«ما من أحد إلا وله منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما الكافر فإنه يورث المؤمن منزله من الجنة، والمؤمن يورث الكافر منزله من النار»** [٣].

فلا فائدة هنا من وصف الكافر بالموت، والمؤمن بالحياة، ما دام كل منهما وارثاً وموروثاً.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢١.

(٢) سورة يس، الآية: ٧٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٦٩.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [١] .

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [٢] .

وقال سبحانه: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [٣] .

كيف أسند النسيان إلى الله سبحانه في الآية الأولى، ونفاه عنه في الآيتين بعدها؟

والجواب: إن النسيان من سمات المخلوقين، أما الخالق - جل وعلا - فلا يضل ولا ينسى. وهؤلاء الكفار لما جحدوا آيات الله، ونسوا يوم البعث، ووقوفهم أمام الله تعالى، عبر بهذه اللفظة مشاكلة لفعلهم، وسوء صنيعهم. والمعنى: فاليوم نتركهم في العذاب محرومين من كل خير، كما تركوا الإيمان بهذا اليوم، وجحدوا آيات الله عز وجل.

وأهل اللغة يستعملون النسيان بمعنى الترك [٤] ، فالمراد من النسيان في جنب الله سبحانه لازمه وهو الترك.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [٥] .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥١.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٤.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٢.

(٤) تنزيه القرآن: ١٤٧، ودفع إيهام الاضطراب: ١٣٣.

(٥) سورة الأعراف، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

متى كان هذا التولي؟ إن كان قبل جثومهم (موتهم)، فكيف قال ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ . وإن كان بعد جثومهم، فكيف يحسن من الحي مخاطبة الميت؟

والجواب: إنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا، وخاطبهم بعد هلاكهم وموتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية توبيخاً وتقريعاً، كما خاطب النبي ﷺ الكفار من قتلى بدر حين ألقوا في القليب، فجعل يناديهم بأسمائهم .. الحديث، وفيه: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً» فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ وفيه: فقال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أقواماً قد جيفوا؟ فقال ﷺ: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون**».

أو أنه خاطبهم أيضاً، ليكون عبرة لمن يأتي بعدهم، فينزجر عن مثل تلك الطريقة التي كانوا عليها.

ويدل عليه قوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ والفاء للتعقيب، فدل على أن هذا التولي – بعد جثومهم.

وقيل: إنه تولى عنهم – وهم أحياء – قبل موتهم وهلاكهم، ويدل عليه أنه خاطبهم بقوله: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ وهذا الخطاب لا يليق إلا بالأحياء.

وعلى هذا القول: يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره: فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم ولكن لا تحبون

الناصحين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، ولكن مالا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل.

وقيل: إنه خاطبهم بهذا الخطاب عند نزول العذاب بهم، وكأنه كان مشاهداً لذلك، فتحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب، ثم أبان عن نفسه بأنه لم يأل جهداً في إبلاغهم الرسالة ومحض النصح، لكنهم أبوا ذلك فلم يقبلوا منه، فحقت عليهم كلمة العذاب، ونزل بهم ما سبق أن استعجلوه وكذبوا به.

ويرد عليه: ما فائدة التحسر عليهم بعد أن وصلوا هذه الدرجة، التي لا تأخذ أحداً يؤمن بالله واليوم الآخر بهم رأفة، وأيضاً لمن هذه الإبانة؟ والله يعلم السر وأخفى [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [(٢)].

وقال عز وجل: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [(٣)].

وقال سبحانه: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا

---

(١) مسائل الرازي: ٩٦، والفتوحات الإلهية: ٢/ ١٦١، وفتح القدير: ٢/ ٢٢٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٧٦، ١٧٧.

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾[1].

في الآية الأولى والثالثة قال: ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ﴾ وفي الآية الثانية قال: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فكيف ذلك؟ وفي الآية الأولى: أمرهم بوفاء الكيل والميزان، وفي الآية الثالثة: نهاهم عن نقصان المكيال والميزان، فكيف ذلك؟ وكيف نهاهم عن الفساد في الأرض بعد إصلاحها، وهم ما سبق منهم إصلاح، فما زالوا مفسدين لا مصلحين.

والجواب عن الأول: إن شعيباً – عليه السلام – أخو مدين في النسب، ومن نسلهم، وقد أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة، فحيث تذكر قصته مع أهل مدين يقول: ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ ﴾ – كما في هذه السورة – وكما في سورة هود، وحيث تذكر قصته مع أصحاب الأيكة يقول: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾؛ لأنه لم يكن منهم. ويدل لهذا القول ما جاء في الحديث «أن شعيباً – عليه السلام – أخو مدين: أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة»، قال ابن كثير عن هذا الحديث: هو غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً[2].

وقيل: إن أمة شعيب – عليه السلام – أمة واحدة اسمها أهل مدين، وأصحاب الرس، وأصحاب الأيكة، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل في سورة الشعراء: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة – وهي شجرة – وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿ كَذَّبَ

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥/ ٢٠٢.

أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾[١]، لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، أو تخفيفاً – وإن كان أخاهم نسباً – فهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء. ولهذا وعظ هؤلاء، وأمرهم بوفاء الكيل والميزان كما في قصة أصحاب الأيكة سواء بسواء، فدل بذلك على أنهم أمة واحدة. ويقول ابن كثير: والصحيح أنهم أمة واحدة.

ويرد على هذا القول أنه تعالى – أمر أهل مدين بوفاء الكيل والميزان، وأمر أصحاب الأيكة بإيفاء المكيال والميزان. والمكيال: اسم لما يكال به، والميزان: اسم لما يوزن به. فقد تكون نقيصة أهل مدين في الشيء المكيل أو: الموزون، ونقيصة أصحاب الأيكة في تخريب آلة الكيل والميزان لتكون في صالحهم.

والتعبيران – وإن كانا قريبين – فقد يكون المراد من الكيل: آلة الكيل، وهو المكيال، وقد يسمى ما يكال به: الكيل، كما يقال العيش لما يعاش به، إلا أن بينهما تغايراً ولو من وجه، وهذا جواب عن السؤال الثاني.

كما يرد عليه أن الله عز وجل أخبر عن وعيده لأهل مدين بأنه أخذهم بالرجفة، وعن وعيده لأصحاب الأيكة: بأنه أخذهم بعذاب يوم الظلة.

والجواب عن الثالث: أن الله عز وجل أرسل الرسل وأنزل الشرائع، وأمر بالإيمان والعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فصلح

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٧٦.

الناس وعمرت الأرض، فنهاهم عن الفساد فيها - بعد هذا الإصلاح - وليس المراد: نهيهم عن الفساد فيها بعد ما سبق منهم من الإصلاح [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [(٢)].

العود: هو الرجوع إلى ما كان عليه قبل، والرسل ما كانوا على ملة الكفر قط، فكيف قالوا: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾ ؟وأجابهم بقوله: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ وكيف قال: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ ﴾ ؟ مع العلم بأن الله سبحانه لا يشاء عبادة الأصنام؟

والجواب عن الأول: إن العرب تستعمل: عاد بمعنى صار ابتداءً، يقولون: عاد لفلان مال، بمعنى: صار، وعاد فلان يكلمني، أي: صار، وأشباه ذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [(٣)]. ويكون المراد أو لتدخلن في ديننا وطريقنا.

---

(١) مسائل الرازي: ٩٦، ٢٥٣، ومجمع البيان: ٩/ ١١٤، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٦٥٧، وأضواء على متشابهات القرآن: ١/ ٢٣٨.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٩.

وقيل: إنهم قالوا ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد، وهم أرادوا من آمن معه، فأدخلوه معهم في الخطاب، وعلى ذلك أجرى شعيب - عليه السلام - جوابه ومراده: عود قومه المعطوفين عليه. ونظير الآية قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [١] . وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [٢].

وقيل: إنما قالوا ذلك على حسب معتقدهم الفاسد؛ لأنه كان عندهم. وفي ظنهم أنه كان قبل ذلك على دينهم، ثم انتقل عنه، فلذلك أطلقوا لفظ العود، وقد كان - عليه السلام - يخفي دينه فيهم.

والجواب عن الثاني: إن المعنى ما كنا لنرجع إلى ملتهم بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار، إلا أن يريد الله إهلاكنا. فأمورنا راجعة إليه، غير خارجة عن قبضته، يسعد من يشاء بالطاعة، ويشقي من يشاء بالمعصية. وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله، ولم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر، ألا ترى إلى قول الخليل - عليه السلام - : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [٣]. وكان نبينا محمد ﷺ كثيراً ما يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» [٤] ، وتصديق ذلك قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [٥] ، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون، وما سيكون لو كان ماذا يكون.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٩.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

وقيل: إن المعنى إلا أن يشاء الله أن يردكم إلى الحق، فنكون جميعاً على ملة واحدة غير مختلفة؛ لأنه قال حاكياً عنهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ .

كان معناه: أو لنكونن على ملة واحدة غير مختلفة، فحسن أن يقول من بعد: إلا أن يشاء الله أن يجمعكم معنا على ملة واحدة.

وقيل: إن الهاء في قوله (فيها) تعود إلى القرية لا إلى الملة؛ لأن ذكر القرية قد تقدم، كما أن ذكر الملة قد تقدم. فيكون تحقيق الكلام: إنا سنخرج من قريتكم، ولا نعود فيها إلا أن يشاء الله بما ينجزه لنا من الوعد في الإظهار عليكم، والظفر بكم فنعود فيها.

وقيل: المراد إلا أن يشاء الله أن يمكنكم من إكراهنا ويخلي بينكم وبينه، فنعود إلى إظهارها مكرهين، ويقوي هذا قوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ .

وقيل: المراد بالملة: الشريعة، وليس المراد بها، ما يرجع إلى الاعتقاد في الله سبحانه وصفاته مما لا يجوز أن تختلف العباد فيه، وفي شريعتهم أشياء يجوز أن يتعبد الله تعالى بها عباده. فكأنه قال: ليس لنا أن نعود في ملتكم إلا أن يشاء الله أن يتعبدنا بها، وينقلنا إليها، وينسخ ما نحن فيه من الشريعة.

وقيل: إنه أراد حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون، كقولهم: لا أكلمك حتى يبيض الغراب، وحتى يلج الجمل في سم الخياط. والغراب لا يبيض، والجمل لا يلج في سم الخياط، فهو من باب التعليق بالمحال ويكون المعنى: كما لا يشاء الله عبادة الأصنام والقبائح؛ لأن ذلك لا يليق بحكمته، فكذلك لا نعود في ملتكم [1] .

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ١١٢، وفتح القدير: ٢/ ٢٢٥، والبضاوي: ١/ ٣٥٩، ومجمع البيان: ٩ / ١١٧، ١١٧، ومسائل الرازي: ٩٧.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [١].

كيف نفى الأمن من مكر الله نفياً عاماً، مع أن الأنبياء معصومون آمنون.

والجواب: إن الحكم هنا عام على الأنبياء وغيرهم، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. وعصمة الأنبياء ومزيد قربهم عن ربهم لا يزيدهم إلا خوفاً من ربهم. وأكابر الأنبياء قد حسبوا لانقلاب الأمور، وتبدل الأحوال كل حساب. فهذا إمام الرسل وخليل الرحمن - عليه السلام - يقول: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [٢]. وذلك خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

وقيل: إن المعنى: لا يأمن عقاب الله جهلاً بحكمته إلا الخاسرون. وبعبارة أخرى: الإبانة عما يجب أن يكون عليه المكلف من الخوف من عقاب الله تعالى؛ ليسارع إلى طاعته واجتناب معاصيه. ولا يستشعر الأمن من ذلك، فيكون قد خسر في دنياه وآخرته بالتهالك في القبائح [٣].

قال الله تعالى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [٤].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٣) أضواء على متشابهات القرآن: ١/ ٢٤٠، بتصرف.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١٠٥، ١٠٦.

كيف قال فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ بعد قول موسى – عليه – قد جئتكم ببينة من ربكم؟

والجواب: أن فرعون أراد أن يشكك قومه في أمر موسى – عليه السلام – ويلبس الأمر عليهم.

والمعنى: (يلبس إن كنت جئت بآية من عند الله فآتني بها، وأحضرها عندي إن كنت صادقاً فيما تدعى وتقول) [١].

قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧﴾ [٢].

وقال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ [٣].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [٤].

كيف الجمع بين هذه الأوصاف المتعددة لأية واحدة؟

والجواب: إن الآيات ليست إخباراً عن هيئة واحدة، بل الحالات مختلفة، فالحالة التي كانت العصا فيها بصفة الجان، كانت في ابتداء النبوة والحالة التي كانت العصا فيها بصفة الثعبان، كانت عند لقائه فرعون.

أو: أنه لما ألقاها: انقلبت حية، ثم عظمت، فلذلك سماها جاناً تارة، نظراً للمبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى، وحية تارة أخرى باعتبار الاسم الذي

---

(١) مسائل الرازي: ٩٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٠.

(٤) سورة طه، الآية: ٢٠.

يعم الحالين. إذ أن لفظ الحية اسم جنس يستعمل في الصغير والكبير، والذكر والأنثى. فالجان والثعبان من أفراد الحية، وهي قد كانت في عظم الجثة كالثعبان العظيم، وفي خفة الحركة والنشاط كالحية الصغيرة – وهي الجان – وهذا أبهر في باب الإعجاز [١].

قال الله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [٢].

كيف اعترفوا بكونها آية، ثم قالوا: لتسحرنا بها؟

والجواب: إنهم ما اعتقدوا أنها آية: بل قالوا ذلك على سبيل الحكاية لتسمية موسى – عليه السلام – لها، ومقصدهم: الاستهزاء والتهكم والسخرية، ونظير هذا قول المشركين – كما حكى القرآن عنهم – ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [٣].

قال الله عز وجل: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [٤].

وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [٥].

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ١١٦، ومجمع البيان: ٩/ ١٣٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٥٧ – ٥٩.

في الآية الأولى دلالة على أن الله عز وجل دمر ما صنعه فرعون وقومه، وأهلك ما كانوا يعرشون. وفي الآية الثانية إشارة إلى أن فرعون وقومه قد ترك لبني إسرائيل خيراً وفيراً من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم. فكيف الجمع؟

والجواب: إن الله تبارك وتعالى دمر الأشياء التي صنعها فرعون وقومه بقصد مضادة الإلهية. كالصرح الذي بناه هامان بأمر فرعون، ليصعد بواسطته إلى السماء. ويطلع إلى إله موسى. وأبطل ما دبروه لموسى - عليه السلام - من حيل ومكايد، وجعل الخزي والسوء عليهم يوم التقى الجمعان. أما بساتين الأرض وزخرفها، وما فجر الله فيها من عيون وآبار، وما خبأ فيها من أثقال وكنوز، وما جعل لأهلها من مقام كريم ومنزل رفيع، فليست من إملاك فرعون وقومه، ولا هي مما عملت أيديهم.

وقيل: هو على ظاهره؛ لأن الله تعالى أورث ذلك بني إسرائيل مدة، ثم دمره جميعه.

ويرد على هذا القول: أن محل النزاع هو في تلك المدة التي أورثها بني إسرائيل عقيب دمار فرعون وقومه، لا عاقبتهم هم[1].

قال الله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾[2].

بنو إسرائيل كانوا مأمورين بالعمل بكل ما في التوراة، فكيف قال: ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾؟

(١) مسائل الرازي: ٩٨، بتصرف.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

والجواب: إن التكاليف كلها حسنة، ولكن بعضها أحسن من بعض فالقصاص حسن، ولكن العفو أحسن. والانتصار حسن، ولكن الصبر أحسن منه [(١)] . فأمروا بأن يأخذوا بالأشد على أنفسهم، ليكون ذلك أعظم في الثواب، كما قال تعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ [(٢)] ، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [(٣)] ، وقوله عز شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [(٤)] .

وقيل: الأحسن الفرائض والعزائم، والحسن: المباحات والرخص.

وقيل: إنهم أمروا فيها بالخير، ونهوا عن الشر، وفعل الخير أحسن من ترك الشرك [(٥)] .

وقيل: إن معنى (بأحسنها) بحسنها، وكلها حسن [(٦)] .

قال الله عز وجل: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [(٧)] .

---

(١) وليس هذا على الإطلاق، بل قد يكون القصاص والانتصار أحسن، إذا ما حمل العفو على التمادي في البغي.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٥.

(٤) سورة الزمر، الآية: ١٨.

(٥) التعبير مجازي؛ لأن المفاضلة بين خيرين لا بين الخير والشر.

(٦) هذا مبنى على التأويل، والأخذ بالظاهر أولى.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

اتفق أهل الملل على أن الله تعالى خلق الخلق في ستة أيام، فبدأ الخلق والتكوين يوم الأحد، وتم الخلق يوم الجمعة، وكان السبت يوم فراغ. فقالت اليهود: نحن نوافق ربنا في ترك العمل في هذا اليوم، فاختاروه لهذا المعنى. ومن ثم وجه اللوم على اعتدائهم فيه، وقالت النصارى: إنما بدأ الله خلق الأشياء يوم الأحد، فنحن نجعل هذا اليوم عيداً لنا، وهذان الوجهان معقولان، فما وجه أفضلية يوم الجمعة حتى جعله أهل الإسلام عيداً؟

والجواب: إن يوم الجمعة أفضل الأيام؛ لأن كمال الخلق وتمامه كان فيه. وحصول التمام والكمال يستلزم الفرح والسرور. فجعل يوم الجمعة عيداً بهذا الوجه أولى. ويؤيد هذا الوجه ما رواه البيهقي عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقال يا أمير المؤمنين: آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزلت – معشر اليهود – لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: فأي آية؟ قال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [1] فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات في يوم الجمعة [2].

كما أنه في هذا اليوم: خلق أبو البشر – آدم عليه السلام – وفيه تاب الله عليه، وفيه دخل الجنة، وفيه خرج منها، فكان يوم الجمعة أشرف الأيام.

وقد بعث الله موسى – عليه السلام، بتعظيم يوم السبت، ثم نسخ بيوم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٨٩.

الأحد في شريعة عيسى - عليه السلام - ثم نسخ يوم السبت ويوم الأحد بيوم الجمعة في شريعة محمد ﷺ.

وقد اختلفت أمة موسى وعيسى - عليهما السلام - في يوم الجمعة ولم يهتدوا إليه، واختاره الله لهذه الأمة، وهداها إليه، ففي الحديث: «**هذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه**»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾[(٢)].

في هذه الآية دلالة على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، وقد أخبر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عن كثير من الغيوب، فكيف التوفيق؟

والجواب: أن الله عز وجل هو عالم الغيب وحده، ولا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول، ومن أطلعه الله جل وعلا على بعض غيوبه: لا يقال: إنه يعلم الغيب، وقد قال جل ثناؤه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧﴾[(٣)]. ولم يقل: (فلا يظهر على الغيب) ويشهد لذلك: أن السؤال الذي من أجله نفى النبي ﷺ عن نفسه علم الغيب، كان عن الساعة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾[(٤)]. وعلم الساعة من الأمور التي

---

(١) ابن كثير: ٤/ ٢٣٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٣) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

(٤) سورة النازعات، الآية: ٤٢.

لا يعلمها سوى الله وحده فلم يطلع عليها أحداً من خلقه، قال جل ذكره: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [١].

وفي الحديث: «**خمس لا يعلمهن إلا الله .... الحديث**» [٢].

وقيل: إنه ﷺ قال ذلك على سبيل التواضع والأدب، والمعنى: لا أعلم الغيب إلا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي، وهذا القول يكون صحيحاً إن قدر فيه: إلا أن يطلعني الله عليه ويقدره لي مما لم يستأثر الله تعالى بعلمه.

وقيل: يحتمل أن يكون قد قال ذلك قبل أن يطلعه الله عز وجل على الغيب، فلما أطلعه الله عليه أخبر به، كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [٣].

قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [٤].

كيف يجتمع الأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين؟

والجواب: إن المقصود أن يأمرهم بالمعروف، ويقيم الحجة عليهم، فإن هم لم يقبلوا، وردوا ما أمروا به، وتجاهلوا فأعرض عنهم، وتجاوز عن فعلهم فلا تنافٍ [٥].

***

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) ابن كثير: ٥/ ٣٩٩.

(٣) تفسير الخازن: ٢/ ١٥٤، بتصرف.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٥) تنزيه القرآن عن المطاعن ١٥٥، بتصرف.

سورة الأنفال

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[(١)].

وقال جل وعلا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[(٢)].

كيف التوفيق بين الآيتين: والتعارض بين الطمأنينة ووجل القلوب ظاهر؟

والجواب: إنه لا تنافٍ بين الآيتين، ولا تعارض بين الطمأنينة ووجل القلوب، فقد وردتا في حالتين كلتاهما من صفات المؤمنين الكاملين؛ فالطمأنينة تكون بانشراح الصدر بمعرفة حقيقة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والتقلب عن الهدى. فمعنى ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ خافت قلوبهم من هيبة الله واضطربت نفوسهم من عظمته، وذلك إذا ما تذكروا عظيم عقوبته، وجليل عدله، وشدة وعيده على ترك أوامره، واجتناب نواهيه، وعلمه بما دق وعظم واقتداره عليه. ومعنى: ﴿ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾. أنهم إذا ما نظروا في نعم الله عليهم، وذكروا مننه لديهم، وإحسانه إليهم، وسعة فضله، وعظيم مغفرته، وبالغ رحمته، وكثرة ثوابه على الطاعات: اطمأنت قلوبهم، وانشرحت صدورهم، وحسن بالله ظنهم، وسكنت نفوسهم إلى عفو الله تعالى بسبب ما أتوا من نور المعرفة وعظيم التوحيد.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

وهـذا مقـام الخوف والرجاء أو الأنس والهيبة، وقد جمعتا في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (١) . والمعنى: تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه (٢) .

قـال الله تعـالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (٣) .

إن الاستدلال بالآيـة عـلى هيئة قياس اقتراني، وهو: لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهـم، ولـو أسمعهـم لـتولوا، فينتج: لو علم الله فيهم خيراً لتولوا وهـذا محـال؛ لأن الـذي يحصـل مـنهم بـتقدير: إن يعـلم الله فـيهم خيراً، هو الانقياد لا التولي فكيف ذلك؟

والجـواب: إن المـراد بالإسمـاع الأول: الإسمـاع المفهـم الموجـب الملزم لـلهداية، والمـراد بالإسمـاع الـثاني الإسمـاع المطلـق المجـرد عـن ذلك فيكون الوسط في الاستدلال مختلفاً.

وقـيل: إن الشـرطية الأولى: إشـارة إلى قـياس اسـتثنائي حذفـت صغراه ونتيجته، ولـو فـيها: امتناعـية – عـلى الغالب فيها – وتمام القياس هكذا: لو عـلم الله فيهم خيراً لأسمعهم سماع تفهم، لكنه لم يسمعهم سماع تفهم لعلمه أن لا خـير فـيهم. وأما لو في الشرطية الثانية فهي لمجرد الربط، بمعنى أنها على

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) دفع إيهام الاضطراب ١٣٥، وتفسير الخازن: ٢/ ١٦٣، ومجمع البيان: ٩/ ١٠٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٣.

خلاف الغالب فيها، إذ لا يصح أن تكون امتناعية؛ لأنه يصير المعنى: انتفي توليهم لانتفاء إسماعهم، وهذا خلاف الواقع.

ولا يقال: إن المقدم علم انتفاؤه بمقتضى الشرطية الأولى، فكيف يثبت، ويوضع في الثانية، ويعلق عليه الجزاء؟

لأن المعنى: لو فرض أنه أسمعهم سماع تفهم، لتولوا .. وحينئذ يرد على التركيب: أن التعليق غير صحيح؛ لأنه لو فرض أنه أسمعهم سماع تفهم؛ لأجابوا وأقبلوا وقد أجيب عن هذا بأن المعنى: لو فرض أنه أسمعهم سماع تفهم، وقد علم أن لا خير فيهم لتولوا. وهذا القيد: قد علم من الشرطية الأولى؛ لأنه نتيجة القياس التي أشارت إليه. وبملاحظة هذا القيد: يصح التعليق، ويصير المعنى: وإن فرض أنه أسمعهم سماع تفهم مع علمه أن لا خير فيهم، فإنهم يعرضون ولا يقبلون، إذ لو قبلوا ولم يتولوا لكانوا من أهل الخير، فيلزم انقلاب العلم جهلاً، وهو محال.

وقيل: ليس المراد من الآية الاستدلال، بل بيان السببية على الأصل في لو، أي: أن سبب انتفاء إسماعهم، هو انتفاء العلم بالخير ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ مستأنفاً، أي: أن التولي لازم بتقدير: الإسماع، فكيف بتقدير عدمه؟ فهو من باب: «لو لم يخف الله لم يعصه»(١).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٢).

---

(١) الفتوحات الإلهية: ٢/ ٢٣٦، بتصرف.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

وقال جلت حكمته: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (١).

في الآية الأولى: دلالة على أن الاستجابة للرسول التي هي طاعته – لا تجب إلا إذا دعانا لما يحيينا، وفي الآية الثانية: دلالة على وجوب اتباعه مطلقاً من غير قيد، فكيف التوفيق؟

والجواب: إنه ﷺ لا يدعونا إلا لما يحيينا من خيري الدنيا والآخرة. فالشرط المذكور في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ متوفر في دعاء النبي ﷺ لمكان عصمته كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (٢).

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ (٣).

في الآية الأولى: دلالة على أن للكفار أماناً من نزول العذاب بهم، ما دام النبي ﷺ بين ظهرانيهم؛ لأن الله لم يهلك أمة، ونبيهم فيهم، أو لوجود المستغفرين فيما بينهم، وفي الآية الثانية: إشارة إلى إمكانية نزول العذاب بهم، وحلوله فيهم، فكيف الجمع؟

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤. ودفع إيهام الاضطراب: / ١٣٥، بتصرف.

(٣) سورة الأنفال، الآيتان: ٣٣، ٣٤.

والجواب: إن الأمانين منتفيان، فالنبي ﷺ خرج من بينهم مهاجراً. واستغفارهم معدوم لإصرارهم على الكفر، فجملة الحال: أريد بها أن العذاب لا ينزل بهم في حالة استغفارهم - لو استغفروا - ولا في حالة وجود نبيهم فيهم.

لكنه خرج من بينهم مهاجراً، ولم يستغفروا لكفرهم. ومعلوم أن الحال قيد لعاملها ووصف لصاحبها. فالاستغفار - مثلاً - قيد في العذاب لكنهم لم يأتوا بالقيد، فتقرير المعنى: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون لو استغفروا. وبعد انتفاء الأمرين: عذبهم بالقتل والأسر يوم بدر، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾[1].

أو أن المراد بقوله ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة. وعليه فالمعنى: أنه بعد خروجه ﷺ كان استغفار المؤمنين سبباً لرفع العذاب الدنيوي عن الكفار المستعجلين للعذاب بقولهم: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[2]، وعلى هذا، فقد أسند الاستغفار إلى مجموع أهل مكة الصادق بخصوص المؤمنين منهم. وعلى هذا القول: فالعذاب الدنيوي يدفعه الله عنهم باستغفار المؤمنين الكائنين بينهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: بعد خروج المؤمنين الذين كان استغفارهم سبباً لدفع العذاب عنهم. فبعد خروجهم: عذب الله أهل مكة في الدنيا بأن سلط عليهم رسوله ﷺ حتى فتح مكة، ويدل لكونه

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

تعالى يدفع العذاب الدنيوي عن الكفار بسبب وجود المسلمين بين أظهرهم: ما وقع في صلح الحديبية كما بينه تعالى بقوله: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1] . فقوله: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ أي: لو تزيل الكفار من المسلمين، لعذبنا الكفار بتسليط المسلمين عليهم، ولكنا رفعنا عن الكفار هذا العذاب الدنيوي لعدم تميزهم من المؤمنين.

وحاصل هذا القول: أن كفار مكة لما قالوا: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . أنزل الله قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ ، ثم هاجر النبي ﷺ بقيت طائفة من المسلمين بمكة يستغفرون الله تعالى ويعبدونه، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . فلما خرجت بقية المسلمين من مكة، أنزل الله قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أي شيء ثبت لهم يدفع عنهم عذاب الله، وقد خرج النبي ﷺ والمؤمنون من بينهم. فالآية على هذا، كقوله: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[2] .

أو أن المراد بقوله: ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ كفار مكة، وعليه فوجه الجمع: أن الله تعالى يرد عنهم العذاب الدنيوي بسبب استغفارهم، أما عذاب الآخرة، فهو واقع بهم لا محالة، فقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ أي: في الدنيا في

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٤.

حالة استغفارهم. وقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ﴾ أي: في الآخرة، وقد كانوا كفاراً في الدنيا، وعلى هذا القول: فعمل الكافر ينفعه في الدنيا، وهو صريح قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ ﴾ [١].

أو: أن معنى قوله: ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي: يسلمون، أي: وما كان الله معذبهم، وقد سبق في علمه أن منهم من يسلم، ويستغفر الله من كفره.

وعلى هذا القول: فقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ في الذين سبقت لهم الشقاوة كأبى جهل وأصحابه الذين عذبوا يوم بدر. بالقتل وما روي من أن قوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ ناسخ لقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فبطلانه ظاهر؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ خبر من الله بعدم تعذيبه لهم في حالة استغفارهم، والخبر لا يجوز نسخه شرعاً بإجماع المسلمين.

وأظهر هذه الأقوال: الأولان [٢].

وأرى أن الله - عز وجل - قد أمن الكفار من دمارهم، وهلاكهم، واستئصالهم عن آخرهم، وهو العذاب الأليم الذي طلبوه، وألحوا في مسألته واستعجلوه. وذلك لا لشيء سوى أنهم من الأمة الخاتمة التي رفع عنها عذاب الاستئصال، كما أمن الله سبحانه جانب الكفار من الفتك والقتل والأسر والتشريد في الدنيا ما دام النبي ﷺ بين ظهرانيهم ومقيماً فيهم، وحيثما وجد

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: ١٣٦، بتصرف.

من يستغفر الله من المسلمين المستضعفين، أو: من علم الله إسلامه من المشركين.

فإذا ما انتفى الأمانان بهجرة النبي ﷺ وخروج المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وتمادى الكفار في غيهم وضلالهم، وأصروا على ما هم عليه، فمالهم لا يعذبهم الله عز وجل في الدنيا بشتى أنواع العذاب ولعذاب الآخرة أخزى وأشد تنكيلاً.

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (١).

المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، فكيف سماهما: صلاة؟ وهما ليس من جنسها؟

والجواب: إنهم أقاموا المكاء والتصدية مقام الصلاة، كما يقول قائل: زرت فلاناً فجعل الجفاء صلتي. أي: أقام الجفاء مقام صلتي. وما لا يدخل تحت الشيء قد يستثنى منه لمصلحة وغرض، كقصد المدح والذم وهو هنا: لذم وتقريع المشركين على تركهم ما أمروا به في المسجد الحرام، وجعلهم فيه المكاء والتصدية.

وقيل: إنهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة، فخرج ذلك على حسب معتقدهم.

وقيل المراد: نفي الصلاة عنهم، أي: أن من كان المكاء والتصدية صلاته،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

فلا صلاة له، فهو كقول العرب: من كان السخاء عيبه فلا عيب له [(١)].

قال الله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [(٢)].

وقال جل وعلا: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [(٣)].

في الآية الأولى: دلالة على أن الكفار إن تابوا من كفرهم، وانتهوا عن فسقهم، يغفر لهم ما قد سلف، والآية الثانية: تدل على أن الخارج عن طاعة الله لا يهديه الله، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن الآية الثانية من العام المخصوص، فهي في خصوص الأشقياء الذين أزاغ الله قلوبهم عن الهدى لشقاوتهم الأزلية.

وقيل: إن معنى الآية الثانية: والله لا يهدي القوم الفاسقين، ما داموا على فسقهم. فإن تابوا منه هداهم [(٤)].

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤٨ ﴾ [(٥)].

---

(١) مسائل الرازي: ١٠٧، وتفسير الخازن: ٢/ ١٨٠، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٢٤٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٤) دفع إيهام الاضطراب: ٢٩٤، بتصرف.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

قال إبليس: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ وهو لا يخاف الله – عز وجل – لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده؟

والجواب: إن هذه كذبة من كذبات إبليس، كما قال قتادة – رضي الله عنه – صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ يعني: جبريل والملائكة – عليهم السلام – معه نازلين من السماء لنصرة المسلمين يوم بدر، وكذب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له بهم. وكأن المعنى: إني أخاف ملائكة الله أن يوقعوا بي ما دون الإهلاك من الأذى.

وقيل: لما رأى نزول الملائكة على صورة لم يرها قط، خاف قيام الساعة التي هي غاية إنظاره، فيحل به العذاب الموعود.

وقيل: معنى (أخاف الله) أعلم صدق وعده لنبيه بالنصر، وقد جاء الخوف بمعنى العلم ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ﴾ [(١)]. والخوف من الله عز وجل بمعنى: الانصياع لحكمه، والانقياد لأمره تعالى ليس مراداً لإبليس: ولو كان كذلك ما حدث منه ما حدث، أو إنما هو يتخوف وعيد الله ونقمته، ويخشى أن يحل عذابه، وإن أوهم ظاهر كلامه الخوف بمعنى الانصياع والانقياد. فكيف تؤخذ عليه كذبة واحدة، وهو أفسق الفسقة، وأكفر الكفرة، فلا عجب في كذبه، وإنما العجب من صدقه ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [(٢)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٦. ومسائل الرازي، ١٠٩، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٢٤٩.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [١].

ظاهر الآية الأولى: يوجب على المسلم أن يصابر نفسه أمام عشرة من الكفار، وظاهر الآية الثانية: أنه لا يجب عليه ذلك، بل الواجب عليه الثبات أمام اثنين فقط، فكيف التوفيق؟ وكيف أخبر الله – عز وجل – عن هذه الغلبة ووعد بها، ونحن – الآن – نشاهد الأمر بخلاف ذلك.

والجواب عن الأول: إنه للتيسير على هذه الأمة، ولوجود ضعف فيها، وقوة أعدائها: نسخ وجوب الثبات أمام عشرة من الأعداء، بوجوب الوقوف أمام اثنين فقط.

والدليل على ذلك: قوله في الآية الثانية: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ ﴾ [٢].

والجواب عن الثاني: إن الله عز وجل أخبر عن هذه الغلبة بشرط الصبر، الذي هو الثبات في موقف الحرب، أو الذي هو حبس قلوب المسلمين على قلب رجل واحد، سراً وعلانية، فمتى تحقق هذا الشرط وجدت الغلبة للمسلمين مع قلتهم لا محالة.

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

والصحيح الأول: فمتى كان المسلم مسلماً حقاً يدافع عن عقيدته، ويصون حماها، على نهج شرع الله، وسنة رسوله ﷺ تحقق النصر وكانت الغلبة للمسلمين. فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، بعد رسول الله ﷺ.

يقول عز وجل: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[1] وقال عز شأنه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾[2] وقال جلت حكمته: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]. وهذا وعد الله العزيز الحكيم، و﴿ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4].

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾[5].

وقال عز وجل: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[6].

في الآية الأولى: دلالة على أن من لم يهاجر لا ولاية بينه وبين المؤمنين حتى يهاجر، وفي الآية الثانية: دلالة على ثبوت الولاية بين المؤمنين على العموم، فكيف التوفيق؟

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٤) سورة الروم، الآية: ٦. ومسائل الرازي: / ١١١، ودفع إيهام الاضطراب / ١٤١.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٧١.

والجواب: إن المهاجرين والأنصار كانوا يتوارثون بالمؤاخاة التي جعلها النبي ﷺ بينهم. فمن مات من المهاجرين: ورثه أخوه الأنصاري دون أخيه المؤمن الذي لم يهاجر، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ (١). فالولاية المنفية في قوله: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ هي ولاية الميراث، أي: ما لكم شيء من ميراثهم حتى يهاجروا، والولاية في قوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (٢). وولاية النصر والمؤازرة، والتعاون والتعاضد؛ لأن المسلمين كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وهذه الولاية لم تقصد بالنفي في قوله: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ بدليل تصريحه تعالى بذلك في قوله بعده: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣). فأثبت ولاية النصر بينهم بعد قوله: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ وهذا يدل على أن الولاية المنفية غير ولاية النصر فظهر. أن الولاية المنفية غير المثبتة، فارتفع الإشكال.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ يعني: لا نصيب لكم في الغنائم ولا في خمسها، إلا فيما حضرتم فيه القتال، وعليه فلا

---

(١) سورتي الأنفال والأحزاب: ٧٥، ٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

إشكال في الآية، ولا مانع من تناول الآية للجميع، فيكون المراد بها: نفي الميراث بينهم، وتنفي القسم لهم في الغنائم والخمس [١].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ [٢].

وقال عز وجل: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ﴾ [٣].

وقال تباركت أسماؤه: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ [٤].

التعبير في جانب المنافقين يوهم شدة التماسك والالتئام فيما بينهم، بخلافه مع الكافرين أو المؤمنين، فكيف ذلك؟

والجواب: إنه لما كان المنافقون ليسوا متناصرين على دين واحد، أو ملة معينة، أو شريعة ظاهرة – حيث كان بعضهم يهوداً – وبعضهم مشركين – قال عنهم: ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ﴾ أي: في الشك والنفاق: يعني: أن وجه الشبه بينهم هو: ذلك المرض الخبيث.

ويشهد لذلك: إخباره تعالى عن حالهم بقوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [٥].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب: ١٤١، بتصرف.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٥) سورة الحشر، الآية: ١٤.

أما المؤمنون فهم معتصمون بدين واحد – هو الإسلام – فكان بعضهم ولياً لبعض، بمعنى: أن الفرد منهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويقوم على أمره، ويفعل ما فيه المصلحة له.

ولما كان الكفار قد قالوا كلمة الكفر صراحة، وكان بعضهم أعواناً لبعض، واجتمعوا على التناصر فيما بينهم، عبر عنهم بأن بعضهم أولياء بعض.

***

سورة التوبة

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢).

المراد بالأشهر الحرم في الآية الأولى: أشهر المهلة المنصوص عليها بقوله: ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ (٣). لا الأشهر الحرم التي هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب على الصحيح. وعليه: فالآية تدل بعمومها على قتال الكفار في الأشهر الحرم المعروفة بعد انقضاء أشهر الإمهال الأربعة. وفي الآية الثانية: دلالة على عدم القتال في الأشهر الحرم، فكيف التوفيق بينهما؟

والجواب: إن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بعموم آيات السيف، ومن يقول بعدم النسخ يقول: هو مخصص لها.

والظاهر: صحة القول بالنسخ. كما يدل عليه فعل النبي ﷺ في حصار

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢.

ثقيف في الشهر الحرام الذي هو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال: فلما كسرهم واستفاء أموالهم لجؤوا إلى الطائف، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً وانصرف ولم يفتحها، فثبتت أنه حاصر في الشهر الحرام، وهذا القول هو المشهور عند العلماء، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ناسخ لقوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وقوله: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [١]. والمنسوخ من هذه ومن قوله: ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هو تحريم الشهر في الأولى، والأشهر في الثانية فقط دون ما تضمنتاه من الخبر؛ لأن الخبر لا يجوز نسخه شرعاً، والراجح هو: عدم النسخ، لتأخر نزول هذه السورة؛ ولأنه ثبت في الصحيح قوله ﷺ يوم الحج الأكبر: «**أي يوم هذا**»؟ «**أي شهر هذا**»؟ إلى أن قال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا**» [٢] ولأن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ فيه دلالة على بقاء حرمة الأشهر الحرم، وقوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [٣]. وهاتان الآيتان

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) صحيح الإمام البخاري – كتاب المغازي – باب حجة الوداع.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

من سورة المائدة، وهي آخر ما نزل في الحلال والحرام.

والحاصل أن عموم آيات السيف مخصوص بما عدا الأشهر الحرم، وما ثبت من الجهاد في الأشهر الحرم إنما كان ضرورة لما هو أكبر من القتال في الأشهر الحرم.

يقول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [1].

قال الله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [2].

وقال عز وجل: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [3].

وقال جل وعلا: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [4].

الآية الأولى توحي بقتال المشركين حيثما كانوا، وأينما وجدوا. والآيتان بعدها تدلان على إمهال فترة بالعفو عنهم، والصفح عن أذاهم. فما سبيل الجمع بينهما؟

والجواب: إن الإمهال منسوخ بآيات السيف [5].

وأرى: أنه لا حاجة إلى القول بالنسخ؛ لأنه لا يقال به إلا عند

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧، دفع إيهام الاضطراب، ٤٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٤) سورة الطارق، الآية: ١٧.

(٥) دفع إيهام الاضطراب: ص٣١٣.

التعارض، ولا تعارض فالأمر بإمهالهم والعفو عنهم، لا يتعارض مع الأمر بقتالهم، بل هو من باب التدرج في التشريع بحسب الحكمة والمصلحة، ويدل على أن هذا هو المراد: قوله: ﴿ رُوَيۡدَۢا ﴾ حيث لم يأمر بالإمهال المطلق، ولزوم هذه الحالة على الدوام.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ۝٦ ﴾[1].

وقال جلت حكمته: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾[2].

وقال جل جلاله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ﴾[3].

الآية الأولى والثانية، تقرران أن القرآن العظيم كلام رب العالمين، والآية الثالثة يوهم ظاهرها أنه كلام جبريل – عليه السلام – فكيف الجمع بينهما؟

والجواب: إن الآية الثالثة تؤكد نفس المعنى الذي ذهبت إليه الآيتان قبل. وذلك أن الإيهام الذي تثيره عبارة ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ ﴾ مدفوع بمعنى لفظة: ﴿ رَسُولٖ ﴾ التي تعني: أن القرآن ليس كلامه، وإنما هو قول غيره أرسل بتبليغه عمن أرسله، من غير زيادة ولا نقص[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٢) سورة هود، الآية: ١.

(٣) سورة التكوير، الآية: ١٩.

(٤) بتصرف من دفع إيهام الاضطراب، ص٣١٠.

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ (١).

كيف التوفيق بين إثبات الإيمان للكفار في صدر الآية، ونفيه عنهم في عجزها؟

والجواب: إن الأيمان المثبتة غير الأيمان المنفية. فالأيمان المثبتة هي التي حلفوا بها، وعقدوا العزم على إبرارها. والأيمان المنفية هي الإيمان التي حنثوا فيها، ولم يوفوا بها، ولم يتمسكوا بموجبها. فنفي الأيمان عنهم كناية عن عدم الوفاء بها. والتمسك بمقتضاها، وكأنهم لا أيمان لهم أصلاً (٢).

قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (٣).

الله عز وجل وسع علمه كل شيء، فكيف نفي علمه سبحانه وتعالى بما لم يكن؟

والجواب: إن المراد بالعلم الظهور الذي يترتب عليه الثواب والعقاب. أي: ولم يظهر الله الذين جاهدوا منكم مع الإخلاص. أي: لم يميزهم عن غيرهم ممن جاهدوا بدون إخلاص. فالمراد: إظهار ما علم غيباً حتى يجازي عليه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢.

(٢) مجمع البيان: ١٠/ ٢٤، بتصرف.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٦.

وقيل: نفى العلم وأراد نفي المعلوم للمبالغة، فإنه كالبرهان عليه من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه [١].

قال الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [٢].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ [٣].

كيف أخبر عن أهل الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهم يزعمون أنهم مؤمنون بهما؟ وكيف نص على أن أهل الكتاب من المشركين في الآيات الأولى والآية الأخيرة، ونظائرها، تدل بظاهرها على أنهم ليسوا من المشركين، حيث إن العطف يقتضي المغايرة.

والجواب عن الأول: إن المؤمن بالله حقاً يعتقد بوجوب إثبات كل

(١) تفسير البيضاوي: ١/ ٤٠٨، وزاد المسير: ٣/ ٤٠٧ والفتوحات الإلهية: ٢/ ٢٧٠.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٢٩-٣١.

(٣) سورة البينة، الآية: ٦.

صفات الكمال له، وينزه الله – سبحانه – عن كل صفة من صفات النقص، ويؤمن بجميع كتبه المنزلة، كما يؤمن بكافة رسله. فمن اعتقد التجسيم، أو التشبيه، أو الحلول، أو أن عزيراً ابن الله، أو أن المسيح ابن الله، أو آمن ببعض الرسل، وكفر بالبعض الآخر، أو صدق ببعض الكتب وأنكر البعض الآخر، فليس مؤمناً بالله عز وجل إيماناً كاملاً، والإيمان باليوم الآخر وما فيه جزء من الإيمان. فمن اعتقد في شيء دون شيء، فليس مؤمناً به، ومن قال ببعث الأرواح دون الأجساد، أو زعم أن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون، فمن اعتقد مثل ذلك فليس مؤمناً، وإن زعم أنه مؤمن [1].

والجواب عن الثاني: إن الشرك الأكبر المقتضى للخروج من الملة أنواع. وأهل الكتاب متصفون ببعضها وغير متصفين بالبعض الآخر. أما البعض الذي هم غير متصفين به، فهو ما اتصف به كفار مكة من عبادة الأوثان صريحاً، ولذا عطف عليهم لاتصاف كفار مكة بما لم يصف به أهل الكتاب من عبادة الأوثان، وهذه المغايرة هي التي سوغت العطف. فلا ينافى أن يكون أهل الكتاب مشركين بنوع آخر من أنواع الشرك الأكبر وهو طاعة الشيطان والأحبار والرهبان، فإن مطيع الشيطان إذا كان يعتقد أن ذلك صواب، فهو عابد للشيطان، مشرك بعبادة الشيطان الشرك الأكبر المخلد في النار، كما بينته النصوص القرآنية: فقد قال جل ذكره: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾ [2]، وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٢١٣، بتصرف.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٧.

أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١) ، ولما سأل عدي ابن حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ كيف اتخذوهم أرباباً؟ قال – صلوات الله وسلامه عليه – : «**ألم يحلوا لهم ما حرم الله؟ ويحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم**»؟ قال: بلى، قال: «**بذلك اتخذوهم أرباباً**» (٢) . فإن أهل الكتاب مشركون من هذا الوجه: الشرك الأكبر، وإن كان كفار مكة في صريح عبادة الأوثان (٣) .

قال الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ (٤) .

وقال عز وجل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ (٥) .

وقال جل وعلا: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٦) .

في الآية الأولى: دلالة على لزوم الخروج للجهاد في سبيل الله على كل

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٨٥.

(٣) دفع إيهام الاضطراب: ١٤٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٤١.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٩١.

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

حال، وفي الآيتين بعدها: دلالة على خلاف ذلك، فكيف الجمع والتوفيق بينها؟

والجواب: إن الآية الأخيرة في النفر للتعليم والتفقه في الدين، لا للحرب. والآية الثانية مخصصة للأولى، وكأنه قال من أول الأمر: لينفر منكم خفافاً وثقالاً، كل من احتيج إليه وهو قادر لا عذر له.

وقيل: إن الآية الأولى منسوخة بآيات العذر المذكورة، وهذا الموضع من أمثلة ما نسخ فيه الناسخ؛ لأن قوله: ﴿ ٱنفِرُوا۟ ﴾ ناسخ لآيات الإعراض عن المشركين، وهو منسوخ بآيات العذر[1].

قال تبارك وتعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ

---

(١) دفع إيهام الاضطراب: ١٤٧، ومناهل العرفان: ٢/ ٢٦٦.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٤٣ – ٤٧.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ ﴾[1].

إن كان خروج المنافقين مع رسول الله ﷺ لمصلحة فكيف قال: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾، وإن كان فيه مفسدة، فكيف عاتب نبيه ﷺ في إذنه لهم بالقعود؟ وفي الآية الثانية والثالثة: دلالة على أن الذين يستأذنون في القعود عن الجهاد: هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وفي الآية الأخيرة: دلالة على أن المستأذنين هم الذين يؤمنون بالله ورسوله، فكيف الجمع بين الآيات كلها؟ ثم كيف ذمهم على القعود وأمرهم به؟ وكيف أمرهم بالخروج مع علمه تعالى بأنهم لو خرجوا ما زادوا المؤمنين إلا خبالاً؟ وهل كان في المؤمنين خبال حتى قال: ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾ ؟ وكيف يجوز أن يكون في المؤمنين من يسمع ويطيع المنافقين، حتى قال: ﴿ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ ﴾ ؟

والجواب عن السؤال الأول: إن خروجهم مع رسول الله ﷺ كان فيه مفسدة عظيمة، بدليل أنه تعالى أخبر بتلك المفسدة بقوله: ﴿ مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾ وإنما عاتب نبيه ﷺ؛ لأنه إذن لهم قبل إتمام التأمل، وإكمال التدبر في حالهم، فلهذا السبب قال تعالى: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ ؟

وقيل: إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحي إليه في أمرهم بالقعود.

والجواب عن الثاني: إن الاستئذان المنهي عنه بصيغة النفي هو:

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٢.

الاستئذان في التخلف عن الجهاد من غير عذر، والاستئذان المباح هو: الاستئذان في التخلف عن الأمر الجامع لعذر [١] .

وقيل: النهي عن الاستئذان منسوخ بإباحته، وهذا غير صحيح؛ لإمكان العمل بالآيتين؛ لأن محل الحكم مختلف وهو: وجود العذر وعدمه.

والجواب عن الثالث: أن الأمر بالقعود، أمر توبيخ وتهديد من الله تعالى لهم كقوله تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ [٢] ويعضده قوله تعالى: ﴿ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ أي: مع النساء والصبيان والزمنى [٣] ؛ الذين شأنهم القعود في البيوت.

وقيل: إن الآمر لهم بالقعود هو: الشيطان؛ بالوسوسة، والتزيين. أو أن بعضهم أمر بعضاً، أو أن النبي ﷺ قال لهم ذلك غضباً عليهم.

والجواب عن الرابع: إنه أمرهم بالخروج لإلزامهم الحجة، ولإظهار نفاقهم وفضيحتهم ونصوع أمرهم [٤] .

والجواب عن الخامس: إن الاستثناء هنا: من الاستثناء المنقطع، أي: ما زادكم قوة لكن أوقعوا بينكم خبالاً [٥] .

والجواب عن السادس: إنه يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب

---

(١) الأمر الجامع هو الذي من شأنه أن يجتمع الناس له كالجهاد، وطلب العلم .. الخ.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) جمع زمن وهو المريض الذي طالت مدة مرضه أو الرجل المبتلى مختار الصحاح، ص٢٧٥

.

(٤) مسائل الرازي: ١١٦.

(٥) زاد المسير: ٣/ ٤٤٧.

من كبار المنافقين ورؤوسهم، فإذا قالوا قولاً، فربما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الأحوال [١].

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [٢].

وقال عز شأنه: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [٣].

في الآية الأولى: إشارة إلى أن المال والبنين وسيلة للعذاب في الدنيا، وفي الثانية دلالة على أنهما من زخرف الحياة الدنيا، فكيف ذلك؟

والجواب: إن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وهما أيضاً وسيلة للفتنة وطريق للإغراء، وموطن للإغواء .. فبالنسبة للمنافقين لا يتعدى نفع أموالهم ولا فائدة أولادهم إلى الدار الآخرة، التي هي خير وأبقى، فكانت بالنسبة لهم عذاباً ووبالاً. إذ الأموال معرضة للزوال، والأولاد معرضون للقتل أو الموت، ووقتها: يصيبهم الهلع والجزع، ويعتريهم الحزن والفزع. بخلاف المؤمنين الموقنين بأن الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً.

وقيل: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، والتقدير: ولا تعجبك أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة [٤].

ويرد هذا القول، أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل. فليست ثمة ضرورة تدعو إلى نزع الألفاظ من أماكنها، والتعسر في إخراج معانيها.

---

(١) الخازن: ٢/ ٢٣٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٤) أضواء على متشابهات القرآن: ١/ ٢٦٠.

قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١).

كيف يقررهم على أمر لم يؤمنوا به ولم يعلموه؟

والجواب: إنه لما طال مكث النبي ﷺ بين أظهر المؤمنين والمنافقين وأخبرهم بذلك، وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه، صح أن يخاطبهم بهذا لتمكنهم من العلم؛ لأنهم علموا، ثم نسوا أو تناسوا وأنكروا. والمعنى: هلا علموا بعد أن مكنوا من علمه.

وقيل: هو أمر بالعلم. أي يجب أن يعلموا بهذا الخبر.

وقيل: المعنى ألم يخبرهم النبي ﷺ بذلك (٢).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ (٣).

كيف قال: ﴿ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ وسور القرآن إنما تنزل على الرسول ﷺ لا عليهم؟ وكيف قال: ﴿ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ وإنباؤهم بما في قلوبهم تحصيل للحاصل، لأنهم عالمون به؟

والجواب عن الأول: إن (على) هنا بمعنى في، والمعنى: أن تنزل فيهم. أي: في شأنهم تنبئهم بما في قلوبهم مما يسرونه، فضلاً عما يظهرونه. ونظير

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٣.

(٢) مجمع البيان: ١٠/ ٩٠، والخازن: ٢/ ٢٣٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾ [١]. وقولهم: كان ذلك على عهد فلان.

وقيل: إن الضمير في (عليهم) للمؤمنين. والمعنى: يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة والبغضاء؛ ولا يبالى بتفكيك الضمائر عند ظهور الأمر لعودة المعنى إليه.

وقيل: الإنزال هنا بمعنى: القراءة، فمعناه: أن تقرأ عليهم [٢].

والجواب عن الثاني: إن المراد من إنباء السورة لهم: إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم من النفاق، وبأن ما أسروه، وكتموه قد شاع وذاع وافتضح أمرهم. وبأن ما اعتقدوا أنه لا يعرفه سواهم، ولا يطلع عليه غيرهم، قد أصبح على مرأى وسمع من الناس، وليس هذا تحصيل للحاصل [٣].

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [٤].

حبوط العمل – إن كان عبارة عن بطلان ثوابه، فذلك إنما يكون في الآخرة، فكيف قال (في الدنيا)، وإن كان عبارة عن بطلان منفعته فأعمال المنافقين في الدنيا ليست باطلة المنفعة؛ لأنهم ينتفعون بها في حقن دمائهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) مسائل الرازي: ١١٨، والفتوحات: ٢/ ٢٩٥، وفتح القدير: ٣/ ٣٧٧.

(٣) مسائل الرازي: ١١٩، وفتح القدير: ٢/ ٣٧٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٩.

وأموالهم، وجريان أحكام المسلمين عليهم؟

والجواب: إن المراد بالأعمال - إن كانت نوعي أعمالهم الدينية والدنيوية - فالحبوط في الدنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية - وهي كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الذي كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى، ودفع آياته وبيناته، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فلم ينالوا من ذلك ما هموا به، وقصدوه من إبطال دين الله تعالى، وستر نبوة محمد ﷺ. والحبوط في الآخرة راجع إلى أعمالهم الدينية، وهي: عباداتهم وطاعاتهم، لأنهم فعلوها نفاقاً ورياءً فبطل ثوابها في الآخرة.

وإن كان المراد بأعمالهم مجرد الأعمال الدينية، فحبوطها: هو عدم قبولها؛ لأن الله تعالى يقبل العبادة في الدنيا، ثم يثيب عليها في الآخرة. والمراد بحبوطها في الدنيا عدم قبولها، وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها؛ كالعبادة، والقربة، والحسنة، ونحو ذلك. وعدم حصول الأجر الدنيوي المترتب عليها، وهذا ضد قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (١) فدل على أن للطاعات أجراً معجلاً في الدنيا غير الأجر المؤجل إلى الآخرة، وهو القبول، وحسن الثناء والذكر، وإلقاء المحبة في قلوب الخلق، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢). أي: يحبهم ويحببهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة. وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يبغضهم

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٦.

ويبغضهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب البغض.

قال الله عز وجل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

الله عز وجل عالم بعملهم أزلاً، وقبل وجودهم، فكيف قال: ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ ؟

والجواب: إن الاستقبال في علم الله تعالى هو بالنظر لظهوره لنا أي: سيظهر علمه بأعمالكم المستقبلة، أو بالنظر لمتعلقه، أي: وسيقع عملكم، أي: يستمر على الوقوع معلوماً لله، وكونه عالماً بأنها ستوجد، هو كونه عالماً بوجودها إذا وجدت لا يتجدد حال له بذلك. والمراد بالآية أنه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة. هذا بالنسبة لله عز وجل. أما بالنسبة للرسول ﷺ والمؤمنون فهو على ظاهره (٢).

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ (٣).

وقال جلت حكمته: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) مسائل الرازي: ١٢٢، ومجمع البيان: ١١/ ١٣٥، والفتوحات: ٣/ ٣١٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(٤) سورة محمد، الآية: ٣٠.

في الآية الأولى: نفى علم الرسول ﷺ بالمنافقين، وفي الثانية: أثبته له. فكيف الجمع بينهما؟

والجواب: إنه نفى علمه بهم في زمان، ثم أثبته بعد ذلك في زمان آخر؛ لأن هذه الآية: نزلت قبل تلك الآية، فلا تناقض [(١)].

ويرد على هذا القول: إن الآية الأولى والتي نفي فيها علم الرسول ﷺ بالمنافقين في سورة التوبة، وهي من آخر ما نزل بالمدينة، وتسمى المفتشة، أي: التي فتشت عن المنافقين. ولقد وقف النبي ﷺ بعد نزولها وقال: «**قم يا فلان، فإنك منافق، قم يا فلان، فإنك منافق**». حتى ميز المنافقين عن المسلمين [(٢)].

والآية الثانية من سورة محمد وهي من أوائل ما نزل بالمدينة، فيمكن أن يقال: إن معنى الآية الثانية: ولو نشاء يا محمد لأريناك المنافقين، فلعرفتهم بسيماهم، وتوسمت فيهم الصفات التي يعرفون بها، واستدللت عليهم من خلال لحن أقوالهم، ومدلولات ألفاظهم، وهذا علم ظاهري مبني على الظن والتخمين، وهو الذي أثبت للنبي ﷺ. أما العلم الحقيقي والبيان التفصيلي، فمرده إلى عالم الغيب والشهادة، وهو المنفي عن النبي ﷺ. ويشهد لهذا أن النبي - صلوات الله وسلامه عليه - كان يعلم المنافقين من بين أصحابه - رضوان الله عليهم - ويتركهم حتى لا يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، إلى أن شاءت إرادة الله عز وجل إخراجهم من بين المسلمين وأخبر نبيه ﷺ بهم فأخرجوا[(٣)].

---

(١) مسائل الرازي: ١٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٢٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٦٦، وزاد المسير ٣/ ٤٩٢.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[١].

هذه الآية: نزلت في شأن كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، لما تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ بدون عذر. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يكلموهم، ولا يسلموا عليهم، ثم تابوا إلى ربهم، ورجعوا إلى نبيهم، فنزلت هذه الآية. والله عز وجل عالم بما سيصير إليه أمر هؤلاء، فكيف التردد؟

والجواب: إن التردد للعباد، وأن الله عز وجل خاطب عباده بما يعتقدونه فيهم. والمعنى: كان أمرهم عندكم على هذا، أي: الخوف والرجاء، إذ كانوا من أهل بدر، فجعل بعض الناس يقول: هلكوا إن لم ينزل الله لهم عذراً، وبعضهم يقول: عسى الله أن يتوب عليهم، والمعنى: إما يعذبهم – إن ماتوا على ما هم عليه – وإما يتوب عليهم – إن تابوا[٢].

قال الله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣].

وقال جلت حكمته: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[٤].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

(٢) تفسير الخازن: ٢/ ٢٦١، وتفسير النيسابوري: ١١/ ١٨، وأضواء على متشابهات القرآن: ١/ ٢٦٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢١.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٥.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [(١)] .

كيف أخبر بالمجازاة على الأحسن والأسوأ، مع أنه يجازي على الحسن والسيئ؟

والجواب: إن أحسن بمعنى حسن، والمعنى: ليجزيهم الله بحسن الذي كانوا يعملون، وهو الطاعات كلها، لا بسيئه وهو المعاصي. وأسوأ بمعنى سيئ والمعنى: ليجزيهم بسيئ أعمالهم. وقد جاء في كلام العرب: أفعل بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل، ومنه قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير، فإضافة الأحسن والأسوأ إلى ما بعدهما ليست من قبيل إضافة المفضل إلى المفضل عليه، بل إن من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل.

وقيل: إن التفضيل على بابه، ومعنى: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: يكتب طاعاتهم ليجزيهم عليها بقدر استحقاقهم، ويزيدهم من فضله حتى يصير الثواب أحسن وأكثر من عملهم.

وقيل: إن الأحسن من صفة فعلهم؛ لأن الأعمال إلى وجوه: واجب ومندوب ومباح. وإنما يجازي على الواجب والمندوب دون المباح، فيقع الجزاء على أحسن الأعمال. ومعنى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: نجازيهم بأقبح الجزاء على أقبح معاصيهم، وهو الكفر والشرك، وخص الأسوأ بالذكر للمبالغة في الزجر.

وقيل المعنى: ولنجزينهم بأسوأ أعمالهم وهي: المعاصي دون غيرها مما لا يستحق به العذاب [(٢)] .

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٧.

(٢) مجمع البيان: ١١/ ١٦١، ٢٤/ ١٩، ومسائل الرازي: ١٢٤.

سورة يونس -عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [(١)].

وقال عز وجل: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [(٢)].

كيف أجاز النبي ﷺ أن يحتج بالمشيئة، وأنكر على الكفار احتجاجهم بها؟

والجواب: إنه أجاز للنبي ﷺ أن يحتج بالمشيئة؛ لأنه هو الذي أمره بالاحتجاج بها؛ أما الكفار: فإن آمنوا واعتقدوا بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، يكونوا مأمورين بالاحتجاج بها كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [(٣)].

ولكنهم لم يؤمنوا ولم يعتقدوا، وقالوا هذه المقولة تفكها وتحايلاً وتبريراً لما هم عليه من الكفر، وقطعاً لملامتهم، ومن ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، وشبيه بهذا ما حكى عن كفار مكة: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [(٤)].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٣) سورة الكهف، الآتيان: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٦.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣).

وقال جل جلاله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٤).

في الآية الأولى والثانية: نفى عن الأصنام الضر والنفع، وفي الآية الثالثة: أثبتهما لها، فكيف التوفيق؟ وكيف الجمع بين قول الكفار في الآية الأولى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾، وقولهم في الآية الرابعة: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾. والخامسة: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾؟

والجواب عن الأول: إنه تعالى نفي عنها الضرر والنفع باعتبار ذاتها. والأصنام جمادات لا تسمع دعاء عباده، ولا تستطيع أن تجلب لهم نفعاً، ولا تملك أن تدفع عنهم ضراً، قال عزت حكمته: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الدخان، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[(١)] . وأثبت للأصنام النفع والضر باعتبار سببيتها، فمن تذلل لها، كانت سبباً في شقائه وتعاسته، ومن أذلها وتعالى بنفسه عن تقديسها وتعظيمها، وجعل العبادة لمستحقها بغاية الإنعام والإفضال – وهو الله عز وجل – كان ذلك سبباً في فوزه وسعادته[(٢)] .

والجواب عن الثاني: إنهم كانوا يرجون شفاعة أصنامهم في الدنيا لإصلاح معاشهم وقضاء مصالحهم، وتدبير أمورهم، كما كانوا يتوقعون شفاعتها لهم في الآخرة على تقدير وجودها؛ لأنهم منكرون لها، شاكون في صدق الإخبار بوجودها. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾[(٣)] ، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[(٤)]. حيث عبر بإن الشرطية التي تدل على الريب والشك في حصول الشرط[(٥)] .

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[(٦)]. كيف يقررهم بالبعث، وهم غير مؤمنين به؟

والجواب: إنه لما كانت الإعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها، وهو

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

(٢) مخطوطة فتح الرحمن، بتصرف.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

(٥) دفع إيهام الاضطراب: ١٤٩، بتصرف.

(٦) سورة يونس، الآية: ٣٤.

القدرة على ابتداء الخلق. والإعادة أهون بالنسبة إلى تصورنا، لزمهم الاعتراف بها، فصاروا كأنهم مسلمون بوجودها من حيث ظهور الحجة ووضوحها، وتمكنهم من النظر فيها، والعلم بها بأدنى فكر وتأمل وإلزام الخصم – كما يصح بما يعترف به، يصح أيضاً بما تبينت وثبتت حقيقته لقوة برهانه [1].

قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [2].

كيف قال: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ والأصنام لا تهدى ولا تهدي؛ لأنها جماد لا يعقل؟

والجواب: إن معنى الهداية في حق الأصنام: الانتقال من مكان إلى آخر، إلا أن تحمل وتنقل. فبين سبحانه وتعالى بهذا عجز الأصنام.

وقيل: إنه ذكر سبحانه الهداية في حق الأصنام على وجه المجاز؛ وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة؛ وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل، عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم. ووصفها بهذه الصفة وإن كان الأمر ليس كذلك.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ الأصنام؛ والمراد من قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ رؤساء الكفر والضلالة، فالله تعالى هدى الخلق إلى الدين بما ظهر من

---

(١) مسائل الرازي: ١٢٧، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٣٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٥.

الدلائل الدالة على وحدانيته. وأما رؤساء الكفر والضلالة فإنهم لا يقدرون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله إلى الحق. فكان اتباع دين الله، والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره [١].

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [٢].

وقال جلت قدرته: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [٣].

إن كان المرتابون قد عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة فكيف يتحداهم أن يأتوا بعشر سور؟ ومن عجز عن سورة واحدة، فهو عن العشرة أعجز.

والجواب: إن هذا السؤال ورد بناءً على ما هو مشهور بين جمهور العلماء من أن الله تحدى فصحاء قريش الذين هم أفصح العرب؛ وكذا من دونهم من سائر الخلق: بالإتيان بمثل هذا القرآن في جملته، فلما عجزوا تحداهم بعشر سور مثله، فلما عجزوا، تحداهم بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله.

ويرى البعض: أن هذا الترتيب في التحدى لم يصح به نقل، بل المروى في ترتيب نزول السور يخالفه، فإن سورة هود نزلت عقب سورة يونس حيث إن سورة هود جاء فيها التحدي بعشر سور، بينما سورة يونس قد جاء

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٢٩٣، بتصرف.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١٣.

التحدي فيها بسورة واحدة.

وقد أجيب عن ذلك: بأن نزول سورة قبل أخرى: لا يقتضي نزول جميع آياتها قبل جميع الآيات التي بعدها. وقد رد بأن هذا الجواب: إنما فيما هو خلاف الأصل الثابت بالنقل. وأبعده عن التصور: أن يكون في موضوع واحد في سورتين متعاقبتين.

وعلى هذا القول يكون المراد: أن الله عز وجل تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبجميع ما فيه من الأغراض الإلهية، والمصالح البشرية. فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة مثل القرآن مع ما فيها من غرض تام جامع من أغراض الهدى الإلهي، أو الإصلاح البشري. فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله في التفنن في البيان، والتنوع في الأغراض من جهة الكثرة. ومن ثم اختلف الجواب عن السؤال، فقال الجمهور: إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وأنه تحداهم أولاً بعشر سور، فلما عجزوا تحداهم بسورة واحدة، وهو ما ورد في سورة يونس.

وقال غير الجمهور: إن سورة يونس نزلت أولاً، ومعنى قوله فيها: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ يعني: مثله في الإخبار عن الغيب، والأحكام أو الوعد والوعيد: وقوله في سورة هود: ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ يعني: مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب، ولا ذكر حكم، ولا وعد ولا وعيد[1].

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٣١٩، والميزان في تفسير القرآن: ١١/ ١٦٨، وتفسير المنار: ١٢/ ٢٩ وما بعدها.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [(١)].

كيف رتب شهادته على أفعالهم على رجوعهم إليه يوم القيامة، مع أنه شهيد على أفعالهم في الدارين؟

والجواب: إن في الكلام مجازاً: حيث ذكر الشهادة، وأراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب والجزاء. ولذلك رتبها على الرجوع بثم. والمعنى. ثم الله يعاقب على ما يفعلون، أو: مجاز على ما يفعلون. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [(٢)]، ونظائره في القرآن العزيز كثيرة.

وقيل المعنى: ثم الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة. أو المراد ما يحصل من إنطاق الجوارح بالشهادة عليهم يوم القيامة. فجعل ذلك بمنزلة شهادة الله عليهم. وثم هنا ليست للترتيب الزماني، ولا الترتيب القصصي، وإنما هي لترتيب الإخبار، كما تقول زيد عالم، ثم هو كريم [(٣)].

قال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [(٤)].

وقال جل شأنه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٥)].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٣) مسائل الرازي: ١٢٧، وتفسير البيضاوي: ١/ ٤٤٩، وفتح القدير، ٢/ ٤٤٩، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٣٥٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٦٥.

(٥) سورة المنافقون، الآية: ٨.

في الآيـة الأولى: دلالـة على أن العزة لله سبحانه. وفي الآية الثانية: دلالة على أنها لله ولرسوله وللمؤمنين. فكيف الجمع بينهما؟

والجـواب: إن العـزة الحقيقية والكاملة لله وحده دون سواه، وعزة غيره لا تكون إلا بإعزاز الله سبحانه إياه، قال تعالى: ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ (١).

والعـزة لفـظ مشـترك، والمـراد بهـا بالنسـبة لله عـز وجـل عـزة الإلهية، والإحـياء والإماتة، وعزة البقاء الدائم، ونحو ذلك. والمراد بها بالنسبة للرسول ﷺ والمؤمـنين علـو كلمـتهم وإظهـار ديـنهم، ونصرهم على عدوهم، فتكون العزة المختصة غير العزة المشتركة. والعزة لله جميعاً (٢).

قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٣).

كيف يكون العلم سبباً للاختلاف والقول الباطل؟

والجواب: إن المراد بذلك أنهم اختلفوا، وقد أقام الحجة، وأوضح الطريق لهم على جهة الذم لهم؛ ولذلك قال بعده: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤).

أو أنه: لما كان العلم سبباً للتآلف والتضام؛ وهؤلاء قد اختلفوا من

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢) مسائل الرازي: ١٢٩، والخازن: ٢/ ٣٠١ والفتوحات الإلهية: ٢/ ٣٦١.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٣.

(٤) تنزيه القرآن: ١٧٨.

بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم. فلما لم ينتفعوا بما أوتوا من العلم والبينات، فكأنهم جعلوا ما هو سبب للتآلف والتضام سبباً للخلاف والشقاق. ونظير ذلك قوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ ﴾ (١).

يقول الحق عز وجل: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤ ﴾ (٢).

(إن) إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود، وشك النبي ﷺ في القرآن ليس محتمل الوجود؟ بل هو منتف قطعاً فكيف خاطب النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بهذا الخطاب، وكيف أمر بسؤال أهل الكتاب مع أن أكثرهم يجحدون نبوته ﷺ؟

والجواب عن الأول: إن الخطاب ليس للنبي ﷺ، بل لمن كان شاكاً في القرآن، وفي نبوة محمد ﷺ فكأنه قال: فإن كنت أيها الإنسان في شك ...

ولا يرد عليه قوله تعالى: ﴿ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (٣). وقال: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ (٤).

---

(١) سورة البينة، الآية: ٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

وقيل: إن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (٢)، فقال: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ والخطاب للنبي ﷺ وحده.

ويعضد هذا القول: قوله تعالى بعد: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ (٣).

وقيل: إن الخطاب لرسول الله ﷺ وإن لم يشك، وعلم الله سبحانه أنه غير شاك، ولكن الكلام خرج مخرج التقرير والإفهام. كما يقول القائل لعبده: إن كنت عبدي فأطعني. ولأبيه: إن كنت والدي فتعطف علي ولولده: إن كنت ابني فبرني. يريد بذلك المبالغة، وربما خرجوا في المبالغة إلى ما يستحيل كقولهم: بكت السماء لموت فلان، أي: لو كانت تبكي السماء على ميت لبكت عليه، وكذلك هاهنا يكون المعنى: لو كنت ممن يشك فشككت، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ويشير إلى هذا قوله ﷺ: «**لا أشك ولا أسأل**» (٤).

وقيل: إن (إن) في معنى (ما) فيكون المعنى: ما كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب، أي لسنا نريد بأمرك أن تسأل لأنك شاك، ولكن لتزداد إيماناً، كما قال إبراهيم الخليل – عليه السلام – حين قال

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٤.

(٤) قال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أشك ولا أسأل**»، تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٢٩.

له: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [(١)] . فالزيادة في التعريف ليست مما يبطل صحة العقيدة.

وقيل: الخطاب للنبي ﷺ مع انتفاء الشك منه قطعاً. والمراد منه: إلزام الحجة على الشاكين الكافرين، كما يقول الله تعالى لعيسى – عليه السلام – : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [(٢)] . وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لإقامة الحجة على النصارى [(٣)] .

والجواب عن الثاني: إنه أمره بسؤال من آمن من أهل الكتاب: كعبدالله ابن سلام وتميم الداري وغيرهما.

وقيل: المراد سل أهل الكتاب عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم، ثم انظر فيما وافق تلك الصفة.

وقيل: إن هذا القول أقوى؛ لأن هذه السورة مكية، وابن سلام وغيره إنما أسلموا بالمدينة.

ولكن هذه السورة وإن كانت مكية، إلا أن هذه الآية مدنية، وما فائدة سؤال أهل الكتاب مع العلم بأنهم سينكرون ويجحدون؟ ومكة لم يكن فيها أهل كتاب.

وقيل المراد بالشك: الضيق والشدة بما يعانيه من أذى قومه، أي: إن ضقت ذرعاً بما تلقى من أذى قومك. فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم، فاصبر كذلك [(٤)] .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٣) مسائل الرازي: ١٣١، ومجمع البيان ١١/ ٩٤.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٩٤.

سورة هود -عليه السلام

قال الله عز وجل: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [(١)] .

وقال ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» [(٢)] .

وقال – عليه الصلاة والسلام – : «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً شدد عليه، وإن كان ذا رقة هون عليه، وما زال كذلك حتى يمشي على الأرض كمن ليس له ذنب**» [(٣)] .

كيف التوفيق بين الآية والحديث، مع أن المتاع الحسن يتنافى مع السجن والبلاء؟

والجواب: إن المؤمن إذا أخلص لله في القول والعمل، واستغفر الله تعالى وتاب إليه، عاش حياته في الطاعة والقناعة، وأمن من العذاب، وارتاح مما يخشاه، فهو في عيشه حسنة. فإن طاب عيشه، ووسع رزقه، وأمن على نفسه وماله وعرضه، فهو مع ذلك في سجن، إذ أنه دائماً ينشد الكمال في كل شيء. فإذا ما وقع نظره على تقصير ما، فإن ذلك ينغص حياته، ويضيق به ذرعاً، ويجعل حياته سجناً. كما أنه في سجن بالنسبة إلى ما أعده الله له في

---

(١) سورة هود، الآية: ٣.

(٢) صحيح الإمام مسلم – كتاب الزهد، ح١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٨٠.

الآخـرة مـن الثواب الجزيل. والنعيم المقيم فهو في سجن حتى يفضي إلى ذلك المعد له.

وإن ضـاق عيشـه، وأصابته المصائب، وأحاطت به البلايا، ومسه السوء، فهـو مـع ذلك في عيشة حسنة. إذ يؤمن بأن كل ذلك لرفع الدرجات، وتكفير السيئات. وأن ما أعده الله له في الآخرة خير من زخرف الحياة الدنيا وأبقى.

وأمـا الكافر الذي لم يستغفر الله تعالى، ولم يتب إليه سبحانه، فهو إن نال من زهرة الحياة الدنيا؛ وتمتع بزخرفها، فليس في متاع حسن؛ فقد أذهب حسنه حرصـه عليه، وأضاع بهجته خوف فواته منه، وأفنى ثمرته عدم صبره على ما مضى منه.

وإن لم يمـتع بزينة الحياة الدنيا، فهو مع ذلك في جنة بالنسبة إلى ما أعد له في سـواء الجحـيم مـن العـذاب العظـيم الدائـم أبـد الآياد، فهو وإن عذب في الدنيا بالفقر المدقع، في جنة حتى يفضي إلى العذاب الموجع في الآخرة [1].

قال عز شأنه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [2].

إن لفظـة (عـلى) للوجـوب، والله عـز وجـل لا يجب عليه شيء فكيف قال: ﴿ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ؟

والجـواب: إن الوجـوب قسـمان: وجـوب الإلـزام والقسـر، ووجـوب الاختـيار والفضـل. والوجـوب على الله عز وجل من هذا القبيل كقوله ﷺ:

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٣١٦، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٣٨٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٦.

«غسل يوم الجمعة واجب على كل مسلم» [١] . واختيار صيغة الوجوب دون غيرها اعتبار لما سبق الوعد به منه سبحانه وحثاً على التوكل، ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة في حصوله وإجمالاً في طلبه والبحث عنه.

وقيل: إن (على) هنا بمعنى (من) كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ ﴾ [٢].

قال الله عز وجل: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [٣].

المخاطب هنا: المؤمنون والكافرون، وأعمالهم إنما تتفاوت من حسن إلى قبيح، لا إلى حسن وأحسن، فكيف قال: ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

والجواب: إن الخطاب هنا عام أريد به خاص، وهم المؤمنون الذين تتفاوت أعمالهم من حسن إلى أحسن، وإنما خص المؤمنون تشريفاً لهم، وتحريضاً على أحسن المحاسن، وتحضيضاً على الترقي دائماً في مراتب العلم والعمل. فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **«أيكم أحسن عقلا، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»**. والمعنى: أيكم أكمل علماً وعملاً [٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير: ٧/ ١١.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢، مسائل الرازي: ١٣٤، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٣٨٢، وفتح القدير: ٢/ ٤٨٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٧.

(٤) مسائل الرازي: / ١٣٤وتفسير البيضاوي، ١/ ٤٦٢.

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (١).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وقال جل جلاله: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (٣).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (٤).

في الآية الأولى: دلالة على أن الكافر يجازى بحسناته كالصدقة، وصلة الرحم، وقرى الضيف، والتنفيس عن المكروب في الدنيا دون الآخرة؛ لأنه تعالى قال: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ يعني: الحياة الدنيا. وفي الآية الثانية: دلالة على أن أعمال الكافر باطلة في الدنيا؛ لأنه تعالى قال: ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، فكيف الجمع بينهما؟

والجواب: إن من الكفار من يثيبه الله تعالى بعمله في الدنيا، كما دلت

---

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٢١، ٢٢.

عليه الآية الأولى ونظائرها. ومنهم من لا يثيبه الله في الدنيا، كما دلت عليه الآية الثانية ونظائرها. وهذا مشاهد فيهم في الدنيا، فمنهم من هو في عيش رغد، ومنهم من هو في بؤس وضيق.

ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى أشار إليه بالتخصيص بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [(١)]. فهي مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ فهو عند الله كلا شيء، وهذا وجه وجيه لمن تأمله.

أو أن معنى: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ أي: نعطيهم الغرض الذي عملوا من أجله في الدنيا، كالذي قاتل ليقال: إنه شجاع، والذي قرأ ليقال: قارئ، والذي تصدق ليقال: كريم، فقد قيل لهم ذلك. وهو المراد بتوفيتهم أعمالهم.

أو أن المراد بالآية: المنافقون الذين يخرجون للجهاد لا يريدون وجه الله، وإنما يريدون الغنائم. فإنهم يقسم لهم فيها في الدنيا، ولاحظ لهم من جهادهم في الآخرة فالقسم لهم منها: هو توفيتهم أعمالهم على هذا القول [(٢)].

قال الله عز وجل: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ [(٣)].

الأمر والنهي إنما يكونان لمن يعقل ويفهم الخطاب، والسماء والأرض لا يعقلان، فكيف توجه الأمر إليهما؟

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: ١٥١، بتصرف.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٤.

والجواب: إن الأمر أمران، أمر إيجاب، وهو الذي يشترط فيه: العقل والفهم، وأمر إيجاد، وهذا لا يشترط فيه العقل والفهم؛ لأن الأشياء كلها بالنسبة له مطيعة منقادة لله تعالى ومنه قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ (٣).

وقيل: إن الخطاب لهما في الصورة (الظاهر) والمراد به: الخطاب للملائكة الموكلين بتدبيرهما (٤).

وقيل: نوديا بما ينادى به أولو العلم، وأمرا بما يؤمرون به تمثيلاً لكمال قدرته، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه، المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته، وخشية من أليم عقابه (٥).

قال الله عز وجل: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٦).

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٠.

(٤) مسائل الرازي: ١٣٦، ١٣٧، بتصرف.

(٥) تفسير البيضاوي: ١/ ٤٦٩.

(٦) سورة هود، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

في الآية الأولى: دلالة على أن هذا الابن من أهل نوح – عليه السلام – وفي الآية الثانية: دلالة على أنه ليس من أهله، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن معنى قول الله تعالى: ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي الموعود بنجاتهم في قوله سابقاً: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [١] ؛ لأنه كان كافراً لا مؤمناً.

وأما قول نوح – عليه السلام –: ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ فقد قاله بناء على ظنه أن ابنه من جملة المسلمين الناجين، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ . وقد شهد الله أنه ابنه حيث قال: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ إلا أنه أخبره بأن هذا الابن عمل عملاً غير صالح لكفره، فليس من الأهل الموعود بنجاتهم وإن كان من جملة الأهل نسباً [٢] .

يقول الله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [٣] .

وقال عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [٤] .

وقال سبحانه: ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [٥] .

كيف التوفيق بين هذه الآيات: والآية الثالثة يوهم ظاهرها تناقض الأولى بنفي الإذن، وتناقض الآيتين الأوليين بنفي النطق؟

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: ١٥٦، بتصرف.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ١١١.

(٥) سورة المرسلات، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

والجواب: إن التوفيق بين الآيتين الأوليين ظاهر؛ لأن معنى الآية الثانية: تجادل عن نفسها بإذنه. وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الأولى بنفي الإذن؛ إن قلنا: إن الاستثناء من النفي ليس بإثبات؛ لأن الآية الأولى: لا تقتضي وجود الإذن حينئذ، بل تقتضي نفي الكلام عند انتفاء الإذن.

وأما إن قلنا: إن الاستثناء من النفي إثبات، ناقضت الآية الثالثة الأولى، ولا تناقض الآيتين بنفي النطق؛ لأن يوم القيامة يوم طويل، فيه مواقف ومواطن ففي بعضها: لا يؤذن لهم في الكلام فيكفون عنه. وفي بعضها: يؤذن لهم فيه فيتكلمون. وفي بعضها: يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.

أو: أن المراد بنفي النطق أنهم لا ينطقون بكلام نافع من شفاعة ووسيلة وحجة إلا بإذنه، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعض الذنوب على بعض. وهذا كما يقول القائل لمن تكلم بكلام كثير فارغ عن الحجة. ما تكلمت بشيء ولا نطقت بشيء. فسمي من يتكلم بما لا حجة فيه: غير متكلم. كما قال سبحانه: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ﴾ [1]. وهم كانوا يسمعون ويتكلمون ويبصرون، إلا أنهم لا يقبلون الحق، ولا يتأملون، فهم بمنزلة الصم البكم العمي.

أو أن المأذون فيه: هي الجوابات الحقة، والممنوع منه: هي الأعذار الباطلة وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨.

ولكن: يرد على قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾[1] نفي النطق عنهم يوم القيامة، فيقتضي انتفاءه في جميع أجزاء الزمان. عملاً بعموم النفي، كما يعم النفي جميع أجزاء المكان في قولنا: لا وجود لزيد في الدار، فيندفع الجواب باختلاف المواقف والمواطن عن هذه الآية، ويكون الجواب عنها: أنه أريد بها طائفة خاصة غير الطائفتين الأوليين[2].

ويرد على هذا الجواب أيضاً قوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[3]. إذ نفي السؤال يوم القيامة أيضاً، ولا يصح أن تكون في طائفة خاصة بالنظر إلى قولـه: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4]. وقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[5].

فالقول باختلاف المواقف والمواطن جائز واليوم كما يطلق على جميع أجزاء زمانه، يطلق على بعضه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[6].

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٣٥.

(٢) مسائل الرازي: ١٤٠ – ١٤١، وتفسير البيضاوي: ١/ ٤٨١، ومجمع البيان: ١٢/ ٢١٦.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٦) سورة هود، الآيات: ١١٨، ١١٩.

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١).

في الآية الأولى: دلالة على أن الله عز وجل خلق الناس لسعادة بعضهم، وشقاوة البعض الآخر. وفي الآية الثانية: دلالة على أن الله تعالى خلقهم لعبادته. فكيف التوفيق؟

والجواب: إن الإرادة في قوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ إرادة كونية قدرية والإرادة في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾، إرادة شرعية دينية، فبين في قوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أنه أراد بارادته الكونية القدرية: صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة. وبين بقوله: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده، ويخذل من شاء فيمتنع عن العبادة.

وهذا هو الحق لدلالة القرآن عليه. ووجه دلالة القرآن على هذا، أنه تعالى بينه بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (٢). فعمم الإرادة الشرعية بقوله: ﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ وبين التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية بقوله: ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فالدعوة عامة والتوفيق خاص.

وتحقيق النسبة بين الإرادة الكونية القدرية، والإرادة الشرعية الدينية، أنه بالنسبة إلى وجود المراد وعدم وجوده، فالإرادة الكونية أعم مطلقاً؛ لأن كل مراد شرعاً يتحقق وجوده في الخارج: إذا أريد كوناً وقدراً، كإيمان أبي بكر – رضي الله عنه – وليس يوجد ما لم يرد كوناً وقدراً. ولو أريد شرعاً كإيمان أبي

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.

لهب، فكل مراد شرعي حصل. فبالإرادة الكونية، وليس كل مراد كوني حصل مراداً في الشرع.

وأما بالنسبة إلى تعلق الإرادتين بعبادة الإنس والجن لله تعالى: فالإرادة الشرعية أعم مطلقاً، والإرادة الكونية أخص مطلقاً؛ لأن كل فرد من أفراد الجن والإنس أراد الله منه العبادة شرعاً، ولم يردها من كلهم كوناً وقدراً، فتعم الإرادة الشرعية عبادة جميع الثقلين، وتختص الإرادة الكونية بعبادة السعداء منهم، كما قدمنا من أن الدعوة عامة، والتوفيق خاص. كما بينه تعالى بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [(١)]. فصرح بأنه يدعو الكل ويهدي من شاء منهم.

وليست النسبة بين الإرادتين (الشرعية والقدرية) العموم والخصوص من وجه بل هي العموم والخصوص المطلق، كما بينا، إلا أن إحداهما أعم مطلقاً من الأخرى باعتبار، والثانية: أعم مطلقاً باعتبار آخر.

وقيل: إن معنى ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ أي: يعبدني السعداء منهم، ويعصيني الأشقياء. فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [(٢)] وغاية ما يلزم على هذا القول: أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

وقيل: معنى ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً وكرهاً. لأن المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه [١].

قال الله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [٢].

الرسول ﷺ قد جاءه الحق في كل سور القرآن، فكيف خص هذه السورة دون غيرها بالحق؟

والجواب: إن المراد بالحق هنا: البيان، وأنه وإن كان قد جاءه الحق في جميع سور القرآن، إلا أن هذه السورة جمعت من تبيين إهلاك الأمم، وشرح حالهم ومآلهم ما لم يجمع في غيرها. ولهذا خصت به هذه السورة تشريفاً لها، وبياناً لاشتمالها على ذلك، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها. إذ لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر، أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور، بل القرآن كله حق وصدق. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [٣]. وقوله: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [٤].

وقيل: إنه وإن كان القرآن كله حقاً، إلا أن بعض الحق أوكد من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا. ولهذا يقول الناس: فلان في الحق، إذا كان في

---

(١) دفع إيهام الاضطراب: ١٥٨، بتصرف.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

الموت، وإن لم يكن قبله في باطل. ولكن لعظم ما هو فيه، فكان الحق المبين في هذه السورة أجلى من غيره.

وقيل: إن المعنى وجاءك في هذه السورة الحق، مع ما جاءك من سائر السور.

وقيل: المراد بالحق النبوة، فالإشارة بهذه إلى الدنيا، ويكون المعنى: وجاءك في هذه الدنيا النبوة، فيرتفع الإشكال.

ولا يقال: إنما خصت هذه السورة بذلك؛ لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [(١)]، والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين؛ لأنا نقول: الأمر بالاستقامة جاء أيضاً في سورة الشورى، قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [(٢)]. فلا يصلح هذا علة للتخصيص [(٣)].

***

(١) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٣) مسائل الرازي: ١٤٥ – ١٤٦، وزاد المسير: ٤/ ١٧٣، وتفسير الخازن: ٢/ ٣٥٠، وفتح القدير: ٢/ ٥٣٥.

سورة يوسف -عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [(١)].

كيف أوحى إليه وهو يومئذ لم يكن بالغاً، والوحي إنما يكون بعد الأربعين؟

والجواب: إنه لا مانع من الوحي قبل بلوغ الأشد، كما حدث في حق عيسى ويحيى – عليهما السلام –وإذا كان الله عز وجل قد أوحى إلى مريم – رضي الله عنها – وهي ليست من الأنبياء، أفلا يجوز الوحي إلى نبي قبل الأوان؟

إن الله سبحانه أوحى إليه وحياً حقيقياً، فبعث إليه جبريل – عليه السلام – ليؤنسه ويبشره بالخروج، ويخبره بأنه سينبئهم بما فعلوا، ويجازيهم عليه. وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين. ثم إن القائلين بهذا القول قد اختلفوا، هل كان بالغاً في ذلك الوقت، أم كان صبياً صغيراً؟ فقال بعضهم: وكان عمره: خمس عشر سنة، وقال آخرون: بل كان صغيراً، إلا أن الله عز وجل أكمل عقله ورشده، وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة [(٢)].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

(٢) فتح القدير: ٣/ ١٠، وتفسير الخازن: ٣/ ٨.

وقيل المراد بالوحي هنا: الإلهام، لا وحي الرسالة الذي هو مخصوص بما بعد الأربعين، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (٢) والأول: أولى، إذ وحي الإلهام: لا يطمئن القلب، ولا يزيل الوحشة خصوصاً في هذا الوقت، وفي هذه الحالة.

ولا يقال: كيف جعله نبياً في ذلك الوقت، ولم يكن أحد يبلغه رسالة ربه؟ إذ لا يمتنع أن الله يشرفه بالوحي، ويكرمه بالنبوة والرسالة في ذلك الوقت، وفائدة ذلك ما ذكر من تطييب قلبه وإزالة الهم والغم والوحشة عنه، ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة في وقتها (٣).

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٤).

وقال جل وعلا: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ (٥).

في الآية الأولى: دلالة على أن يعقوب - عليه السلام - صبر صبراً جميلاً على هذا الابتلاء العظيم، وهو فقده يوسف - عليه السلام - وفي الآية

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨. ومسائل الرازي: ١٤٨.

(٣) تفسير الخازن: ٣/ ٨، وفتح القدير: ٣/ ١٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

الثانية إشارة إلى ما يوهم خلاف ذلك، إذ ليست عاقبة الصبر الجميل: مثل هذا الحزن العميق. فكيف ذلك؟

والجواب: إن الحزن ونفور النفس من المكروه والبلاء، لا يخدش مكانة الأنبياء ولا يلحق بهم عيباً ولا يلزم مأثماً ولا لوماً، مادام اللسان غير ناطق بما يغضب الله سبحانه، ولم يتفوه بهجر من القول، ولم يشك لغير خالقه. وقول يعقوب – عليه السلام – ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ شكوى إلى ربه جل وعلا وشبيه بهذا قول النبي ﷺ عندما مات ابنه إبراهيم: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا لفراقك – يا إبراهيم – لمحزونون**»[١].

وقيل: إنه أراد بقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَى﴾ الدعاء، والمعنى: يا رب أرحم أسفي على يوسف.

وذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب الأسف في اللفظ من المجاز الذي يعنى به غير المظهر في اللفظ. وتلخيصه: يا إلهي ارحم أسفي، أو: أنت راء أسفي، وهذا أسفي، فنادى الأسف في اللفظ، والمنادى في المعنى: سواه، كما قال: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ والمعنى: يا هؤلاء تنبهوا على حسرتنا[٢].

قال الله تعالى: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٣].

(١) صحيح الإمام البخاري – كتاب الجنائز.

(٢) زاد المسير: ٤/ ٢٧٠، بتصرف.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٧.

ترك الشيء: إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه. والأنبياء – عليهم السلام – ومنهم يوسف – لم يكونوا على ملة الكفار – قط، فكيف قال يوسف – عليه السلام – ذلك؟

والجواب: الترك نوعان: ترك بعد الملابسة، ويسمى ترك انتقال. وترك قبل الملابسة، ويسمى ترك إعراض. كقوله تعالى في قصة موسى – عليه السلام – : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [1] . وموسى – عليه السلام – ما لابس عبادة فرعون، ولا عبادة آلهته في وقت من الأوقات. وما نحن فيه: من النوع الثاني. فالمراد بالترك هنا: عدم التلبس بذلك من الأصل، ونظير هذه الآية: قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [2] .

وقيل: إن يوسف – عليه السلام – لما كان عند العزيز – وهو كافر – وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم، وكان يوسف – عليه السلام – على التوحيد والإيمان الصحيح: صح قوله: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [3] .

يقول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

(٢) من سورتي الأعراف، وإبراهيم (٨٨، ١٣).

(٣) مسائل الرازي: ١٥٠، وفتح القدير: ٣/ ٢٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

من المعلوم: أن الشيطان لا يتمكن من الأنبياء، فكيف تمكن من يوسف – عليه السلام – حتى أنساه ذكر ربه؟

والجواب: إن النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر، وإزالته عن القلب بالكلية، لا يقدر عليه الشيطان بالنسبة للأنبياء. أما النسيان الذي يكون بشغل الخاطر، وإلقاء الوسوسة، فإنه قد يحصل؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم [(١)].

قال الله عز وجل: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [(٢)].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [(٣)].

وقال ﷺ لعبدالرحمن بن سمرة: «**يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها. وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها**» [(٤)].

فالآية الأولى تدل على أن يوسف – عليه السلام – طلب الإمارة، وفي الحديث: نهي عن طلبها، فكيف التوفيق؟ وكيف الجمع بين قول يوسف – عليه السلام: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وقول الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ؟ وكيف قال يوسف – عليه السلام – : ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ولم يستثن، مع أن الشرع قد ندب إليه؟

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٢١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٤) صحيح الإمام البخاري – كتاب الأحكام – باب من سأل الإمارة وكل إليها.

والجواب عن الأول: إنه إنما يكره طلب الإمارة، إذا لم يتعين طلبها، فإذا تعين عليه طلبها، وجب عليه ذلك ولا كراهة فيه. ويوسف - عليه السلام - كان عليه طلب الإمارة؛ لأنه مرسل من الله تعالى، والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره. وإذا كان مكلفاً برعاية المصالح، ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة: وجب عليه طلبها، فطلبها ليتوصل بها إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق، وبسط العدل ونحوه مما يبعث له الأنبياء. ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك. فطلب التولية ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، وسعياً لمنافع العباد ومصالحهم، لا لحب الملك والدنيا. فالأنبياء - عليهم السلام - أعظم الناس زهداً في الدنيا ورغبة في الآخرة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ [1] يعني: لو كنت أعلم أي وقت يكون القحط؛ لأدخرت لزمنه طعاماً كثيراً، لا للحرص، ولكن: لأتمكن من إعانة الفقراء، ومساعدة الضعفاء وقت الضرورة والمضايقة.

وقيل: إنه لما علم أنه سيحصل قحط وشدة، إما بطريق الوحي من الله تعالى أو: بغيره، وربما أفضى ذلك إلى هلاك معظم الخلق، وكان في طلب الإمارة إيصال الخير والراحة إلى المستحقين، وجب عليه طلب الإمارة لهذا السبب.

وقيل: لما رأى أنه سيستعمله في أمره لا محالة، آثر ما يعم فوائده، ويجل عوائده.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

وفي هذا دليل على جواز طلب التولية، وإظهار أنه مستعد لها. والتولي من يد الكافر، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق، وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به [(١)] .

والجواب عن الثاني: إنه إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوصل به إلى غير ما يحل، فهذا هو القدر المذموم في تزكية النفس. أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها: إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم، بل يجب عليه ذلك. ومثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به، فإنه يجب عليه أن يقول: أنا عالم، لينهل الناس من علمه.

ولما كان الملك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين، ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا، نبهه يوسف – عليه السلام – بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضاً، مع كمال علمه بمصالح الدين.

فلما خلا مدحه لنفسه من البغي والتكبر، وكان مراده به الوصول إلى حق يقيمه، وعدل يحييه، وجور يبطله، كان ذلك جائزاً محموداً. وقد قال نبينا ﷺ: «**أنا أكرم ولد آدم على ربه**» [(٢)] . وقال علي – رضي الله عنه – : «والله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار» . وقال ابن مسعود – رضي الله عنه – : «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته» [(٣)] فهذه

---

(١) مسائل الرازي: ١٥١، وتفسير الخازن: ٣/ ٢٦، وتفسير البيضاوي: ١/ ٥٠٠.

(٢) سنن الإمام الترمذي – كتاب المناقب وسنن الإمام الدرامي – المقدمة.

(٣) صحيح الإمام البخاري – كتاب فضائل القرآن – باب حدثنا عمر بن حفص.

الأمور خرجت مخرج الشكر لله، وتعريف المستفيد ما عند المفيد [١].

والجواب عن الثالث: إن الشيطان قد أنساه ذكر مشيئة الله عز وجل ومن ثم فقد نبهه الله تعالى إلى ذلك، حيث أخر تمليكه سنة. روى الضحاك عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن رسول الله ﷺ قال: «**رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل:** ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ **لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة**». وذكر مقاتل: أن النبي ﷺ قال: «**لو أن يوسف قال:** ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ **إن شاء الله لملك من وقته**».

وقيل: إنه أضمر الاستثناء كما أضمروه في قولهم (ونمير أهلنا). وحتى إن صح أنه أضمر الاستثناء، فهو خلاف الأولى خاصة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقيل: إنه أراد أن حفظي وعلمي: يزيدان على حفظ غيري وعلمه، فلم يحتج هذا إلى الاستثناء لعدم الشك فيه.

وعلى هذا المراد أيضاً كان الأفضل أن يبارك حديثه بذكر مشيئة الله تعالى. ألا ترى أن موسى عليه السلام عوتب في مثل ذلك [٢]؟

قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [٣].

الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – معصومون من ارتكاب المعاصي أو: الأمر بها، واتهام البريء معصية، فكيف جاز ليوسف – عليه السلام –

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٢٦، وزاد المسير ٤/ ٢٤٥.

(٢) زاد المسير: ٤/ ٢٤٤، بتصرف.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٠.

أن يأمر المؤذن بذلك؟ وكيف جاز له أن يحزن والده وإخوته بهذا الصنيع؟

والجواب عن الأول: إن الأنبياء – عليهم السلام – لا يرتكبون الذنوب، ولا يقرون على الوقوع في الخطأ. فإن بدرت منهم بادرة خلاف الأولى نبههم الله عز وجل بالعتب عليها للرجوع عنها، ولم يحدثنا القرآن الكريم عن توجيه اللوم إلى يوسف لهذه الفعلة. فدل ذلك على أن الحادثة لحكمة إلهية أباحت هذا الكيد، وأعطته حكم الحيل الشرعية، التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية. كقوله تعالى لأيوب – عليه السلام – : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ (١) ، وقول إبراهيم – عليه السلام – في حق زوجه هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما أشبه ذلك.

وقيل: إن الذي قال ذلك بعض من فقد الصواع من قوم يوسف من غير أمره. ولم يعلم بما أمر به يوسف من جعل الصواع في رحالهم.

ويرد عليه: أن أمر يوسف – عليه السلام – بجعل الصواع في رحالهم: مسوغ لهذا القول، سواء علم القائل أم لم يعلم. وماذا كان يقول؟ وما الحكمة من جعل الصواع في رحالهم إذا لم يكن يوسف – عليه السلام – هو الآمر بهذا القول؟ وكيف يتكلم ذلك القائل بهذا الافتراء بدون إذن؟

وقيل: إن يوسف – عليه السلام – أمر المنادي بأن ينادي ربه، ولم يرد به سرقة الصواع، وإنما عني به: إنكم سرقتم يوسف من أبيه، وألقيتموه في الجب. فالكلام من باب التورية عما جرى منهم مجرى السرقة. وتصور

---

(١) سورة ص، الآية: ٤٤.

بصورتها. ويرد هذا القول ما ذكر بعد هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ ﴾ [1].

وقيل: إن الكلام يجوز أن يكون خارجاً مخرج الاستفهام، كأنه قال: أئنكم لسارقون؟ فأسقط همزة الاستفهام.

وسواء أكان المراد الاستفهام أم غيره، فقد اتهموا بالسرقة [2].

والجواب عن الثاني: إن احتباس أخيه كان بأمر الله عز وجل، ولحكمة سامية يعلمها سبحانه. ولو لم يكن كذلك لعوتب – عليه السلام – وما أقر عليه. وما دام الأمر كذلك فلا بد من الامتثال وإن أدى إلى حزن والده وإخوته. فقد يكون من جرائه: إزالة الغموم الكثيرة، وتحقق المصالح العظيمة.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٧١-٧٧.

(٢) مسائل الرازي: ١٥١، ومجمع البيان: ١٣/ ٩٥.

ولله عز وجل أن يحمل عباده التكاليف الشاقة، والآصار الصعبة لزيادة مثوبتهم، ورفع درجتهم، وعلو قدرهم.

وقيل: إن يوسف - عليه السلام - صبر عن أبيه لئلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله، شدة فاقتهم.

ويرد عليه: أنه لو كان كذلك لأمكنه أن يبين الأمر أخاه فيدخل السرور على والده بدلاً من أن يتهمهم بالسرقة، ويحبس أخاه فيزيد من حزن وهم والده.

وقيل: إنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرج نفسه إلى كمال السرور. وهل يليق بنبي أن يدرج نفسه إلى كمال السرور بينما يدرج والده وإخوته إلى كمال الحزن [1]؟

يقول جل شأنه: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [2].

والسؤال الآن كيف وجد يعقوب ريح يوسف - عليهما السلام - وهو بمصر؟ ولم يجد ريحه من الجب، والمسافة هناك أقرب؟

والجواب: إن الله تعالى أخفى أمر يوسف على يعقوب - عليهما السلام - في بداية الأمر لتقع البلية التي يتكامل بها الأجر. وأوجد ريحه من المكان البعيد عند انقضاء البلاء ومجيء الفرج.

---

(١) مسائل الرازي: ١٥٢، وزاد المسير: ٤/ ٢٧٥، ومجمع البيان: ١٣/ ١٠٨.

(٢) الفتوحات الإلهية: ٢/ ٤٨٠، وزاد المسير: ٤/ ٢٨٤.

وقيل: إن هذا القميص كان في قصبة من فضة، معلقاً في عنق يوسف فلما نشره فاحت روائح الجنان في الدنيا، فاتصلت يعقوب فعلم أن الرائحة من جهة ذلك القميص.

ويرد هذا القول: أن القميص ذهبوا به إلى أبيهم من قبل.

وقيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل التبشير فأذن لها. فلذا يستروح كل محزون إلى ريح الصبا، ويجد المكروبون لها روحاً، وهي: ريح لينة تأتي من ناحية المشرق.

لكن يرد على هذا القول: أن ريح الصبا تقابل الذاهب إلى الشام ففي المصباح المنير: الصبابوزن: العصا، الريح تهب من مطلع الشمس، وإذا كان كذلك، فكيف تحمل الريح من القميص الذي معه إلى جهة الشام؟ فمقتضى العادة: أن التي حملته هي الدبور؛ لأنها هي التي تذهب من جهة مصر إلى الشام.

ويرد على هذا القول ما ورد على سابقه [1].

يقول جل وعلا: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [2].

---

(١) الفتوحات الإلهية: ٢/ ٤٨٠، وزاد المسير: ٤/ ٢٨٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾[1] .

في الآية الأولى: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى؟ وكيف استجاز يوسف – عليه السلام – أن يسجد له أبوه – وهو أكبر منه، وأعلى منصباً في النبوة والشيخوخة؟ وفيها: دلالة على أن بعض الأنبياء؟ ربما بعث من البلية، وفي الثانية: دلالة على أن الأنبياء من أهل القرى. فكيف الجمع والتوفيق بينهما؟

والجواب عن الأول: إن السجود في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له. وإنما كان يوسف كالقبلة، كما سجد الملائكة لآدم – عليه السلام – ويدل على صحة هذا التأويل قوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾ . وظاهر هذا يدل على أنهم لما صعدوا على السرير، خروا سجداً لله تعالى ولو كان ليوسف. لكان قبل الصعود؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع. ولا يدفع صحة هذا التأويل قوله: ﴿ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ وقوله: ﴿ خَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾ وكون الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات، وهو يوسف – عليه السلام – لاحتمال أن يكون المعنى: وخروا لله سجداً لأجل يوسف واجتماعهم به.

فاللام في قوله: ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ ﴾ للسببية، أي: لأجله، وليست لتعدية السجود إلى يوسف – عليه السلام – والمعنى: وخروا لأجل يوسف سجداً لله تعالى شكراً على جمع شملهم به. والضمير في (له) يعود إلى الله تعالى.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

وقيل: إنه لم يكن سجوداً بوضع الجبهة على الأرض، وإنما كان انحناء كالركوع، لكن يأبى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَخَرُّواْ ﴾ ؛ لأن الخرور عبارة عن السقوط. ولا يرد عليه قوله تعالى: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ (١) ؛ لأنهم قالوا: أراد به ساجداً، فعبر عن السجود بالركوع، كما عبر به عن الصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (٢) . أي صلوا مع المصلين.

وقيل: إن هذه السجدة كانت على سبيل التحية والتكرمة والتواضع كالقيام والمصافحة عندنا، وليست على سبيل العبادة. وكان ذلك جائزاً في ذلك الزمان. فلما جاء الإسلام: نسخت هذه الفعلة.

والجواب عن الثاني: إن الله عز وجل هو الذي أمر يعقوب – عليه السلام – بتلك السجدة، لتحقيق رؤياه، أو لحكمة خفية، وهي أن إخوة يوسف – عليه السلام – ربما احتملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف، فلما رأوا أن أباهم قد سجد له، سجدوا له أيضاً (٣) .

والجواب عن الثالث: إن يعقوب – عليه السلام – نبي من الحضر، ثم انتقل بعد ذلك إلى البادية.

أو: أن البدو الذي جاؤوا منه مستند للحضر، فهو في حكمه (٤) .

أو: أن المراد بالبدو: نزول موضع اسمه بدا.

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٣) مسائل الرازي: ١٥٣، وتفسير الخازن: ٣/ ٤٣.

(٤) دفع إيهام الاضطراب: ١٦٢، بتصرف.

ولا يخفى بعد هذا القول، كما نبه عليه الألوسي في تفسيره [(١)].

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [(٢)].

كيف وصف المشرك بالإيمان؟

والجواب: إن الإيمان الذي وصف به ليس المراد منه حقيقة الإيمان، وإنما المراد منه: الإيمان الظاهري، أي: أن أكثرهم مع إظهارهم الإيمان بألسنتهم، مشركون بقلوبهم اعتقاداً.

وقيل المعنى: وما يؤمن أكثرهم بأن الله تعالى خالقه ورازقه، وخالق السموات والأرض قولاً، إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً.

وقيل: المراد من الإيمان هنا: الدعاء، وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء.

وقيل المراد بالمشركين هنا: أهل الكتاب الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، والتوراة، والإنجيل، ثم أشركوا بإنكار القرآن وإنكار نبوة محمد ﷺ.

ويرد على هذا القول: أن إنكار أهل الكتاب للقرآن ولنبوة محمد ﷺ كفر لا شرك؛ لأنهم آمنوا ببعض أركان الإيمان، وكفروا بالبعض الآخر، فإيمانهم بما آمنوا به كلا إيمان.

وقيل: المراد بالشرك هنا: شرك الطاعة، لا شرك العبادة، فقد أطاعوا الشيطان في المعاصي التي يرتكبونها مما أوجب الله عليها النار، وأشركوا بالله

---

(١) روح المعاني، للألوسي: ١٣/ ٦٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

في طاعته، ولم يشركو بالله شرك عبادة، فيعبدون معه غيره [١].

ويرد على هذا القول: أنه ليست هناك معصية توجب النار سوى الشرك بالله سبحانه وتعالى.

وقيل: المراد بالمشركين هنا: مشركو العرب الذين كانوا يؤمنون في أول تلبيتهم بنفي الشريك، ويشركون في آخرها بإثباته، حيث كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وقد ورد على هذا القول: إن هذه التلبية توحيد كلها، ولا شرك فيها؛ لأن معنى قولهم: إلا شريكاً هو لك. إلا شريكاً هو مملوك لك، موصوفاً بأنك تملكه وما ملك، واللام هنا للملك، لا لعلاقة الشركة.

وهذا الاستثناء: يحتمل أن يكون حقيقياً، ويحتمل أن يكون مجازياً.

فالأول: أنا إن قلنا إن اللام حقيقة في المعنى العام في مواردها وهو الاختصاص، يكون قولهم لا شريك لك، عاماً في نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما، فيدخل في النفي من جهة لفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية، وهو زيد وعمر ونحوهما، ثم يقع عليه الاستثناء فيكون حقيقياً.

وإن قلنا: إن اللام مشتركة بين المعاني الثلاثة الموجودة في موارد استعمالها وهي الملك والاستحقاق، والاختصاص، والعلية. فقولهم لا شريك لك يكون عاماً أيضاً عند من يجوز حمل المشترك على مفهومه في حالة واحدة.

---

(١) مسائل الرازي: ١٥٤، والخازن: ٣/ ٤٥، وزاد المسير: ٤/ ٢٩٤.

فيكون الاستثناء أيضاً حقيقياً كما مر.

وأما على قول من لا يجوز ذلك، يكون النفي وارداً على أحد مفاهيمه، وهو علاقة الشركة، فيكون الاستثناء مجازياً من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو نوع من أنواع البلاغة مذكور في علم البيان والمعنى: إن كان الشريك المملوك لك يصلح شريكاً، فلك شريك.

وهو لا يصلح شريكاً لك، فلا يكون لك شريك؛ لأن كل ما يدعى أنه شريك لك فهو مملوك لك، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾[1].

والجواب على الوجه الأول: إنه ليس بصحيح؛ لأننا لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام، وهو الاختصاص، يلزم منه الكفر حيث وجد نفي الشريك من غير استثناء؛ لأنه يلزم منه نفي ملكه تعالى شريك زيد وعمرو ونحوهما، وهو كفر واللازم منتف؛ لأنه إيمان محض بلا خلاف.

وإن قيل: إنما لم يكن كفراً – مع عمومه – لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء، نفي كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك، لا نفي كل شريك يضاف إليه بجهة ما، فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٨.

والجواب عن أصل السؤال: إنه سؤال حسن محقق، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين.

فإن صح أن النبي ﷺ نهى عنها، فإنما نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك لمقتضى الاستثناء عند قاصري النظر، وهم عوام الناس. فلهذه المفسدة نهى عنها.

***

سورة الرعد

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾[(١)].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾[(٢)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[(٣)].

وقال عز شأنه: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[(٤)].

وقال عز شأنه: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ ﴾[(٥)].

وقال جلت حكمته: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[(٦)].

ففي الآية الأولى: دلالة على أن لكل قوم هادياً. وفي الآية الثانية والثالثة والرابعة: دلالة على أن بعض الناس لم يكن لهم هاد بالمعنى الخاص. وفي الآية الخامسة والسادسة دلالة على أن بعض الناس لم يكن لهم هاد بالمعنى العام. فكيف التوفيق؟

والجواب: إن معنى الآية الأولى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ أي: داع يدعوهم

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

(٥) سورة يس، الآية: ٦.

(٦) سورة المائدة، الآية: ١٩.

ويرشدهم، إما إلى خير كالأنبياء، وإما إلى شر كالشياطين. وقد جاء في القرآن: استعمال الهدى في الإرشاد إلى الشر أيضاً كقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾ (١)، وقوله: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ ﴾ (٢). وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٦٩ ﴾ (٣) كما جاء في القرآن استعمال كلمة الإمام وإطلاقها على الداعي إلى الشر في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ (٤).

وقيل: إن معنى الآية الأولى: إنما أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وعلى هذا القول، فقوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ يعني به نفسه تعالى: ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٥). يعني: نفسه كما قال قتادة. وتحرير المعنى على هذا القول: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم سبقت لهم السعادة والهدى في علمي.

وذلك لدلالة آيات كثيرة على أنه تعالى هدى قوماً، وأضل آخرين وفق

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨، ١٦٩.

(٤) سورة القصص، الآية: ٤١.

(٥) سورة فاطر، الآية: ١٤.

ما سبق به العلم الأزلي كقوله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1].

وقيل: إن معنى ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي: قائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل، وعلى هذا القول فالمعنى: ولكل قوم عمل يهديهم إلى ما هم صائرون إليه من خير وشر. والدليل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [2]. على قراءة من قرأها بتائين مثناتين، بمعنى تتبع كل نفس ما أسلفت من خير وشر.

وأما على القول بأن معنى (تتلو) تقرأ في كتاب عملها ما قدمت من خير وشر، فلا دليل في الآية. ويدل على ذلك حديث: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ...**» الحديث [3].

وقيل: إن المراد بالقوم: الأمة، والمراد بالهادي، النبي، فيكون معنى قوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي: ولكل أمة نبي، كقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [4]. وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ [5]، وكثيراً ما يطلق في القرآن اسم القوم على الأمة، كقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [6].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٠٠.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

(٥) سورة يونس، الآية: ٤٧.

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٢٣.

وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ﴾ [(١)] . وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ﴾ [(٢)] ونحو ذلك.

وعلى هذا القول فالمراد بالقوم في قوله: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أعم من مطلق ما يصدق عليه اسم القوم لغة. فآباء القوم الذين لم ينذروا مثلاً المذكورون في قولـه: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [(٣)] . ليسوا أمة مستقلة حتى يرد الإشكال في عدم إنذارهم مع قوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، بل هم بعض أمة.

وأقرب الأوجه المذكورة عندنا، هو ما يدل عليه القرآن العظيم، وهو الوجه الرابع. ووجه دلالة القرآن على هذا، كثرة إتيان مثله في الآيات كقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [(٤)] .

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ [(٥)] .

وقال جل وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ

(١) الآيات: (٦٥، ٥٠) من سورتي الأعراف وهود.

(٢) الآيات: (٧٣، ٦١) من سورتي الأعراف وهود.

(٣) سورة يس، الآية: ٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٥) سورة الرعد، الآية: ١٤.

ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (١).

في الآية الأولى: دلالة على أن دعاء الكافرين في ضياع وبطلان. وفي الآية الثانية: دلالة على أن الكفار يدعون الله في وقت الشدائد والأهوال فيستجيب لهم. فكيف التوفيق؟

والجواب: إن معنى الآية الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: والأصنام الذين يدعونهم المشركون، فحذف الراجع، أو: والمشركون الذين يدعون الأصنام، فحذف المفعول لدلالة (من دونه) عليه: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ من المطالب.

وقيل: إن المراد بالدعاء هنا: العبادة، والمعنى: وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، ويعضده قوله تعالى قبله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: يعبدون.

ويرد عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ الذي يرشح أن يكون المراد بالدعاء الطلب لا العبادة.

وقيل المراد: وما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال؛لأن أصواتهم محجوبة عن الله، واستجابة الله دعاء الكافرين ليس على إطلاقه، بل هي في وقت الشدة والهول، وإخلاص الدين لله (٢).

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) مسائل الرازي: ١٥٦، وزاد المسير: ٤/ ٣١٨، والبيضاوي: ١/ ٥١٦.

قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ (٢).

وقال جل جلاله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٣).

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (٤).

وقال جل شأنه: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (٥).

في الآيات الثلاث الأول: دليل على إيمان أهل الكتاب؛ لأن الفرح بما أنزل على النبي ﷺ دليل الإيمان، وفي الآيتين: الرابعة والخامسة: دليل على أن أكثرهم فاسقون، وأنهم من أهل النار. فكيف التوفيق؟ وكيف قال: ﴿ وَمِنَ

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧ – ١٠٩.

(٤) سورة البينة، الآية: ٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

﴿ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ ، والأحزاب من المشركين، وأهل الكتاب وغيرهم ينكرون القرآن كله.

والجواب عن الأول: إن الآية من العام المخصوص، فهي في خصوص المؤمنين من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، ومن أسلم من اليهود، والنصارى ويدل عليه التبعيض في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾ [١].

وقيل: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في الابتداء، فلما أسلم عبدالله ابن سلام ومن معه من أهل الكتاب، ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرته في التوراة، فلما كرر الله تعالى لفظة الرحمن، فرحوا بذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ [٢].

والجواب عن الثاني: إن الأحزاب لا ينكرون القرآن بجملته؛ لأنه قد وردت آيات كثيرة دالة على توحيد الله، وإثبات قدرته، وعلمه، وحكمته، وهم لا ينكرون ذلك أبداً. إذ أن ذلك أمر اتفقت عليه الشرائع، وتطابقت على عدم إنكاره جميع الملل المنزلة على الرسل – عليهم الصلاة والسلام.

وإنما ينكرون ما يتنافى مع غرضهم، فينكرون لفظ: (الرحمن) ويؤمنون بلفظ الجلالة (الله). وذلك أنه لما كتب رسول الله ﷺ كتاب الصلح يوم الحديبية، كتب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: ما نعرف الرحمن إلا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. فأنزل الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ (١). ومن ثم أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقول لهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾. أي: قل لهم يا محمد إلزاماً للحجة، ورداً للإنكار: إنما أمرت فيما أنزل إلي بعبادة الله وتوحيده، ولا أشرك بوجه من الوجوه (٢).

يقول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (٣).

وفي الحديث: «**من أحب أن ينسأ له في أثره فليصل رحمه**» (٤).

وعن حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصورها. وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظمها، ثم قال: يا رب: ذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء، فيكتب الملك ثم يقول: يا رب: أجله، فيقول ربك ما يشاء، ويكتب الملك. ثم يقول: يا رب: رزقه. فيقول ما يشاء. ويكتب الملك، ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على أمر ولا ينقص».

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٠، وراجع تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٩٣.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: ١٦٧، وتفسير الخازن: ٣/ ٩٦، وفتح القدير: ٣/ ٨٧، ومسائل الرازي: ١٥٧.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٤) بلفظ متقارب: تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٥٧٤.

وفي حديث ابن مسعود: ثم يؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه، وأجله، وشقي، أو سعيد [١].

الآية الكريمة والحديث الأول يدلان بظاهرهما على جواز تغيير المكتوب، ومحوه وإثبات غيره. والحديثان: الثاني والثالث: يدلان على عدم تبديل المكتوب. فقد رفعت الأقلام، وجفت الصحف، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن الله عز وجل قد كتب الآجال والأرزاق، وقدر السعادة والشقاوة. ولا تبديل لما كتبه سبحانه ولا تغيير لما علمه أزلاً. فقد ثبت ذلك بالأدلة السمعية والبراهين القطعية، وحقيقة العلم: معرفة المعلوم على ما هو عليه، فإذا علم الله أن فلاناً يموت في وقت معين، استحال أن يموت قبله أو بعده. وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [٢].

وأما ما ورد من أن صلة الرحم تنسأ في الأثر، وتزيد في العمر، فقد أجاب العلماء عنها بأجوبة، الصحيح منها: أن هذه الزيادة تكون بالبركة في العمر والتوفيق للطاعات، وعمارة الأوقات وصيانتها عن الضياع، وشغلها بما ينفع في الدارين.

وقيل: المراد بالزيادة: السعة في الرزق. ويرد عليه: أن الرزق من الأمور المقسومة والمكتوبة أزلاً، ويمكن أن يكون المراد بالزيادة فيه: البركة فيه أيضاً.

---

(١) صحيح الإمام البخاري – كتاب بدء الخلق – باب ذكر الملائكة.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.

وقيل المراد بالزيادة في العمر. نفي الآفات، والزيادة في الفهم والعقل، والبصيرة والتدبر وغير ذلك.

وقيل: إن هذه الزيادة هي بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ: أن عمر فلان مثلاً ستون سنة، إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون سنة. وقد علم الله في الأزل ما سيقع من ذلك وهو معنى قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي: بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصور الزيادة.

وقيل: الذي يمحو ويثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصيته، فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو. والذي يثبت هو الرجل أيضاً يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو في طاعته، فهو الذي يثبت.

وهذا القول مردود؛ لأن الله عز وجل أسند المحو والإثبات لنفسه عز وجل فقال: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ تعريفنا أن الإيجاد والإعدام، والإثبات والنفي، متعلق بمشيئته على حسب ما سبق في علمه، وجرى به قلمه. نفياً؛ لأن يكون ذلك إلى غيره، أو من سواه. وهذا ما تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

ومن العلماء من حمل الآية على ظاهرها، وجعلها عامة في كل شيء يقتضيه ظاهر اللفظ، فيزيد الله ما يشاء في الرزق والأجل، وكذا القول في الشقاوة والسعادة، والإيمان والكفر فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، لا اعتراض لأحد عليه: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقد روي عن عمر – رضي الله عنه – كان يطوف بالبيت، وهو يبكي ويقول: «اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فاثبتني فيها، وإن كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني منها، واثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب». وقد ورد في بعض الآثار: أن الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام، فيصل رحمه فيمتد إلى ثلاثين سنة.

أو: أنهما خاصان بالأمر الموقوف دون المحتوم.

أو خاصان بما سوى الشقاوة والسعادة، والحياة والموت، لقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي: لكل أجل من آجال الخلق: كتاب عند الله، وأن الله يمحو من جاء أجله، ويثبت من لم يجئ أجله، وذلك أن الله توعد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة، وتهددهم بها وقال لهم: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [١]. يعلمهم بذلك: أن لقضائه فيهم أجلاً مثبتاً في كتاب هم مؤخرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل يجيء الله بما شاء ممن قد دنا أجله، وانقطع رزقه، أو حان هلاكه، أو اتضاعه بعد رفعه، أو هلاك مال، فيقضي ذلك في خلقه فذلك محوه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما عليه فلا يمحوه.

وهذا الأخير موافق لظواهر النصوص، وكل تخصيص بغير ما وردت به الأحاديث فهو تخصيص بلا مخصص، وتأويل بدون سند [٢].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

(٢) زاد المسير: ٤/ ٣٣٧، ومجمع البيان: ١٣/ ١٨٥، وتفسير الخازن: ٣/ ٦٦.

قال الله عز وجل: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [(١)].

كيف أثبت لهم المكر ثم نفاه عنهم؟

والجواب: إنه لما كان مكر الماكرين مخلوق له، ولا يصير إلا بإرادته، صح بهذه الجهة إضافة مكرهم إليه فإثباته لهم باعتبار الكسب، ونفيه عنهم باعتبار الخلق.

وقيل: إنه جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره سبحانه؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون، فيعكس مكرهم عليهم [(٢)].

***

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٢) مسائل الرازي: ١٥٧، بتصرف.

سورة إبراهيم -عليه السلام

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

مدلول هذه الآية في حق الأنبياء السابقين – عليهم السلام – مناسب؛ لأن كل واحد منهم كان يبعث إلى قومه خاصة، فكيف يتناسب في حق النبي ﷺ الذي أرسل إلى العالمين؟ وإن كان الله تعالى قد خلق الناس على ألسنة ولغات شتى لحكمة يعلمها سبحانه، فكيف لم ينزل القرآن بألسنة الناس جميعاً؟

والجواب: إن الله عز وجل ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه الذين هو منهم وبعث فيهم، حتى يكون فهمهم لأسرار شريعتهم أعمق، ووقوفهم على حقائقها أسهل، وإدراكهم لغرضها أتم وأكمل. كما أن ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين، واستنباط الحدود والأحكام، واستخلاص العلوم والفوائد، وكل ذلك قرب مقتضيه لجزيل الثواب.

فإذا ما بانت لهم شريعتهم وتمكنوا منها تمام التمكن، قاموا بنقلها إلى غير جنسهم ممن شملهم عموم الدعوة. وإنما كان الكتاب واحداً، وبلغة واحدة، صوناً للمدعوين عن الغلط والخطأ. وأبعد لهم عن التحريف والتبديل، وأسلم لساحتهم من الشقاق والخلاف.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

فلو نزل بألسنة الثقلين، وكان معجزاً في واحد منها، وكلم الرسول العربي - عليه الصلاة والسلام - كل أمة بلسانها كما يكلم أمته التي هو منها لكان ذلك أمراً قريباً من القسر والإلجاء. وبعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لم تبن على ذلك، بل على التمكين من الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد كافياً، كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ﷺ.

فكان نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ للإنس والجن أجمعين، بلسان عربي مبين كاف؛ لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله على جميع اللغات، ويكفي عن التطويل.

وقد كان موسى وعيسى - عليهما السلام - مبعوثين إلى بني إسرائيل بكتابيهما: العبراني وهو التوراة، والسرياني وهو الإنجيل، مع أن من جملتهم جماعة لا يفهمون العبرانية ولا السريانية، كالروم، فإن لغتهم اليونانية.

ومناسبة نزول هذه الآية أن قريشاً قالت: ما بال الكتب كلها أعجمية وهذا عربي؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية [١].

وقيل الأولى: أن يحمل القوم على من أرسل إليهم الرسول أياً كان، وهم بالنسبة لغير سيدنا محمد ﷺ خصوص عشيرة رسولهم وبالنسبة إليه: كل من أرسل إليه من سائر القبائل وأصناف الخلق، وهو ﷺ كان يخاطب كل قوم بلغتهم، وإن لم يثبت أنه تكلم باللغة التركية؛ لأنه لم يتفق أنه خاطب أحداً من أهلها، ولو خاطبه لكلمه بها.

---

(١) البحر المحيط، ٥/ ٤٠٥.

ولكن محل النزاع في لغة الكتاب الذي نزل لهداية الإنس والجن أما كونه ﷺ قد خاطب كل قوم بلغتهم إن صح فلا يعدو أن يكون إعجازاً زمنياً يزيد تصديقه – صلوات الله وسلامه عليه – في دعوى الرسالة، ولا يتناول الكتاب المنزل بالعربية لهداية العالمين (١).

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ (٢).

كيف يقرر المخاطب على العلم بخبر تلك الأمم، ثم ينفي علم حالهم عما سواه تعالى؟

والجواب: إن المراد بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴾ الذي أخبرهم بخبرهم جملة لا تفصيلاً.

ويحتمل أن يريد: أنه أتاهم نبأ هؤلاء على الجملة، ويريد بقوله: ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴾ التفصيل من أحوالهم، فلذلك قال بعده: ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فالكلام مستقيم (٣).

يقول المولى عز وجل: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤).

---

(١) مسائل الرازي: ١٥٨، تفسير الخازن: ٣/ ٧٠، زاد المسير: ٤/ ٣٤٥، الفتوحات الإلهية: ٣ / ٥١٤، روح البيان: ٤/ ٣٩٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

(٣) تنزيه القرآن: ٢٠٧.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

إن الله عز وجل عالم بحال الخلق جميعاً، ولا تخفى عليه خافية من أحوالهم قبل البروز وبعده، فكيف قال: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ؟ وكيف طابق جواب المستكبرين سؤال الضعفاء؟

والجواب عن الأول: إنهم لما كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي، ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، خرج الكلام على ما يعتقدونه. وانكشفوا لأنفسهم أمام الله عز وجل والبراز: المكان في الفضاء الذي ليس فيه شيء يستر أحد [(١)] . والمعنى وخرجوا من قبورهم، واجتمعوا لله سبحانه في براز من الأرض؛ ليحاسبهم، ويجازيهم على قدر أعمالهم [(٢)] .

والجواب عن الثاني: إنه لما كان قول الضعفاء ليس على سبيل الحقيقة، وإنما على سبيل التوبيخ والتقريع والعتاب للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم بهم، كان جواب المستكبرين بإحالة الذنب على الله تعالى في ضلالهم وإضلالهم، كما قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [(٣)] . وقالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾ [(٤)] .

يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا، كما حكى الله تعالى عن المنافقين: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [(٥)] .

---

(١) ويقال: برز أي حصل في البراز، وذلك: أن يظهر بذاته كلها.

(٢) فتح القدير: ٣/ ١٠٣، وتفسير الخازن: ٣/ ٧٤، تفسير ابن كثير: ١/ ٢٩٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٤) سورة النحل، الآية: ٣٥.

(٥) سورة المجادلة، الآية: ١٨.

ولما كان عتاب الضعفاء للذين استكبروا جزعاً مما هم فيه، وقلقاً من ألم العذاب، قال لهم رؤساؤهم: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [١]. يريدون أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين عليها في الدنيا، كأنهم قالوا للضعفاء: ما هذا الجزع والتوبيخ؟ ولا فائدة، كما لا فائدة في الصبر، فإن الأمر أعظم من ذلك وأعم.

وقيل معنى جوابهم: لو هدانا الله في الآخرة طريق النجاة من العذاب لهديناكم. أي: لأغنينا عنكم، وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة في الدنيا [٢].

قال جل شأنه حاكياً عن الشيطان مقرراً له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [٣].

وقال عز وجل: ﴿ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ ، والأمر لم يقض بعد، وإنما يكون يوم القيامة؟ وكيف نفى أن يكون للشيطان سلطان على أحد، بينما أثبت في الآية الثالثة أن له سلطاناً على أوليائه؟

والجواب عن الأول: إنه يجوز لغة: وضع المستقبل موضع الماضي لاستحضار الصورة، ووضع الماضي موضع المستقبل، تشبيهاً للمستقبل بالماضي في تحقق الوقوع؛ لأن الماضي والمستقبل في أخبار الله عز وجل سواء،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

(٢) مسائل الرازي: ١٦٠، بتصرف.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

وذلك إذ أمن اللبس في الحالتين.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾[1]. أي: ما تلت، وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ نفي اللبس، وقوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾[2]. أي: قتلتم. وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ نفى اللبس.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: لما يقضي، ونفي اللبس: أن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[3].

والجواب عن الثاني: إن السلطان الذي أثبته له عليهم، غير السلطان الذي نفاه عنه. وذلك أن السلطان المثبت له هو: سلطان إضلاله إياهم بتزيينه المعاصي لهم، والسلطان المنفي: هو سلطان الحجة والبرهان. فليس لإبليس على أحد من حجة يتسلط عليه، ولا برهان يقيمه له، غير أنه دعاهم بلا حجة فأجابوه، وزين لهم أعمالهم بدون برهان فأطاعوه، وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن.

أو: أن الله عز وجل لم يجعل لإبليس سلطاناً ابتداءً، ولكن الخلق هم الذين سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في حزبه. فلم يتسلط عليهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩١.

(٣) سورة النحل، الآية: ١، وانظر مسائل الرازي: ١٦٠.

بقوة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [(١)] . وإنما يتسلط عليهم بإرادتهم واختيارهم، ذكر هذا الجواب بوجهيه العلاّمة ابن القيم [(٢)] .

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [(٣)] .

وقال جلت حكمته: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [(٤)] .

في الآية الأولى دلالة على ضعف كلمة الشرك ووهنها وتلاشيها، وفي الثانية دلالة على عظمتها وشدة عاقبتها، وأليم أثرها فكيف التوفيق؟

والجواب: إنه وصف كلمة الشرك في الأولى بالضعف، وفي الثانية بالقبح، فهي في غاية الضعف، وفي غاية القبح والفظاعة، فلا تنافٍ بينهما [(٥)] .

ولعل وصف كلمة الشرك في الأولى بالضعف والوهن من حيث رجاء النفع بها في الدنيا، وتوقع المثوبة عليها في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [(٦)] .

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: ١٧٥، بتصرف.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(٤) سورة مريم، الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٥) مسائل الرازي: ٢١٧.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

وأما ما تشير إليه الآية الثانية من عظيم قوتها، وبالغ تأثيرها فهو من حيث المؤاخذة عليها، وشدة الأخذ بها قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (١).

قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢).

رأينا كثيراً من الضالين هداهم الله بالإسلام، وصاروا من الأتقياء، فكيف قال ذلك؟

والجواب: إن المراد منه الظالم الذي سبق عليه القضاء في الأزل أنه يموت على الظلم. فالله تعالى يثبته على الضلالة لخذلانه، كما يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد.

وقيل: إن المعنى لا يهديهم ما داموا مصرين على الكفر والظلم، معرضين عن النظر والاستدلال.

وقيل: إن ذلك يوم القيامة، وأن الله يضل المشركين عن طريق الجنة، ولكن قوله: ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ يعارض هذا التخصيص.

يقول عز وجل: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (٣).

وقال جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (٤).

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٠.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣.

الآية الأولى: يوهم ظاهرها: أن غرضهم من اتخاذ الأنداد: الضلال والإضلال.

والآية الثانية: تبين أن غرضهم من ذلك التقرب إلى الله عز وجل. فكيف ذلك؟

والجواب إن قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ إفراط في الكذب، وتوغل في الكفر، ولذا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [(١)] فقولهم هذا بحسب معتقدهم الباطل، وظنهم الفاسد.

وأما الآية الأولى فعلى قراءة ضم الياء في ﴿ لِّيُضِلُّواْ ﴾ [(٢)] تكون اللام لام الغرض والمقصود أي: ليوقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله. وهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً.

وأما على قراءة فتح الياء [(٣)] فليست اللام لام الغرض والمقصود؛ لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، وإنما هي لام العاقبة والصيرورة، أي: ليتعقب جعلهم الله أنداداً ضلالهم. فلما كان نتيجة اتخاذ الأنداد: الضلال والإضلال جعل كالغرض، إذ اتخاذ الأنداد أفضى بهم إلى الضلال والإضلال، فصاروا كأنهم اتخذوها لذلك.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) البحر المحيط: ٥/ ٤٢٥.

(٣) المصدر السابق.

وحسن استعمال لام العاقبة هنا؛ لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز [(١)].

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ۝٣١﴾ [(٢)].

وقال عز وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [(٣)]. وقال ﷺ: **«المرء مع من أحب»**.

في الآية الأولى: نفي الخلة يوم القيامة. وفي الآية الثانية والحديث: إثبات لها، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن الخلة المنفية لمن لم يقم الصلاة، ولم يؤد الزكاة. فأما المقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة: فهم الأتقياء، وبينهم الخلال يوم القيامة [(٤)].

يقول جل ثناؤه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣﴾ [(٥)].

المسخر للإنسان هو: الذي يكون في طاعته، يصرفه كيف شاء بأمره ونهيه؛ كالدابة والعبد والفلك. يقال: فلان مسخر لفلان، إذا كان مطيعاً له، وممتثلاً لأوامره ونواهيه، فكيف سخر للإنسان: الشمس والقمر والليل والنهار؟

---

(١) مسائل الرازي: ١٦١ - ١٦٢، فتح القدير: ٣/ ١٠٩، تفسير البيضاوي: ١/ ٥٣١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣١.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٤) مسائل الرازي: ١٦٢.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٣.

والجواب: إنه لما كان طلوعهما وغروبهما وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلاً مستمراً اتصالاً لا تنقطع علينا فيه المنفعة، ولا تنخرم سواء شاءت هذه المخلوقات أم أبت، أشبهت المسخر المقهور في الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما.

وقيل: المعنى أنها مسخرة لله لأجلنا ومنافعنا، فإضافة التسخير إلى الله تعالى بمعنى أنه فاعل التسخير، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا، فصحت الإضافتان [١].

وقيل: تسخير هذه الأشياء: هو تعليمهم كيفية اتخاذها [٢].

قال الله عز وجل: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ [٣].

الله تبارك وتعالى لم يعطنا كل ما سألناه، ولا بعضاً من كل فرد مما سألناه، فكيف قال ذلك؟

والجواب: إنه أعطانا بعضاً من جميع ما سألناه، لا من كل فرد فرد ولكن لما كان البعض المذكور وهو الأكثر من جميع ما سألناه، وهو الأصلح والأنفع لنا في معاشنا ومعادنا بالنسبة إلى البعض الذي منعه لمصلحتنا أيضاً، كان كأنه أعطانا جميع ما سألناه.

وهذا القول هو المناسب لظاهر الآية؛ لأنه قال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ ولم يقل وآتاكم كل ما سألتموه.

وقيل أعطى جميع السائلين بعضاً من كل فرد مما سأله جميعهم وإيضاحه:

---

(١) مسائل الرازي: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٢٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

أن يكون قد أعطى هذا شيئاً مما سأله ذاك، وأعطى ذاك شيئاً مما سأله ذاك، وأعطى ذاك شيئاً مما سأله هذا؛ على ما اقتضته الحكمة والمصلحة في حقهما، كما أعطى النبي ﷺ الرؤية ليلة المعراج وهي مسؤول موسى – عليه السلام – وما أشبه ذلك.

ويرد على هذا القول. أنه كيف يحسن الامتنان على شخص بما أنعم الله به على آخر، وهذه الآية مما منَّ الله به على عباده [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [(٢)].

كيف يحسن هذا الدعاء من إبراهيم – عليه السلام – والأنبياء معصومون من عبادة الأصنام، وكيف سأل ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وقد وجد من أولاده من عبدها: ككفار قريش وغيرهم؟

والجواب عن الأول: إن إبراهيم – عليه السلام – وإن كان عالماً بأن الله عز وجل – قد عصم الأنبياء من عبادة الأصنام، إلا أنه دعا بهذا الدعاء طلباً لزيادة العصمة والثبات عليها، وهضماً للنفس وإظهاراً للعجز والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته، وبياناً إلى أنه لا أحد يقدر على نفع نفسه بشيء لم ينفعه الله به. فلهذا دعا لنفسه بهذا الدعاء. كما قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [(٣)]. وكما قال شعيب – عليه السلام: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [(٤)].

---

(١) مسائل الرازي: ١٦٣، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٥٢٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

وقيل: إنه سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن علم ذلك، فإن الأنبياء - عليهم السلام - أعرف بالله من جميع الناس. فخوفهم أكثر من خوف غيرهم. فهو دعاء لنفسه في مقام الخوف، فيكون معذوراً بسبب ذلك. ولكن الخوف الذي يذهل العقول، وتطيش بسببه الألباب بالنسبة للأنبياء فيه نظر.

وقيل: إنه قصد بهذا دعاء: الجمع بينه وبين بنيه ليستجاب لهم ببركته.

وقيل: إن في حكمة الله تعالى وعلمه أن لا يبتلي نبياً من الأنبياء بالكفر؛ بشرط أن يكون متضرعاً إلى ربه طالباً منه ذلك، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة [١].

والجواب عن الثاني: إن إبراهيم - عليه السلام - دعا لبنيه من صلبه، ولم يعبد أحد منهم صنماً قط.

أو: أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء، ولا شك أن إبراهيم - عليه السلام - قد أجيب فيهم.

وقيل. إن هذا الدعاء من العام المخصوص بمن أذن الله أن يدعو له، فكأنه قال: وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم؛ لأن دعاء الأنبياء مستجاب، وقد كان من بنيه من عبد الصنم.

وقيل: إن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده، ويدل عليه أنه قال في آخر الآية: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [٢]. وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه [٣].

---

(١) مسائل الرازي: ١٦٤، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٥٢٧، وتفسير الخازن: ٣/ ٨١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٣) تفسير الخازن: ٣/ ٨١.

يقول الله عز وجل: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وقال جل شأنه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (٣).

الآية الأولى تبين أن الأصنام مضلة، والمضل ضار، والآية الثانية تبين أن الأصنام لا تضر ولا تنفع، فكيف التوفيق؟ وما سبيل الجمع بين قوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾.

والجواب عن الأول: إنهم لما ضلوا بسببها فكأنها أضلتهم، كما يقال: فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي: افتتنوا بسببها واغتروا، ومثله قولهم: دواء سهل، وسيف قاطع، وطعام مشبع، وماء مر، وما أشبه ذلك، ومعناه: حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء. وفاعل الآثار هو الله تعالى (٤).

والجواب عن الثاني: إن المعنى: ومن عصاني فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم.

وقيل المعنى: ومن عصاني، ثم تاب فإنك غفور رحيم.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٣) سورة النساء، من الآيتان: (٤٨، ١١٦).

(٤) مسائل الرازي، ١٦٤.

وقيل: إن هذا كان قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك، كما استغفر لأبويه، وقد تقرر أن ذلك غير محظور، فلما عرف أنهما غير مغفور لهما تبرأ منهما.

وقيل المعنى: ومن عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم، يعني: أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإسلام، وتهديه إلى الصواب، ولكنك أخبرت بأن لا تفعل ذلك بقولك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [1].

يقول الله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [3].

كيف قال إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، وإنما بناه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بعد ذلك، وكيف التوفيق بين قوله: ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ وقوله: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الآيتان: وفي الأولى: يسأل الرزق لذريته. وفي الثانية: بيان أن

---

(١) الفتوحات الإلهية: ٢/ ٥٢٧، بتصرف.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الذاريات: الآيتان: ٢٢، ٢٣.

الرزق مقسوم وحق لا ريب فيه.

والجواب عن الأول: إن المعنى عند بيتك الذي كان، ثم رفع عند الطوفان.

وقيل المعنى: عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان.

وقيل: يحتمل أن يكون الله عز وجل قد أوحى إليه، وأعلمه أن له هناك بيتاً قد كان في سالف الزمان، وأنه سيعمر، فلذلك قال: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾.

وقيل: إن هذا الدعاء إنما كان بعد أن بنى البيت، وصارت مكة بلداً. والمفسرون على خلاف هذا القول [(١)].

والجواب عن الثاني: إن الله تعالى قد ضمن الرزق والقوت الذي لا بد للإنسان منه ما دام حيّاً، ولم يضمن كونه ثمراً، أو حبّاً، أو نوعاً معيناً، فالسؤال إنما كان لطلب الثمر عيناً.

ويرد على هذا أن الرزق هو كل عطاء ينتفع به الإنسان، سواء كان قوتاً ضرورياً، أو ثمراً شهياً ولعل سؤال الرزق من باب الالتجاء إلى الله، والتضرع إليه، وطلب ما هو حاصل جائز من هذه الناحية [(٢)].

يقول المولى عز شأنه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ [(٣)].

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٨٢، وزاد المسير: ٤/ ٣٦٦، وتنزيه القرآن: ٢١١.

(٢) مسائل الرازي: ١٦٥، بتصرف.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

الأنبياء معصومون من الذنوب، والمغفرة لا تكون إلا من ذنب، فكيف طلب المغفرة لنفسه؟ وكيف استغفر لوالديه وكانا كافرين، والاستغفار للكافر لا يجوز؟ ولا يقال: إن هذا موضع الاستثناء المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ (١). لأن المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة بقوله: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (٢). ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ (٣).

والجواب عن الأول: إن المقصود منه الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، وقطع الطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه، والاعتراف بالعبودية له، والاتكال على رحمته عز وجل.

والجواب عن الثاني: إن هذا الدعاء: كان قبل أن يتبين له عداوتهما لله سبحانه؛ لأن المنع لا يعلم إلا بالتوقيف، فلعله لم يجد منعاً فظن جوازه.

وقيل: إن هذا الاستغفار لهما كان مشروطاً بإيمانهما تقديراً، كأنه قال: ولوالدي إن آمنا.

وقيل: إنه أراد بهما آدم وحواء – عليهما السلام.

وهذا بعيد، إذ لم يجر ذكرهما في الكلام، وإضافتهما إلى إبراهيم – عليه السلام – تخصيص بدون مخصص.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٦.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

وقيل: إن هذا الدعاء كان زلة من إبراهيم – عليه السلام – وإليه أشار بقوله: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١).

وقيل: إنه استغفر لأبويه وهما حيان، طمعاً في أن يهديا إلى الإسلام.

وقيل: إن أمه أسلمت فدعا لها.

وقيل: إن أبوي إبراهيم – عليه السلام – لم يكونا كافرين؛ لأنه إنما يسأل المغفرة لهما يوم القيامة، فلو كانا كافرين لما سأل ذلك، وأن أباه الذي كان كافراً: إنما هو جده؛ لأنه كان قد وعده أن يسلم. فلما مات على الكفر تبرأ منه، فقول فاسد؛ لأن إبراهيم – عليه السلام – إنما دعا بهذا الدعاء بعد الكبر، وهبة إسماعيل وإسحاق له، وقد تبين له في هذا الوقت عداوة أبيه الكافر، فلا يجوز أن يقصده بدعائه.

وهذا مردود لمعارضته لظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٢).

كما أن لفظ الأب على الجد أو: العم، غير مطرد، وقد وعد إبراهيم – عليه السلام – بالدعاء حيث قال: ﴿ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ (٣).

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة مريم، الآية: ٤٨.

وقرئ (ولولدي) [١] يعني: إسماعيل وإسحاق، ويعضد هذه القراءة سبق ذكرهما، وعلى هذه القراءة فلا إشكال [٢].

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [٣].

الرسول ﷺ أعلم الخلق بصفات الله عز وجل وكمال سلطانه، فكيف خوطب بهذه العبارة؟

والجواب: إنه إذا كان المخاطب بذلك هو الرسول ﷺ فالمراد بهذا الخطاب: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً. فهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [٤]، وقوله: ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [٥]. وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ [٦] أي: اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان.

وقيل: المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً: الإعلام بأنه سبحانه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شيء، وأنه ينتقم منهم، فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم، والمعنى: ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم، ولكن يعاملهم معاملة الرقيب لهم، الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير.

---

(١) البحر المحيط: ٥/ ٤٣٤.

(٢) مسائل الرازي: ١٦٥ – ١٦٦، زاد المسير: ٤/ ٣٦٩، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٥٣٠، تفسير الخازن: ٣/ ٨٤، مجمع البيان: ١٣/ ٢٥٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٠٥.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢١٣.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

وإذا كان المخاطب: غير النبي ﷺ فلا إشكال فيه ولا سؤال؛ لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله تعالى. فمن جوز أن يحسبه غافلاً، فلجهله بصفاته. وقوله تعالى بعد: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [(١)] لا يدل قطعاً على أن الخطاب للنبي ﷺ لجواز أن يكون ذلك النهي لغيره، مع أن هذا الأمر له [(٢)].

يقول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [(٣)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾ [(٤)].

في الآية الأولى: دلالة على أن الأرض تبدل وتزال، وفي الثانية: دلالة على أنها تحدث بكل ما عمل عليها. فكيف ذلك؟

والجواب: إن الأرض تبدل: أولاً صفتها مع بقاء ذاتها، فيومئذ تحدث أخبارها، ثم بعد ذلك: تبدل تبديلاً ثانياً وهو: أن تبدل ذاتها بغيرها، ويدل على صحة هذا التأويل: ما روي عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على الصراط**»[(٥)].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

(٢) مسائل الرازي: ١٦٦، تفسير الخازن: ٣/ ٨٤.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

(٥) صحيح الإمام البخاري مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب في البعث والنشور صفة الأرض يوم القيامة.

وروى ثوبان أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: «**هم في ظلمة دون الجسر**» [١]، ففي هذين الحديثين: دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب [٢].

***

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وإن الولد مخلوق من مائهما..

(٢) تفسير الخازن: ٣/ ٨٧.

سورة الحجر

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ (١).

الذكر إنما ينزل على النبي. فكيف يعترفون بنزول الذكر عليه ثم يتهمونه بالجنون؟

والجواب: إنهم ما قالوا ذلك تصديقاً واعترافاً، وإنما قالوه استهزاء وسخرية كما قال فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾(٢). وكما قال قوم شعيب – عليه السلام – : ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ (٣). وكما في تساؤل الكفار بعضهم لبعض: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ (٤).

وقيل: إن في الكلام إضماراً تقديره: يا أيها الذي تدعي أن الذكر قد نزل عليك، أي: أنهم قالوا ذلك على وجه أن تلك صفته عند نفسه؛ لأنه ﷺ كان يدعي ذلك. وهذا كرجل يدعي أنه صانع فينادى بما يدعيه، وإن كان المنادي لا يعترف له به، ويبين ذلك قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ (٥).

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٧.

(٣) سورة هود، الآية: ٨٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ٢٤.

(٥) مسائل الرازي: ١٦٧، وتنزيه القرآن: ٢١٣.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ (٢).

وقال عز من قائل: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (٣).

في الآيتين الأولين دلالة على أن الله عز وجل – قد تعهد بحفظ القرآن وصونه من النسيان والضياع – ولا سيما – في صدر النبي ﷺ وظاهر الآيتين الأخريين، يشعر بجواز نسيان النبي ﷺ لشيء من القرآن إن شاء الله تعالى ذلك، فما سبيل الجمع بينهما؟

والجواب: إن الوعد بحفظ القرآن حقّ ثابت، ووعد لا يتخلف؛ لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد. فالقرآن جملة وتفصيلاً محفوظ من الضياع والتبديل، فإن أنسى الله تعالى نبيه ﷺ شيئاً من القرآن بمقتضى حكمته وعلمه بمصالح عباده كان ذلك في حكم النسخ الذي وعده الله تعالى عباده بأن يأتيهم بمثل المنسوخ أو بخير منه، كما قال: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (٤).

فالنسخ لا يقدح في هذا الوعد، ولا يتبادر منه إلى الخواطر، والأوهام شيءٌ، على أن معنى الآيتين الآخريين: سنعلمك القرآن حتى لا تنساه:

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٢) سورة القيامة، الآيتان: ١٦، ١٧.
(٣) سورة الأعلى، الآيتان: ٦، ٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

ولا يتوهم من مجيء الاستثناء وقوع النسيان، بل أتى الاستثناء للدلالة على أن عدم النسيان من فضل الله وكرمه، وأن الله عز وجل لو شاء أن ينسي رسوله ﷺ شيئاً لفعل، ولكنه لم يشأ ذلك فضلاً منه ومنة [(١)].

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [(٢)].

وقال جل وعلا: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [(٣)].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [(٤)].

الكواكب لا اتصال لها بسماء الدنيا؛ لأنها جارية في أفلاكها، فكيف تكون زينة للسماء الدنيا؟ كما أن جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها، وجعلها رجوماً للشياطين، يقتضي زوالها. فكيف الجمع بينها؟

والجواب عن الأول: إن الكواكب وإن لم تكن متصلة بالسماء الدنيا، لكنها زينة لها بحسب ما يتراءى لنا، كما أن غير السماء الدنيا مزين

---

(١) دفع إيهام الاضطراب، ص٣١٤، بتصرف.

(٢) سورة الحجر، الآيات: ١٦ – ١٨.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ٦–٨.

(٤) سورة الملك، الآية: ٥.

بالكواكب، ولكنه خص السماء الدنيا بالذكر؛ لأننا لا نرى سواها، ومن ثم: صح أن يصفها تعالى بهذا الوصف [١].

والجواب عن الثاني: إنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة ترمي الشياطين بها، وهي الشهب. ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها، أي: أن الذي يرجم به هو: شهب تخلق عند الرجم [٢].

وعلى هذا فالضمير في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا ﴾ راجع إلى المصابيح على حذف مضاف، أي: وجعلنا شهبها، وهي: نارها المقتبسة منها لا هي نفسها، لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [٣].

وقيل: الضمير راجع إلى السماء، والتقدير: وجعلنا شهبها، على حذف المضاف فصار الضمير للمضاف إليه.

وقيل: إن الكواكب زينة قبل أن يرجم بها الشياطين، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء. ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك، فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدى وظلم.

ويرد على هذا القول: أن يأتي وقت وقد خلت السماء من الكواكب لنفادها بتكرار رجم الشياطين بها.

---

(١) تنزيه القرآن: ٣٥٣، ومسائل الرازي: ٢٩٢.

(٢) أي: بالقدرة الإلهية بدون سابق إعداد، لذا يتراءى للناظر أن المرمى به هو: الشهاب نفسه.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠.

وقيل: معنى الآية: وجعلناها ظنوناً لشياطين الإنس والجن - وهم المنجمون [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝ ﴾ [(٢)].

كيف قال في الآية الثانية: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ وقد أخبر في الآية الأولى بأنهم فيها؟

والجواب: إنهم لما ملكوا جنات كثيرة، فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم: ادخلوها بسلام آمنين [(٣)].

ويجوز أن يكون المعنى: إن المتقين في جنات وعيون، وقد قلنا لهم ادخلوها بسلام آمنين.

قال الله عز وجل: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ ﴾ [(٤)].

القضاء والقدر لله تعالى لا لأحد سواه، والنفع والضر منه - وحده - فكيف أسند التقدير والنفع للملائكة؟

---

(١) فوائد في مشكل القرآن: ٢١٧، فتح القدير: ٥/ ٢٦٠، وتفسير الخازن: ٤/ ٢٩٠.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٣) الفتوحات الإلهية: ٢/ ٥٤٧.

(٤) سورة الحجر، الآيات: ٥٧ - ٦٠.

والجواب: إن إسناد التقدير للملائكة مجاز، كما يقول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، ونهينا عن كذا، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك لا هم،وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك، فهكذا الملائكة، لما كانت موكلة من قبل الله عز وجل في تنفيذ أوامره، صح إسناد ذلك إليهم، وإن كان كل شيء بقضاء الله تعالى وقدره.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [١].

أصحاب الحجر هم: قوم صالح. والحجر، اسم واديهم أو مدينتهم، وهم لم يرسل إليهم غير صالح – عليه السلام – فكيف كذبوا المرسلين؟

والجواب: إنه لما كانت الرسل جميعاً متفقين على دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى وأصول الدين، كان من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين.

وقيل: إنهم كذبوا صالحاً – عليه السلام – ومن تقدمه من الأنبياء. ويرد عليه: أن صالحاً ومن تقدمه من المرسلين – عليهم السلام – هم بعض المرسلين لا كلهم.

وقيل: المراد بالمرسلين: صالح ومن معه من المؤمنين، ولكن إطلاق لفظ المرسلين على المؤمنين غير وارد.

وقيل: أراد بالمرسلين: صالحاً وحده، ولكن ذكره بلفظ الجمع للتعظيم.

وقيل: إن الله تعالى بعث إليهم رسلاً منهم صالح – عليه السلام – [٢].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٠.

(٢) مسائل الرازي: ١٦٩، ومجمع البيان: ١٤/ ٤٠، وتفسير البيضاوي: ١/ ٥٤٥، وتفسير الخازن: ٣/ ١٠٠، فتح القدير: ٣/ ١٤٠.

سورة النحل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

أكثر العلماء ينفون أن يكون المعدوم شيئاً. فكيف سماه شيئاً؟ كما أن الإجماع منعقد على عدم مخاطبة المعدوم، فكيف خاطبه؟

والجواب عن الأول: إن تسمية المعدوم شيئاً مجاز باعتبار ما يؤول إليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[٣].

وقيل: إن الشيء وقع على المعلوم عند الله تعالى قبل الخلق؛ لأنه بمنزلة المعاين المشاهد.

والجواب عن الثاني: إن الخطاب خطاب تكوين يظهر به أثر القدرة. فيمتنع أن يكون المخاطب به موجوداً قبل الخطاب؛ لأنه إنما يكون به، فلا يسبقه، بخلاف خطاب الأمر والنهي.

وقيل: إن هذا الكلام من باب التمثيل وبيان الإمكان، على معنى أنه لا يمتنع عليه شيء، وأن وجوده عند إرادته كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع. وليس هناك قول ولا مقول له، ولا أمر ولا

(١) سورة النحل، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

مـأمور حـتى يقـال: إنـه يلزم منه أحد محالين: إما خطاب المعدوم، أو: تحصيل الحاصل [١] .

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [٢] .

كيف عبر بلفظة الناس، وهي اسم جنس يشمل الكل، وقد قسم الناس إلى ثلاثة أقسام في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [٣] . فجعل الظالمين قسماً واحداً من ثلاث، وكيف يعم الهلاك مع أن فيهم من لا ذنب له، وفيهم الحيوانات التي تؤخذ بغير جرم؟

والجواب عن الأول: إن هذه الآية من قبيل العام المخصوص بتلك الآية الأخرى؛ لأن في جنس الناس: الأنبياء والصالحين، ومن لا يطلق عليه اسم الظلم. وكأن المعنى: ولو يؤاخذ الله الناس الظالمين بظلمهم، ويكون المراد بالناس: الكفار فقط. والظلم هنا: الكفر، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [٤] .

---

(١) مسائل الرازي: ١٧٣، زاد المسير: ٤/ ٤٤٧، فتح القدير: ٣/ ١٦٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٣.

والجواب عن الثاني: إن إهلاك الظالم عقوبة له، وانتقاماً منه، وإهلاك غيره: إن كان من أهل التكليف فعبرة ومحنة، وتوفير أجر له، فيكون كالأمراض النازلة بالأولياء الصالحين، فيعوضون عنها في الآخرة ما هو خير وأبقى. وإن كان من غير أهل التكليف فبشؤم ظلم الظالمين، كما أن إهلاكها عقوبة للمكلفين، ولله الحكمة البالغة: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [1] ، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [2] . وفي هذا المعنى وردت أحاديث منها:

ما روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أراد الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم. ثم بعثوا على نياتهم**» [3] . وفي رواية «على أعمالهم».

وما روي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : «كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم أو: من دابة ظالمة».

وما روي أن أبا هريرة - رضي الله عنه - سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه. فقال: بئس ما قلت: إن الحبارى تموت. هذا لا بظلم الناس» [4] . وإهلاك الجميع بشؤم ظلم الظالمين مبالغة في إعدام الظلم، ونفي وجود أثره، حتى لا يوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٣) صحيح الإمام البخاري - كتاب الفتن - باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري: ١٤/١٢٦. والجعل: دويبة من الخنافس الطائرة.

كما وجد من الذين أهلكهم الله بظلمهم، ودليل جواز ذلك ما وجد في زمن نوح – عليه السلام.

وقيل: إن معنى الآية: لو أهلك الأباء بكفرهم لم يكن الأبناء [(١)] .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [(٢)] .

ظاهر الآية يوهم: أن خلق السمع والبصر والفؤاد بعد الإخراج من البطون، وليس كذلك، فقد كان ذلك من جملة الخلق، وهو في بطن أمه. فكيف ذلك؟

والجواب: إنه لما كانت هذه الحواس لا يعتد بها، ولا ينتفع بشيء منها إلا بعد الخروج من البطن، فكأنما خلقت في ذلك الوقت. ومن ثم كان التعبير كما ترى.

وتقديم الإخراج، وتأخير ذكر هذه الحواس: لا يدل على أن خلقها كان بعد الإخراج؛ لأن الواو لا توجب الترتيب؛ ولأن العرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها، فلا ينافي أن هذا الجعل كان قبل الإخراج من البطون [(٣)] .

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٢٠، فتح القدير: ٣/ ١٧، مجمع البيان: ١٤/ ٩١، مسائل الرازي: ١٧٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٣) تفسير الخازن: ٣/ ١٢٨، والفتوحات الإلهية: ٢/ ٥٨٩.

قال الله عز وجل: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

كيف قال: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ مع أنهم كلهم كافرون؟

والجواب: إنه إنما قال: ﴿ أَكْثَرُهُمُ ﴾ ؛ لأن منهم من لم تقم الحجة عليه، إذ لم يبلغ حد التكليف لصغره، أو كان ناقص العقل، أو لم تبلغه الدعوة، فلا يقع عليه اسم الكفر. فأراد بالأكثر: البالغين الأصحاء الذين بلغتهم الدعوة.

وقيل: إنما ذكر الأكثر؛ لأنه علم سبحانه أن فيهم من يؤمن.

وقيل: المراد بالكافر: الجاحد المعاند، فقال: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ﴾ ؛ لأنه كان فيهم من لم يكن معانداً، بل جاهلاً بصدق النبي ﷺ ولم يظهر له كونه نبياً حقاً من عند الله تعالى.

وقيل: إنه ذكر الأكثر، وأراد الجميع؛ لأن أكثر الشيء يقوم مقام الكل، وإنما عدل عن البعض أن يذكره احتقاراً له فهو من الخاص في الصيغة العام في المعنى، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2]. وهذا القول فيه نظر؛ لأن بعض الناس لا يجوز إطلاق اسم البعض على الكل؛ لأنه ليس لازماً بخلاف عكسه[3].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الزمر، الآية ٢٩.

(٣) مجمع البيان: ٤/ ٣٧٨، الفتوحات: ٢/ ٥٩١، مسائل الرازي: ١٧٨.

يقول جل شأنه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾[2].

كيف قال الشركاء للمشركين: ﴿ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ والمشركون صادقون في قولهم هذا؟ وكيف أثبت النطق للشركاء في الآية الأولى، ونفاه عنها في الثانية؟ كما أن من الشركاء: الأصنام، وهي جمادات لا تعقل ولا تنطق. فكيف يصح الكلام منها؟

والجواب عن الأول: إن المعنى: إنكم لكاذبون في أنا أمرناكم بعبادتنا، ولكنكم اخترتم الضلال بسوء اختياركم. لأنفسكم. وليس المراد إنكم لكاذبون في أنكم جعلتم لله شركاء.

وقيل: إن مراد المشركين من قولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ﴾ هؤلاء شركاء الله في المعبودية. فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشركة، أي: إنكم لكاذبون في أنا آلهة.

وقيل: إنما قالت الشركاء للمشركين ذلك لتظهر فضيحتهم. وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف من يعبدها، فلم تعلم أنهم عبدوها في الدنيا.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٦.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٢.

فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢ ﴾ (١).

والجواب عن الثاني: إنه أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين في دعوة عبادتهم. أو أنهم شركاء لله سبحانه. ونفي النطق عنهم عندما ناداهم المشركون للشفاعة لهم. أو لدفع العذاب عنهم، فلم يجيبوهم لذلك فلا تناقض بين المثبت والمنفي (٢).

والجواب عن الثالث: إن الله سبحانه القادر على كل شيء: لما بعثها وأعادها في الآخرة، خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك.

والمقصود من إعادتها وبعثها: أن يراها الكفار وهي في غاية الذلة والحقارة والضعف، وأن يسمعوا منها تكذيبها لهم، فيزدادون غماً وحسرة وندامة (٣).

قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٨١، ٨٢، وانظر: مسائل الرازي: ١٧٨ – ١٧٩، فتح القدير: ٣/ ١٨٧، مجمع البيان: ١٤/ ١١٢.

(٢) مسائل الرازي: ٢٠٤، الفتوحات الإلهية: ٢/ ٥٩٢.

(٣) تفسير الخازن: ٣/ ١٣٠.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

كثير من الأحكام الشرعية لم يتعرض القرآن الكريم لها، كعدد ركعات كل صلاة، ومدة السفر التي تبيح الفطر في رمضان، أو: قصر الصلاة، ومقدار حد الشرب، وما أشبه ذلك، فكيف يكون القرآن تبياناً لكل شيء؟ وإذا كان القرآن تبياناً لكل شيء فكيف وقع الخلاف بين الأئمة؟

والجواب عن الأول: إن القرآن تبيان لكل شيء من أمور الدين؛ لأنه نص على بعضها، وأحال على السنة النبوية في بعضها الآخر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [(١)] . وقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [(٢)] . وأحال على الإجماع أيضاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [(٣)] ، وأحال على القياس – أيضاً – بقوله: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [(٤)] والاعتبار النظر والاستدلال.

فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلها مذكورة في القرآن الكريم، فصح كونه تبياناً لكل شيء.

والجواب عن الثاني: إنه إنما وقع الخلاف بين الأئمة؛ لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين مبين في القرآن نصاً. بل بعضه مبين، وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال، وطرق النظر والاستدلال مختلفة؛ فلذلك وقع الخلاف [(٥)] .

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٥) مسائل الرازي: ١٧٩-١٨٠.

قال الله عز وجل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

كيف وعد الصالحين والأتقياء بالحياة الطيبة، ونحن نرى أكثرهم في المصائب والمحن وأنواع البلايا؟

والجواب: إن المراد بالحياة الطيبة: الحياة في القناعة وقيل: في الرزق الحلال. وقيل: في رزق يوم بيوم. وقيل: في التوفيق للطاعات وقيل: في حلاوة الطاعات وقيل: في الرضا بالقضاء.

وقيل المراد بها: الحياة في القبر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (٢).

وقيل: المراد بها الحياة في الدار الآخرة، وهي الحياة الحقيقية، لأنها حياة لا موت بعدها، دائمة في النعيم المقيم. وإلى ذلك يشير التنزيل الكريم: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) . أي: الحياة الحقيقية.

والظاهر: أن المراد بها: الحياة في الدنيا. لقوله تعالى: (**ولنجزينهم أجرهم**) والعطف يقتضي المغايرة. وقوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (٤).

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

والصحيح: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث: عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما أتاه**» [(١)].

فعيش المؤمن في الدنيا وإن كان فقيراً، أطيب من عيش الكافر وإن كان غنياً؛ لأن المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله، وأنه بتقديره وتدبيره، وعرف أن الله محسن كريم، متفضل لا يفعل إلا الصواب، فكان المؤمن راضياً عن الله، قنوعاً بما قدر الله له ورزقه إياه، معتقداً بأن الخير والمصلحة فيما قدره الله له. فاستراحت نفسه من الكد والحرص وطاب عيشه بذلك. وأما الكافر أو الجاهل بهذه الأصول الحريص على طلب الرزق. فيكون أبداً في حزن وتعب، ولا ينال من الدنيا إلا ما قدر له، فظهر بهذا أن عيش المؤمن أطيب من عيش غيره [(٢)].

يقول عز وجل: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [(٣)].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [(٤)].

في الآية الأولى: إثبات للتبديل، ويلزم من تبديل الآية بالآية: تبديل الكلمات. وفي الآية الثانية، نفي لتبديل كلمات الله. فكيف الجمع؟

---

(١) صحيح الإمام مسلم كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر والقناعة.

(٢) مسائل الرازي: ١٨٠ - ١٨١، تفسير الخازن: ٣/ ١٣٣، تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٤٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

والجواب: إن المراد من التبديل المثبت بالآية الأولى النسخ والتبديل من الله العليم الحكيم. من مقتضى الملك العام والحكمة والمصلحة. قال تعالى: ﴿ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١)، والمراد من التبديل المنفي بالآية الثانية التبديل والتغيير من البشر، ويدل عليه أن هذه الآية جواب لقولهم: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ ﴾ (٢) فقال الله له: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ ﴾ فلا تنافٍ بين الآيتين.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ لا خلف لمواعيده، ولا مغير لحكمه (٣).

وقيل: إن النسخ في الحقيقة ليس بتبديل؛ لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طرو الناسخ، فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلاً؟ وهذا القول مخالف لظاهر الآية الأولى (٤).

يقول جل وعلا: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٥).

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٥.

(٣) مسائل الرازي: ١٩٩، بتصرف.

(٤) تفسير الخازن: ٣/ ١٩٣، بتصرف.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

في الآية الأولى: دلالة على أن المكره على الكفر معذور، إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان. وفي الثانية: دلالة على أن المكره على الكفر: لا يفلح أبداً، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن رفع المؤاخذة مع الإكراه، من خصائص هذه الأمة ويدل على هذا قوله ﷺ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**» (١).

والمؤاخذة بالنسيان: كانت من الإصر على من قبلنا، وكان عقابها يعجل لهم في الدنيا، فيحرم عليهم بعض الطيبات.

وقيل: إن الإكراه كان عذراً لمن قبلنا، والإكراه قد يكون سبباً لاستدراج الشيطان إلى استحسانه والاستمرار عليه، كما يفهم من قوله: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

والحاصل أن الإكراه على الكفر ظاهراً غير مؤاخذ به في جميع الأمم. أما من شرح صدره للكفر، واستحسنه، واستمر عليه، فهو مؤاخذ به كما يدل على ذلك بقية الآية الأولى، وهو المراد بالآية الثانية (٢).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (٣).

وقال عز وجل: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ (٤).

---

(١) سبق تخريج الحديث في آخر سورة البقرة.

(٢) دفع إيهام الاضطراب: ١٨٩، بتصرف.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٧.

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[(١)] .

في الآية الأولى: دلالة على أن معية الله سبحانه خاصة بالمتقين المحسنين، وفي الآيات الأخر: دلالة على أنها عامة، فكيف ذلك؟

والجواب: إن لله عز وجل معية خاصة، ومعية عامة، فالمعية الخاصة بالهداية والتوفيق والنصر والإعانة، وهذه لخصوص المتقين المحسنين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾[(٢)] ، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[(٣)]. وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[(٤)] . والمعية العامة بالإحاطة والعلم؛ لأنه تعالى أعظم وأكبر من كل شيء، وأحاط بكل شيء علماً فجميع الخلائق في يده أصغر من حبة خردل في يد أحدنا – ولله المثل الأعلى – وهذه المعية عامة لكل الخلائق كما دلت على ذلك الآيات المتقدمة.

***

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٤) سورة طه، الآية: ٤٦.

سورة الإسراء

قال الله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[2].

ظاهر الآية الأولى: يوهم تفويض حساب العبد إلى نفسه. والآية الثانية تدل على أن الله عز وجل هو الذي يحاسب العباد دون غيره، فكيف ذلك؟

والجواب أن الله تعالى هو الذي يحاسب عباده، وكفى به محاسباً. وقوله تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ معناه: يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها عالم بذلك، وهذا توبيخ وتقريع، لا لأنه تفويض لحساب العبد إلى نفسه.

وقيل: إن يوم القيامة مواقف مختلفة، ففي موقف: يكل الله حسابهم إلى أنفسهم – وعلمه محيط بهم – وفي موقف يحاسبهم هو – عز شأنه.

وقيل: إن الكافر يقول: يا رب، إنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي، فيقول له: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٣) الدر المنثور: ٤/ ١٦٧، وعزاه إلى ابن أبي حاتم عن السدى.

وقيل: من يريد مناقشته في الحساب، يحاسبه بنفسه، ومن يريد مسامحته فيه، يكل حسابه إليه [١].

يقول الله عز وجل: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [٢].

ظاهر الآية يوهم أن من رغب في الدنيا، وأرادها كان من أهل النار، فكيف ذلك؟

والجواب: إن المراد من كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لا غير، فهذا جزاؤه. إذ مثل هذا لا يكون إلا كافراً، أو منافقاً. فالمنافقون كانوا يراؤون المسلمين ويغزون معهم، ولم يكن غرضهم إلا اقتناص الغنائم ونحوها.

وأما من كان يريد من الدنيا حاجته فيها، وقدر ما يتزود به إلى الآخرة فلا يكون مذموماً، بل هو مندوب إليه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [٣]. وكما قال عز وجل: ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [٤].

والإعراض عن الدنيا بالكلية، والاستغناء عن جميع ما فيها، لا يتصور في حق البشر ولو كانوا أنبياء، ويدل على ذلك قوله تعالى بعد: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [٥].

---

(١) مسائل الرازي: ١٨٥، وتفسير الخازن: ٣/ ١٥٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٤) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٩.

وقد شرع الجهاد لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه. ولا مانع أن يتبع ذلك طلب الغنيمة. وفرض الحج تلبية للنداء، وجاز أن يشهد الناس منافع لهم كالتجارة ونحوها [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [(٢)].

ظاهر هذه الآية: يوهم أنه لا حظر على عطاء الله. وهذا يخالف الواقع المشاهد من أنه تعالى أعطى البعض النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ومتعهم بشتى متع الحياة، ومنع آخرين إلا من القوت الضروري، أو: ما هو سبب في بقاء حياتهم، فكيف التوفيق؟

والجواب: إن المراد بالعطاء هنا: الرزق. ولا حظر على وصول رزق الإنسان إليه، فلو فر أحدنا من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت. فالله سوى في ضمان الرزق وإيصاله بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمطيع والعاصي. ولم يمنع الرزق عن العاصي بسبب عصيانه. فلا تفاوت بين العباد في أصل الرزق. وإنما التفاوت بينهم في مقادير الإملاك [(٣)].

قال الله عز وجل: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [(٤)].

---

(١) مسائل الرازي: ١٨٨، بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

(٣) مسائل الرازي: ١٨٨ بتصرف.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

أشار إلى مجموعة من الكبائر كالقتل والزنا، ثم أخبر عنها بالكراهة فكيف ذلك؟

والجواب: إن المراد بالمكروه: المبغوض المقابل للمرضى، لا ما يقابل المراد، لقيام الأدلة على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى.

وقيل: إنه ذكر مطلق الكراهة، وإن كان في الأشياء المتقدمة ما هو من الكبائر، إشعاراً بأن مجرد الكراهة عنده تعالى يوجب انزجار السامع، واجتنابه لذلك [1].

قال الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [2].

التسبيح هو: التنزيه عن كل ما لا يليق بالله تعالى وكمال جلاله، والكفار يصفونه بالفقر، ويضيفون إليه الشريك، فكيف التوفيق بين معتقدهم هذا، وبين دخولهم في التسبيح؟

والجواب: إن المراد بالتسبيح هنا: التسبيح بلسان الحال، حيث يدل كل شيء على وجود الصانع، وعظيم قدرته وبالغ حكمته، فكأن كل شيء ينطق بذلك، وينزهه عما لا يجوز عليه وما لا يليق به.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٦٤، فتح القدير: ٣/ ٢٢٨، مجمع البيان: ١٥/ ٤٧، تفسير البيضاوي: ١/ ٥٨٥، الفتوحات الإلهية: ٢/ ٦٢٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

ولا يقال: لو كان المراد التسبيح بلسان الحال، لما قال: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لأن التسبيح بلسان الحال مفهوم لنا ومعلوم؛ ولأن الخطاب بقوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ للكفار، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال، لا يفقهون تسبيح الموجودات؛ لأنهم لما جعلوا لله شركاء، دل ذلك على عدم فهمهم التسبيح الصادر من الموجودات.

ولا يقال: التسبيح من العقلاء حقيقة، ومن الموجودات مجازاً، فكيف جمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد وهو قوله: (تسبح)؟ لأن التسبيح المجازي بلسان الحال حاصل من الجميع.

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ راجع إلى السموات فقط، ويرده قوله بعد: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ويرده أيضاً عطف (الأرض) على (السموات).

وقيل: إن الضمير راجع إلى السموات والأرض، والمراد بقوله: ﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾: المؤمنون، فيكون عاماً أريد به خاص، وعلى هذا يكون المراد بالتسبيح: التسبيح بلسان المقال [1].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [2].

---

(١) مسائل الرازي: ١٨٩ – ١٩٠، بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

من المعلوم أن الله تعالى لا يمنعه عما يريده مانع، فإن أراد إرسال الآيات، فكيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية؟ وإن لم يرد إرسالها كان وجود تكذيبهم وعدمه سواء، وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة.

والمراد بالآيات هنا: ما اقترحه أهل مكة على رسول الله ﷺ، من جعل الصفا ذهباً، وإنزال مكتوب من السماء، ونحو ذلك، وهذه الآيات ما أرسلت إلى الأولين ولا شاهدوها. فكيف كذبوا بها؟ كما أن تكذيب الأولين لا يمنع إرسالها إلى الآخرين، لجواز أن لا يكذب الآخرون، وكيف التوفيق بين صدر الآية: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ الذي يدل على عدم الإرسال بها، وبين عجزها: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾ الذي يدل على الإرسال بها؟

والجواب عن الأول: إن لفظه المنع مجاز عبر به عن ترك الإرسال بالآيات، كأنه تعالى قال: وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون.

والجواب عن الثاني: إن الضمير في قوله تعالى: **(بها)** عائد على جنس الآيات المقترحة، لا إلى هذه الآيات المقترحة، كأنه تعالى قال: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة يريد: المائدة، والناقة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم [1].

والجواب عن الثالث: إنه قد جرت سنة الله تعالى في عباده: أن من

(١) مسائل الرازي: ١٩٣، بتصرف.

اقترح على الأنبياء آية فأتوه بها فلم يؤمن، عجل الله هلاكه، والله تعالى لم يرد هلاك مشركي مكة؛ لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو: لأنه قضى وقدر في سابق علمه بقاء شريعته، ومن بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة. فلو أرسل بالآيات التي اقترحوها فلم يؤمنوا لهلكوا، وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم، فلذلك لم يرسلها، فيصير معنى الآية: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك، إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون فأهلكوا، فربما كذب بها قومك فأهلكوا.

وقيل معنى الآية: إن هؤلاء الكفار من قريش ونحوهم مقلدون لآبائهم، فلا يؤمنون ألبتة، كما لم يؤمن أولئك، فيكون إرسال الآيات ضائعاً.

ويرد على هذا المعنى: أن الله – عز وجل – كرر إنزال الآيات للأمم السابقة مع علمه أنهم لا يؤمنون [١].

والجواب عن الرابع: إن المراد بالآيات ثانياً، العبر والدلالات، لا الآيات التي اقترحها أهل مكة. وهذا لا يناسب المقام، إلا إن أريد بالعبر والدلالات: المعجزات وآيات القرآن التي تخوف من عذاب الآخرة.

وهذا بعيد، والأولى والأنسب أن تفسر الآيات بالآيات المقترحة، أي: لا نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب، فإن لم يخافوا وقع عليهم، ومن ثم: لم يرسل المولى عز وجل الآيات التي اقترحها أهل مكة حتى لا يهلكوا، وقد اقتضت حكمته عدم إهلاكهم [٢].

---

(١) مسائل الرازي: ١٩٣، فتح القدير: ٣/ ٢٣٨.

(٢) مسائل الرازي: ١٩٤، فتح القدير: ٣/ ٢٣.

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ [(١)].

ليس في القرآن لعن شجرة ما، فكيف قال: ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ ؟

والجواب: إن الملعونة بمعنى: المذمومة، وشجرة الزقوم مذمومة في القرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [(٢)]. وبقوله سبحانه: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [(٣)].

وقيل: إن العرب تقول لكل طعام مكروه، أو ضار: ملعون: وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهيتها.

وقيل: اللعن في اللغة الطرد والإبعاد، والملعون هو: المطروح المبعد عن رحمة الله تعالى. وهذه الشجرة مطروحة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة؛ لأنها في قعر جهنم. وهذا الإبعاد والطرد مذكور في القرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [(٤)].

وقيل: إن في الكلام إضماراً تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن، وهذا القول ليس ظاهراً.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الدخان، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٦٤.

وقيل: إن المعنى: الملعون آكلوها، وهم: الكفرة وهذا شبيه بما قبله [(١)].

قال جل شأنه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [(٢)].

كيف خص أصحاب اليمين بقراءة كتبهم ونفي الظلم عنهم، مع أن أصحاب الشمال كذلك؟

والجواب: إنه إنما خص أصحاب اليمين بذكر القراءة؛ لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما في كتبهم من الفضائح والقبائح، أخذهم من الحياء، والخجل والخوف ما يوجب حبسة اللسان وتتعتع الكلام، والعجز عن إقامة الحروف، فتكون قراءتهم كلا قراءة. فأما أصحاب اليمين: فأمرهم على عكس ذلك. لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يكتفون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [(٣)] وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾. فهو عائد إلى كل الناس، لا إلى أصحاب اليمين.

وقيل: إن الضمير عائد إلى أصحاب اليمين خاصة، وإنما خصهم بذلك؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يظلمون، ويعتقدون ذلك، بخلاف أصحاب الشمال، فإنهم يعتقدون أنهم يظلمون أو يظنون!!

---

(١) مسائل الرازي: ١٩٤، بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٧١، ٧٢.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٩.

ويعضد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾[(١)].

وقيل: إنه سبحانه لم يصرح بذكر أصحاب الشمال، ولكنه ذكر ما يدل على حالهم القبيح في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾[(٣)].

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[(٤)].

في الآية الأولى: حصر المانع من الإيمان في إنكارهم أن يكون الرسول بشراً. وفي الآية الثانية: حصر المانع في عدم إصابتهم بما أصاب به الأولين، أو حلول العذاب بهم. فكيف الجمع بينهما؟

والجواب: إن الحصر في الآية الأولى: حصر في المانع العادي، والحصر في الآية الثانية: حصر في المانع الحقيقي. وبيان ذلك أن معنى الآية الأولى: وما منع الناس أن يؤمنوا إلا استغراب بعث بشر رسولاً؛ لأن قولهم ليس مانعاً من الإيمان؛ لأنه لا يصلح لذلك، وهو يدل على استغراب بالالتزام، وهو

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٢، انظر مسائل الرازي: ١٩٥، وفتح القدير: ٣/ ٢٤٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٥.

الذي يناسب المانعية. واستغرابهم لذلك ليس مانعاً حقيقياً من الإيمان، بل عادياً يجوز تخلفه فيوجد الإيمان معه.

ومعنى الآية الثانية: وما منع الناس أن يؤمنوا إلا إرادة أن تأتيهم سنة الأولين من الخسف، وغيره من أنواع الهلاك في الدنيا، أو يأتيهم العذاب قبلاً في الآخرة. والدليل على الإضمار: أن المانع لا بد أن يكون موجوداً حالة منعه، وسنة الأولين معدومة، وكذلك عذاب الآخرة، فلا بد من تقدير أمر موجود يمنع.

فأخبر الله عز وجل أنه إرادة أن يصيبهم أحد الأمرين - ولا شك أن إرادة الله عز وجل، مانعة من وقوع ما ينافي مراده تعالى. فهذا حصر في السبب الحقيقي الذي لا يمكن تخلفه، ولا وجود للإيمان معه؛ لأن الله سبحانه هو المانع في الحقيقة.

فهذا حصر في المانع الحقيقي، وذاك حصر في المانع العادي، ولا تنافٍ بين قولنا: ما منعهم حقيقة إلا كذا، وما منعهم عادة إلا كذا، فزالت المنافاة[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾[3].

---

(١) فوائد في مشكل القرآن: ١٧٤، ودفع إيهام الاضطراب: ١٨٦، والاتقان: ٣/ ٨٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٣.

وقال عز من قائل: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ (٢).

وقال جلت حكمته: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٣).

كيف التوفيق بين وصف الكفار يوم القيامة بالعمى والبكم والصمم، وإثبات الرؤية والكلام والسمع لهم؟

وما سبيل الجمع بين ما تدل عليه الآية الأولى من خمود النار ونقص لهيبها بما يشعر بتخفيف العذاب عنهم في تلك الفترة، وبين ما تدل عليه الآية الأخيرة من عدم تفتير العذاب عنهم دوماً؟

والجواب عن الأول: إن وصفهم بالعمى والبكم والصمم ليس معناه. سلب حاسة الرؤية والكلام والسمع. وإنما المراد: أنهم عمي لا يستبصرون بالآيات والعبر والدلائل الحقة في الدنيا أو: عمي عن النظر إلى ما جعل لأولياء الله من عظيم الثواب، ورفيع الدرجات، أو عمي عما يسرهم وتقر به عيونهم. وأنهم بكم لا ينطقون بما يقبل منهم، أو: لا ينطقون بكلمة التوحيد والإخلاص، وأبوا أن ينطقوا بالصدق في الدنيا، أو: لا ينطقون بحجة عند مخاطبة الله عز وجل. وأنهم صم، أو تصاموا عن استماع الحق، وأصغوا إلى

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٣.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٥.

الباطل في الدنيا، أو: صم لا يسمعون ما يلذ مسامعهم: أو صم: عما مدح به أولياءه تعالى.

وقيل: إنهم يحشرون كذلك كما وصفهم الله تعالى ثم تعاد إليهم حواسهم.

وقيل إن الناس إذا أحيوا وبعثوا من قبورهم، فليست حالتهم حالة واحدة، ولا موقفهم ولا مقامهم واحداً، ولكن لهم مواقف وأحوال، واختلفت الأخبار عنهم لاختلاف مواقفهم وأحوالهم. وجملة ذلك أنهم على خمسة أحوال:

حال البعث من القبور، وحال السوق إلى موضع الحساب، وحال المحاسبة، وحال السوق إلى دار الجزاء، وحال مقامهم في الدار التي يستقرون فيها.

وهم في الحالات الأربع الأولى: يكونون كاملي الحواس والجوارح، وأما الحالة الخامسة وهي حال الإقامة في النار فتنقسم إلى بدو ومآل، فبدوها: أنهم يقطعون المسافة بين موقف الحساب وشفير جهنم عمياً وبكماً وصماً، إذلالاً لهم، وتمييزاً عن غيرهم. ثم ترد الحواس إليهم ليشاهدوا النار وما أعد لهم فيها من العذاب، ويعاينوا ملائكة العذاب، وكل ما كانوا به مكذبين، فيستقرون في النار: ناطقين سامعين مبصرين.

وقيل: إن ذلك يكون حين يقال لهم: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [1].

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

فيصيرون بأجمعهم عمياً وبكماً وصماً من شدة الكرب واليأس من الفرج. قال تعالى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [(١)].

وعلى هذا القول: تكون الأحوال الثلاثة مقدرة.

والجواب عن الثاني: إنه لا يلزم من نقصان لهيب النار، أن يفتر العذاب عن الكفار؛ لأن عذاب جهنم أنواع – سلمنا الله تعالى – منه بمنه وكرمه: زمهرير، مهل، نار، وغير ذلك.

فيحمل نقص لهيب النار، على حالة كونهم في الزمهرير، فلا يجدون راحة بذلك النقص؛ لأنهم في تلك الحالة، ليسوا في النار، بل في الزمهرير أو غيره [(٢)].

يقول المولى جل شأنه: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾ [(٣)].

كيف وصف الإنسان بالبخل، وفي بعض جنس الإنسان من هو جواد كريم؟

والجواب: إن الأصل في الإنسان البخل؛ لأنه خلق محتاج، والمحتاج لا بد وأن يحب ما يدفع به عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه. إلا أنه قد يجود لأسباب خارجة مثل: حب المدحة، أو رجاء الثواب.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٥.

(٢) تفسير الخازن: ٣/ ١٨١، مجمع البيان: ١٥/ ١٠٣، تفسير البيضاوي: ١/ ٥٩٨، التذكرة: ١/ ٢٣٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

فثبت بهذا أن الأصل في الإنسان البخل، وأن الأغلب عليه: من ليس بجواد، فجاز الإطلاق تغليباً للأكثر (١) .

وقيل: إن ما يعطيه الإنسان – وإن عد جوداً – فهو بخل في جنب ما يعطيه الله سبحانه؛ لأن الإنسان إنما يعطى ما يفضل عن حاجته، ويمسك ما يحتاج إليه والله سبحانه لا تجوز عليه الحاجة. فيفيض من النعم على المطيع والعاصي إفاضة من لا يخاف الحاجة.

وصدر الآية يشير إلى هذا القول (٢) .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٣) .

فرعون كان قد طبع على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، حتى اتهم موسى – عليه السلام – بالسحر، بعد تسع آيات بينات. فكيف يقول موسى – عليه السلام – لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . ولو علم لآمن بالله عز وجل، وما اتهم موسى – عليه السلام – بالسحر؟ وكيف قال موسى – عليه السلام – : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ وهو عالم بذلك؟

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٨٢، بتصرف.

(٢) مجمع البيان: ١٥/ ٣٤، بتصرف.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠١، ١٠٢.

والجواب عن الأول: إن فرعون كان عالماً بأنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. ولكنه العناد والجحود بعد استيقان النفس – ظلماً وعلواً – قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [(١)] . وكان يعلم أن موسى – عليه السلام – نبي الله حقاً بعد أن أبان له جملة من المعجزات، وأراه تسع آيات بينات. ولكنها المكابرة، وخشية ضياع الملك، وانفضاض الملأ من حوله. والمعنى: لقد علمت – لو نظرت نظراً صحيحاً إلى الحجة والبرهان، فأظهرت ما تكنه في قلبك، وما تخفيه في ضميرك. ويدل على هذا أنه آمن في وقت لا ينفع فيه الإيمان، واعترف حيث لا يجدي الاعتراف، فقد قال عندما حضره الموت وأدركه الغرق: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [(٢)] . فرد الله عليه بقوله: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [(٣)] ، كما يدل على هذا المعنى أيضاً أن فرعون ما قابل الحجة بالحجة، ولا البرهان بالبرهان. وإنما كان رده مرة بالمجادلة الممقوتة، وأخرى بالتملص المذموم، وثالثة بالتوعد والتهديد[(٤)] . وهذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان. وذلك على قراءة الجمهور: (علمت) [(٥)] ، بالفتح على الخطاب لفرعون – وهي الأصح للمعنى؛ لأن موسى – عليه السلام – لا يقول: (**علمت**) أنا وهو الداعي. وقد قرأ علي – كرم الله وجهه – (**علمت**) بضم التاء وقال. والله ما علم

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٠.

(٣) السورة السابقة، الآية: ٩١.

(٤) وهذا ظاهر في محاورة موسى – عليه السلام – لفرعون في سورة الشعراء من (١٦ – ٥١).

(٥) تفسير النيسابوري: ١٥/ ٨٤.

عدو الله، ولكن موسى – عليه السلام – هو الذي علم. واختار هذه القراءة الكسائي وثعلب، ونصراها بأنه لما نسب فرعون موسى – عليه السلام – إلى أنه مسحور، أعلمه بصحة عقله بقوله: (**لقد علمت**) [١] .

والجواب عن الثاني: إن الظن في كلام موسى – عليه السلام – بمعنى: العلم كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [٢] .

وإنما عبر عنه بالظن مشاكلة لظن فرعون، وشتان ما بين الظنين، فإن ظن فرعون كذب بحت، وباطل محض. وظن موسى – عليه السلام – يحوم حول اليقين من تظاهر أماراته، وما يلوح من علاماته.

وقيل المراد به: الظن على الظاهر؛ لأن الهلاك إنما يكون بشرط الإصرار حتى حضور الموت، وملاقاة الله عز وجل. ولا يعلم حقيقة ذلك وما يكون عليه الحال سوى الله تعالى [٣] .

***

---

(١) مسائل الرازي: ١٩٥، ١٩٦، فتح القدير: ٣/ ٢٦٣، زاد المسير: ٥/ ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٦.

(٣) مسائل الرازي: ١٩٦، الفتوحات الإلهية: ٣/ ٦٥٢، تفسير البيضاوي: ١/ ٥٩٩، مجمع البيان: ١٥/ ١٠٧.

سورة الكهف

قال الله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾(٢).

وقال تقدست أسماؤه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾(٣).

وقال جلت حكمته: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾(٤).

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝ ﴾(٥).

إنما يستقيم أن يقال: فلان ماله علم بكذا، إذا كان ذلك الشيء مما يعلمه غيره، أو: مما يصح أن يعلم، كما تقول: فلان ماله علم بالعربية، أو: بالحساب: أو بالشعر، ونحو ذلك، واتخاذ الله سبحانه ولداً محال، فكيف قال: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ ؟ وما سبيل الجمع بين هذه الآيات التي يدل البعض

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة يس، الآية: ١١.

(٥) سورة النازعات: ٤٥.

منها، إلى أن الإنذار خاص بالعصاة والمذنبين، والبعض الآخر، يدل على أنه عام للناس أجمعين، والبعض الثالث يجعله خاصاً بالمنتفعين به؟

والجواب عن الأول: إن انتفاء العلم بالشيء: تارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، وتارة يكون لاستحالة العلم به؛ لأنه نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. وما نحن فيه: من هذا القبيل ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [١] .

ويكون المعنى: ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم؛ لاستحالته. وهذا على أن الضمير راجع إلى الولد. وقيل: إنه راجع إلى «اتخاذ» الذي في ضمن الفعل. وقيل: إنه راجع إلى القول المفهوم من (قالوا)، أي: ليس قولهم هذا ناشئاً عن علم وتفكر. وقيل: إنه راجع لله، إذ لو علموه حق العلم لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه. والمعنى: ليس لهم بالله من علم ولا لآبائهم [٢] .

والجواب عن الثاني: إن الإنذار - في الحقيقة - عام لجميع المكلفين. والناس من ناحية الإنذار على فرق ثلاث: فرقة يجدي فيها الإنذار وتنتفع به، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [٣] . فخصها به، وكأن الإنذار لها دون ما سواها.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٧.

(٢) مسائل الرازي: ١٩٧، ١٩٨، مجمع البيان: ١٥/ ١١٨، والفتوحات الإلهية: ٣/ ٣.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

وفرقة: يستوي عندها الإنذار وعدمه، كما قال جل وعلا: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [١].

وفرقة: تزداد بالإنذار عتواً وضلالاً، كما قال عز وجل: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [٢].

وهؤلاء خصوا بالإنذار لزيادة الحجة عليهم، ومضاعفة العذاب لهم [٣].

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ ﴾ [٤].

نحن نرى بعض ما على الأرض سمجاً، وليس بزينة، فكيف عمم بأن ما على الأرض زينة لها؟

والجواب: إنا إن قلنا: إن المراد بما على الأرض شيء مخصوص، فالمعنى: إنا جعلنا بعض ما على الأرض زينة لها، فخرج التعبير مخرج العموم، والمراد منه: الخصوص. وإن قلنا: إن هذا الشيء المخصوص هو الرجال أو العلماء، فهم زينة لعبادتهم أو لدلالتهم على خالقهم. وإن قلنا: إنه النبات والشجر فهو زينة لها حيث يجري مجرى الكسوة والحلية وإن قلنا: إن المراد بما على الأرض: كل ما عليها، فهو زينة من جهة كونه دالاً على خالقه، فكأنه زينة الأرض من هذه الجهة [٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٢.

(٣) بتصرف من دفع إيهام الاضطراب: ٢٤٩.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٧.

(٥) زاد المسير: ٥/ ١٠٦، بتصرف.

قال الله سبحانه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ۝ ﴾[١].

الله عز وجل عالم بما كان وما يكون، فكيف قال: (لنعلم)؟

والجواب: إن المعنى: لنعلم ذلك علم مشاهدة كما علمناه علم غيب.

وقيل المعنى: ليظهر ويشاهد معلومنا على ما علمناه، ليحصل لهم ما تعلق علمنا به من ضبطهم مدة لبثهم بعد تيقظهم[٢].

قال الله عز وجل: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[٣].

في صدر هذه الآية إباحة للإيمان والكفر، وذلك مخالف للأمر بالإيمان والنهي عن الكفر، فكيف ذلك؟

والجواب: إن هذا من باب التهديد والوعيد كقوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ والمعنى المراد: إنكم لا تنفعون الله بإيمانكم، ولا تضرونه بكفركم. ويدل على هذا المراد: عجز الآية، فالكلام. من باب إظهار أن الله غني عن العالمين، وليس من باب إطلاق الكفر للكافرين.

وقيل: إن المشيئة هنا: لله عز وجل لا للعبد. فلا إيمان ولا كفر إلا بمشيئة الله تعالى والمعنى. فمن شاء ربكم له الإيمان فليؤمن، ومن شاء ربكم له الكفر فليكفر[٤].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٢.

(٢) مسائل الرازي: ١٩٨، مجمع البيان: ١٥/ ١٢٤، والفتوحات الإلهية: ٣/ ٧.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٤) مسائل الرازي: ١٩٩ – ٢٠٠ بتصرف.

قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ (١).
وقال سبحانه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ (٢).
وقال جل جلاله: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ (٣).

كيف الجمع بين التحلي بالفضة والذهب واللؤلؤ في الآيات؟

والجواب: إن كل مؤمن سيحلى بثلاثة أساور: سوار من فضة، وآخر من ذهب، وثالث من لؤلؤ. وعبر في كل موضع بنوع من هذه الأنواع، وذلك ليجمع لعباده المؤمنين في محاسن الجنة جميع أنواع زينة الحياة الدنيا.

وقيل: إن الاختلاف بحسب الدرجات، فجنة أوانيها وجميع ما فيها من فضة، وأخرى أوانيها وجميع ما فيها من ذهب.

ويرد عليه: التحلي باللؤلؤ في أي جنة يكون؟

وقيل: حلي الرجال: الفضة، وحلي النساء الذهب.

وهذا تخصيص بدون مخصص.

وقيل: تارة يلبسون الذهب، وأخرى يلبسون الفضة بحسب الأوقات.

وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب، وسواران من فضة، وسواران من لؤلؤ، ولا حرج على فضل الله تعالى.

وقيل: أسورة الفضة إنما تكون للولدان، وأسورة الذهب للنساء وقيل: الحلي للنساء والصبيان.

وقيل: يعطى كل واحد ما يرغب فيه، وتميل نفسه إليه. والموافق لظاهر

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢١.

الآيات الجمع لكل منهم من هذه الأنواع [١].

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝ ﴾ [٢].

كيف الجمع بين إنكار البعث في صدر الآية. وإثباته في عجزها؟

والجواب: إن الكافر منكر للبعث، وأما قوله: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ فقد قاله بحسب معتقد صاحبه من أن الساعة آتية لا ريب فيها. وكأنه يقول له: وعلى فرض أن الساعة آتية – كما تزعم – فسوف يعطني الله هناك خيراً مما أعطاني في الدنيا؛ لأنه لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة ما هو أفضل منها. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [٣].

يقول الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝ ﴾ [٤].

الولاية لله في الدنيا والآخرة، فكيف خصها بيوم القيامة؟ وإذا كان غير الله تعالى لا يملك الثواب، فكيف يكون ثواب الله خيراً من ثواب غيره؟

والجواب عن الأول: إنه لما كانت الدعاوى المجازية في الدنيا موجودة ولا وجود لها في الآخرة – حيث تنقطع فيها العلائق، وتصير الولاية خالصة لله سبحانه صح تخصيصها بيوم القيامة، حيث إن الناس – يومئذ – يتولون الله – عز وجل – ويؤمنون به ويتبرؤون مما كانوا يعبدون [٥].

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٩٧، الفتوحات الإلهية ٤/ ٤٦١، دفع إيهام الاضطراب: ٣٠٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٠، تفسير الخازن: ٣/ ١٩٧، بتصرف.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٤.

(٥) مسائل الرازي: ٢٠١، مجمع البيان: ١٥/ ١٦٤.

والجواب عن الثاني: إنه على سبيل الفرض والتقدير، والمعنى: لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل، ولكانت طاعته أحمد عاقبة، وخيراً من طاعة غيره، فكيف وغيره لا يملك ثواباً لنفسه فضلاً عن غيره [١].

قال الله عز وجل: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [٢].

الإرادة من صفات من يعقل، فكيف نسبت إلى مالا يعقل؟

والجواب: إن هذا مجاز بطريق المشاهدة؛ لأن الجدار بعد مشارفته وتدانيه للانقضاض والسقوط، شابه من يعقل ويريد في تهيئة للسقوط. فظهرت منه هيئة السقوط كما تظهر ممن يعقل ويريد، فنسبت إليه الإرادة مجازاً بطريق المشابهة في الصورة. وقد أضافت العرب أفعال العقلاء إلى مالا يعقل تجوزاً، ومن أمثالهم: تمرد مارد، وعز الأبلق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [٣] وقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [٤]. وقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [٥] ونظائره كثيرة [٦].

قال الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾ [٨].

الآية الأولى تدل على أن المسكين قد يملك شيئاً كالسفينة ونحوها، والآية

---

(١) مسائل الرازي: ٢٠١، بتصرف.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢١.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٦) مسائل الرازي: ٢٠٦ – ٢٠٧، زاد المسير: ٥/ ١٧٦.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

(٨) سورة البلد، الآية: ١٦.

الثانية توحي أن المسكين لاصق بالتراب لا يملك شيئاً. فما سبيل الجمع بينها؟

والجواب: إن العلماء اختلفوا في المراد بالمسكين على قولين:

الأول: أن المسكين من يملك ما لا يكفيه، واستدلوا بالآية الأولى، وقالوا: إن المسكين عند الإطلاق ينصرف إلى من عنده شيء لا يكفيه، فإذا قيد بما يقتضي أنه لا شيء عنده، فذلك يعلم من القيد الزائد لا من مطلق لفظ المسكين. فالآية الثانية قيدت المسكين بكونه ذا متربة. ولو لم تقيده لانصرف إلى من عنده ما لا يكفيه، فمدلول اللفظ حالة الإطلاق لا يعارض بمدلوله حالة التقييد.

الثاني: إن المسكين من لا شيء عنده، واستدلوا بالآية الثانية، وقالوا: إن المراد بالمساكين بالآية الأولى: الضعاف الذين لا يقدرون على مدافعة الظلم وأن اسم المساكين أطلق عليهم ترحماً لتضعفهم، ويزعمون أنهم كانوا عشرة: خمسة منهم زمنى، ومن أصحاب هذا القول من يدعي أن السفينة لم تكن ملكاً لهم، بل كانوا أجراء فيها: أو أنها عارية، واللام للاختصاص.

وهذه الآراء، ليس لها من الأدلة ما يثبتها، ولا تملك من الحجج ما يوجب الرجوع إليها. ويؤخذ من مجموع الآيتين: أن لفظ المسكين مطلق تتفاوت أفراده: فيطلق على من هو لاصق بالتراب لا شيء عنده كما في الآية الثانية، ومن عنده شيء لا يكفيه كما في الآية الأولى. وذلك كاشتراك الشمس والسراج في النور مع تفاوتهما [1].

قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [2].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب، ص٣٢٧، بتصرف.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

من المعلوم أن حجم الشمس أكبر من حجم الأرض بكثير، فكيف تغرب الشمس في عين من الأرض؟

والجواب: إن ذلك بحسب ظن ذي القرنين، وزعمه لا بحسب الحقيقة والواقع، ولذلك قال: ﴿ وَجَدَهَا ﴾ ولم يقل: كانت تغرب. وذلك كما يرى راكب البحر إذ لج فيه، وغابت عنه الأطراف والسواحل، أن الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه.

فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان في جهة المغرب، فوجد عيناً حمئة واسعة عظيمة، فظن أن الشمس تغرب فيها. وليس كذلك.

وقيل: إن الله قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين، وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس، فلم لا يجوز ذلك؟ وإن كنا لا نعلم به لقصور عقولنا عن الإحاطة بذلك - والأنبياء والحكماء لا يبعد أن يقع منهم مثل ذلك. ألا ترى إلى ظن موسى - فيما أنكره على الخضر - عليهما السلام -؟ حقاً. إن الله على كل شيء قدير، وصحيح ما حدث بين موسى والخضر - عليهما السلام - ولكن الأمر يتعلق بتقرير أمر أو نفيه، ولا علاقة بين هذا وبين حدوث معجزة ثم انقضائها (١).

قال الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٢).

وقال عز وجل: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٣).

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾ (٤). من مجموع هذه الآيات يبرز سؤالان:

---

(١) مسائل الرازي: ٢٠٨، الفتوحات الإلهية: ٣/ ٤٤، وتفسير البيضاوي: ٢/ ٢٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٧.

(٤) سورة العاديات، الآيتان: ٦، ٧.

الأول: إن الآيتين الأوليين يدلان على أن الكافر يظن في نفسه أنه قد أحسن صنعاً بكفره، ويخال له أنه بظلمه وطغيانه على هدى من أمره، والآيتان الأخريان يدلان على أن الإنسان شاهد على كنود نفسه ومبالغته في الكفر، فما سبيل الجمع بينها؟

والثاني: إن الكنود الكفور والكافر، والكنود: كفران النعمة، وليست هذه حال كل إنسان، فكيف صح الإطلاق؟

والجواب عن الأول: إن المراد بشهادة الإنسان على نفسه بأنه كنود، هو شهادة حاله بظهور كنوده، والحال ربما تكفي عن المقال. ويحتمل أن تكون شهادته بذلك على نفسه – يوم القيامة – كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [(١)].

وقوله سبحانه: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [(٢)].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [(٣)]. ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾ راجعاً إلى رب الإنسان المذكور في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ ﴾ وإن تحقق هذا فلا إشكال في هذه الآية.

ولكن رجوع الضمير إلى الإنسان أظهر، بدليل قوله بعد: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾.

والجواب عن الثاني: إن لفظ الإنسان هنا: عام، أريد به خاص، ويشهد

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الملك، الآية: ١١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧١.

لهذا المراد: وصف الله تعالى لهذا الإنسان في هذه الآيات:.

ويحتمل أن يكون المراد: أن جميع أفراد الإنسان كما أخبر الله عز وجل. ولكن بعضهم يصرف نفسه عما جبل عليه من الهوى والشهوة، وبعضهم على خلاف ذلك فيكون الكل داخلين في هذه الصفة، ويكون المراد: أن هذه طريقة من انصرف عن المطلوب أو أقدم عليه. وذلك زجر من الله تعالى عن المعاصي، ولذلك قال بعده: ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ ﴾ [1]، ويحتمل أن يكون هذا الحكم من باب الأعم الأغلب [2].

قال الله عز وجل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ﴾ [3].

وقال جلت قدرته: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [4].

الآية الأولى: تدل على أنه لا ينصب للكافرين ميزاناً – يوم القيامة – والثانية تثبت أن لهم ميزاناً، فكيف الجمع؟

والجواب: إنه ليس المراد بالوزن في الآية الأولى: الميزان، وإنما المراد به القدر والمنزلة والمكانة، يقال: ما لفلان عندنا وزن، أي: قدر واعتبار، والمعنى: لا يكون لهم عندنا قدر ولا خطر؛ لخستهم وحقارتهم، وأنهم لا يعتد بهم.

وقيل: المعنى: لا تثقل موازينهم لأنها خالية من الخير، وإنما قال: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ ﴾ لأن الوزن عليهم لا لهم؛ لأن الميزان إنما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات، والكافر لا حسنة له ولا طاعة، لقوله تعالى:

---

(١) سورة العاديات، الآية: ٩.

(٢) دفع إيهام الاضطراب، ص٣٤٣، وتنزيه القرآن، ص٤٧٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.

(٤) سورة القارعة، الآيتان: ٨، ٩.

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١).

وقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال: «**يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب، فلا يزن جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم:** ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ (٢).

وقيل: المعنى لا نضع لهم ميزاناً توزن به أعمالهم لانحباطها. وعليه فالمراد بقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين، فإنه يستكين في النار، ولكن: لا يخلد فيها، بل بقدر تمحيص ذنوبه.

ويرد هذا القول: قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٣).

ففي هذا دلالة صريحة على أن من خفت موازينه، من الكافرين كما أن من غلبت سيئاته حسناته من المؤمنين: لا يقال له: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ (٤).

انتهى الجزء الأول: بحمد الله تعالى وحسن توفيقه، ويليه إن شاء الله الجزء الثاني وأوله سورة مريم – رضي الله عنها.

***

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٣٢٤، ط بيروت.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠٣ – ١٠٦.

(٤) مسائل الرازي: ٢٠٨ – ٢٠٩، زاد المسير: ٥/ ١٩٨، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣٩، تفسير البيضاوي: ٢/ ٢٧.

الفهرس

المقدمة ٥
المحكم والمتشابه ١٣
رأي العلماء في تعيين المتشابه ٢٢
جهة التشابه ٣٢
آراء العلماء في الإيمان بمتشابه الصفات ٣٥
تطبيق ٣٨
الحكمة من ذكر متشابه الصفات: ٤٠
الحكمة من ذكر المتشابه عموماً: ٤٢
سورة الفاتحة ٤٥
سورة البقرة ٤٩
سورة آل عمران ١٢٧
سورة النساء ١٥٣
سورة المائدة ١٩٣
سورة الأنعام ٢٢٢
سورة الأعراف ٢٥٣
سورة الأنفال ٢٩٠
سورة التوبة ٣٠٥
سورة يونس – عليه السلام ٣٢٤
سورة هود – عليه السلام ٣٣٥

سورة هود – عليه السلام.. ٣٣٥
سورة يوسف – عليه السلام ٣٤٨
سورة الرعد... ٣٦٦
سورة إبراهيم – عليه السلام...................................... ٣٧٨
سورة الحجر ٣٩٩
سورة النحل ٤٠٥
سورة الإسراء... ٤١٨
سورة الكهف.. ٤٣٥
الفهرس ٤٤٧

***